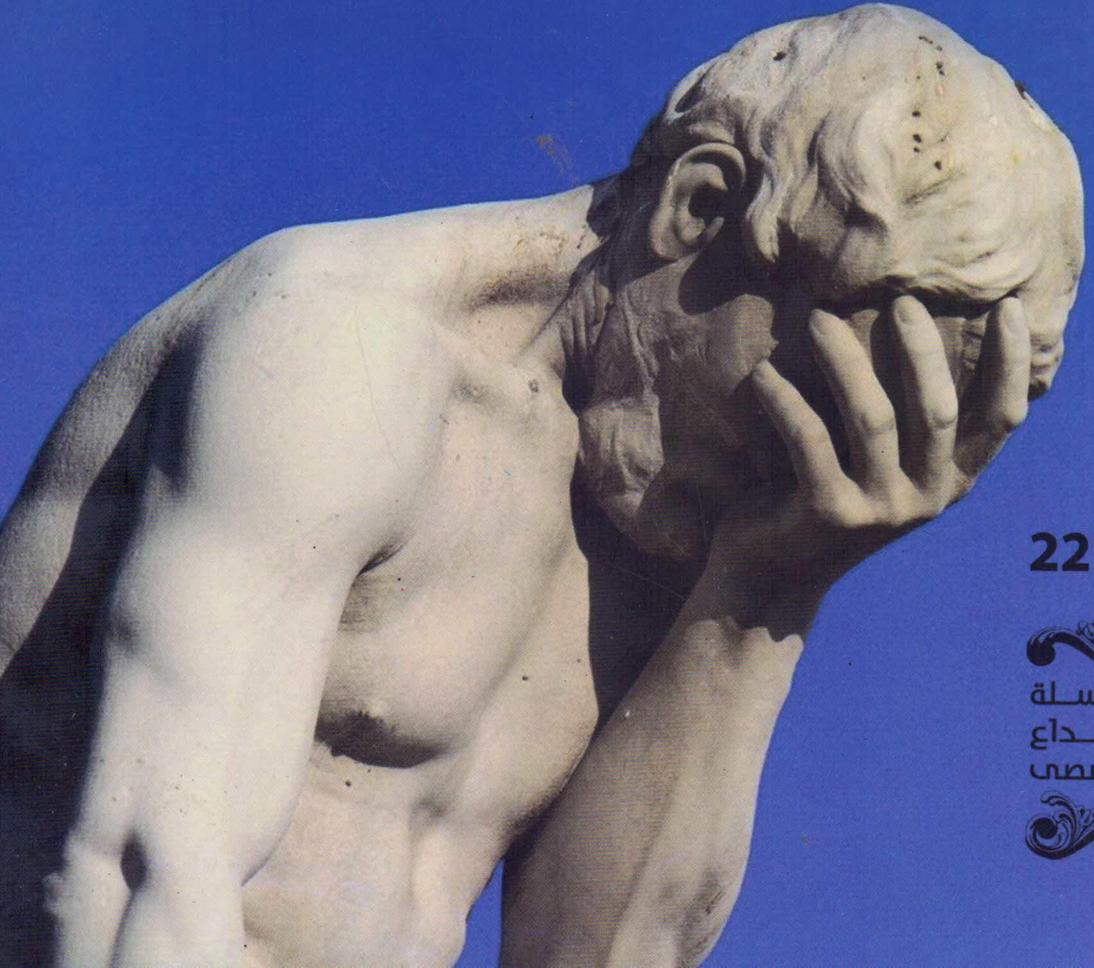
المركز القومي للترجمة

جان بول سارتر

الجدار

ترجمة : نجلاء نادى

مراجعة : فاطمة خليل



2274

سلسلة الإبداع القصصي

"نحن محكومون بالحرية"، "العالم مرآة حريتي"، "الوجود يسبق جوهر الذات"، "أنا العدم الحقيقي السكران بالغرور والشفافية"، و"هل هو العالم الذي أرغب في امتلاكه"، "أن نموت يعني أن نصبح فريسة للأحياء وحين نكف عن الوجود تسير حياتنا نحو قدرها"، "لست مرتاحاً سوى في حريتي، حين أفلت من الأشياء وأفلت من ذاتي..."، "المعرفة هي الانطلاق نحو شيء ما، الانطلاق نحو العالم لإعطائه معنى"... جمل وأفكار وعبارات تختصر شيئًا من فلسفة جان بول سارتر الذي قيل عنه حين رحل إنه كان آخر فلاسفة القرن، أما عن شهرة سارتر التي وصلت الى أبعد من نجومية أي فيلسوف أو رجل فكر هذه الحالة من الإجماع على شخص سارتر وأهميته وأهمية فكره وفلسفته منذ أربعينيات القرن العشرين وحتى أفوله استمرت رغبة بالتمسك بآخر مفكري العصر من قبل الفرنسيين الذين جعلوا حقبة سارتر المطبوعة بصداقته الحميمة مع سيمون دو بوفوار ونقاشاته الفلسفية وكتبه ومسرحه حقبة ذهبية خاصة في الستينيات. ومن هنا أصبحت كل المفردات والتعابير الفلسفية مقرونة بسارتر وكتاباته، وأصبحت كل المفاهيم تقود إلى عالمه: الحداثة والتقدم والالتزام والحرية والوجودية. في مرحلة ما، صار سارتر فيلسوف فرنسا والناطق باسمها وبفكرها. رحل سارتر في عام ١٩٨٠، وترك وراءه "عالمه المقفل" و"الغثيان" الوجودي و"ذبابه" و"كائنه" في العدم وفي مواجهة "الجدار" و"الأيدي القذرة"، لكنه وضعهم جميعهم على "طرقات الحرية".

فهل وصل سارتر معهم إلى شعور الحرية المطلق هذا؟

تصميم الغلاف: رحاب حسن

الجدار

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2274
- الجدار
- جان بول سارتر
- نجلاء نادى
- فاطمة خليل
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
Le Mur
Par: Jean-Paul Sartre

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الجدار

رواية

تأليف: جان بول سارتر
ترجمة وتقديم: نجلاء نادى
مراجعة: فاطمة خليل



2015

سارتر، چان بول، ١٩٠٥ ـ ١٩٨٠..
الجدار/ تأليف: چان بول سارتر: ترجمة
وتقديم: نجلاء نادى: مراجعة: فاطمة خليل. ـ
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
٢٢٨ص: ٢٤ سم.
تدمك ٨ ٠٢٦٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الفرنسية.
أ ـ خليل، فاطمة.
ب ـ نادى، نجلاء.
رقم الإيداع بدار الكتب ٨١١٤/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977 -91 -0265 - 8

ديوى ٨٤٣

المحتويات

تقديم المترجمة

في عام ١٩٢٩، كان جان بول سارتر لا يزال في بداياته الأدبية، فقام بنشر مجموعة قصصية أهداها إلى الآنسة أولجا كوزاكيفتش التي كانت، في ذلك الحين، واحدة من طالبات سيمون دو بوفوار. كان عنوان المجموعة "الجدار" وتتألف من خمس قصص متفاوتة الطول. وعلى الرغم من أن الكتاب الذي يضم هذه المجموعة يتألف من قصص متفرقة، فقد حرص النقاد والباحثون على القول بأنَّ هذه القصص مترابطة فيما بينها، بحيث تشكل في نهاية الأمر كلاً واحدًا. بل إن سارتر نفسه كثيرًا ما عرّف المجموعة بأنها «خمسة انحرافات صغيرة مأسوية وهزلية». أما مؤرخو حياته فقالوا دائمًا إن هذه القصص تعبر في مجموعها خير تعبير عما كان سارتر يريد أن يعتبره أدبًا وجوديا، بحيث إن هذه القصص اعتبرت الممثل الشرعي للأدب الوجودي، في مجال القصة القصيرة على الأقل. أما بالنسبة إلى عنوان المجموعة فهو مأخوذ من عنوان القصة الأولى فيها، التي تعتبر الأشهر، وهي الأشهر ليس بسبب وجوديتها أو حتى بسبب قيمتها الأدبية، بل لأنها كتبت حول الحرب الأهلية الإسبانية في وقت كانت هذه الحرب تملأ الدنيا وتشغل الناس في أوروبا، وينظر الناس إلى موقف الكتّاب والفنانين منها لتحديد تقدميتهم من رجعيتهم. طبعًا لا يمكننا أن نقول هنا إن سارتر كتب القصة فقط انطلاقًا من رغبته في أن يحدد نفسه من ناحية الموقع الفكري أو السياسي، بل هو كتبها بوصفها نموذجًا لأدب الموقف، وتعبيرًا عن موقف وجودي ملتزم من الحياة ومن مسألة الحرية.

أما عناوين القصص الأخرى في المجموعة فإنها كما يأتي: "الغرفة"، "إروسترات"، "ألفة" وأخيرًا "طفولة قائد"... ونذكر هنا أن هذه القصة الأخيرة ستعود إلى الظهور مستقلة، وحتى على شكل مسرحية في وقت لاحق. وكان هذا لافتًا حتى وإن كنا نعرف أن كل واحدة من القصص عرفت دربًا خاصًا بها لاحقًا.

وتدور قصة "الجدار"، أولاً، حول موقف يصفه سارتر بدقة، وفيه مجموعة من السجناء السياسيين الجمهوريين الإسبان الموجودين في المعتقل الفاشي تحت إمرة جنود فرانكو، وصدر في حقهم حكم بالإعدام. أما الجدار الذي تحمله القصة كعنوان فهو ذاك الذي يوقف أمامه المحكومون بالإعدام لكي يجابهوا الجنود الذين سيطلقون النار عليهم تنفيذًا للحكم. وأما الشخصية الرئيسة في القصة فهي بابلو إيفياتا الذي يجد نفسه هناك على وشك أن يعدم مع اثنين من الثوار الجمهوريين الموجودين معه في الزنزانة. وذات لحظة، خلال فترة الانتظار تعرض عليه إدارة السجن أن يُدل على طريقة للهرب إن هو أفشى بالمكان الذي يختبئ فيه رفيق له. لكنه يرفض... ويظل يرفض حتى اللحظة التي لم يبق فيها على موعد إعدامه المقرر سوى دقائق. هنا إذ يفكر في الأمر يجد أن في إمكانه أن يخبر السلطات بمكان ما، كان شبه واثق من أن الرفيق المطلوب رومان غري، غير موجود فيه. يقول في نفسه: كل ما في الأمر أنني سأكسب بعض الوقت، فربما تحصل معجزة، ما دامت المعلومة خاطئة. لكن الذي يحصل هو أن غري كان، من دون علم إيفياتا، بالطبع، قد انتقل من المكان السري الذي كان يختبئ فيه، إلى المكان نفسه الذي يشير إليه إيفياتا معتقدًا أن غري غير موجود فيه. وانطلاقًا من هنا يتم العثور على غري ويعدم، بينما تنقذ حياة إيفياتا. ومن المفيد أن نذكر هنا أن هذه القصة تروى لنا بضمير المتكلم، ما يضفي المصداقية الضرورية على هذه الحكاية التي يمكن تلخيصها بأنها "حكاية نجاة لم تكن منشودة، وخيانة لم تكن مطلوبة أو مرغوبة".

. القصة الثانية، "الغرفة" تروى بصيغة الغائب، لتحدثنا عن امرأة تزوجت رجلاً ثانيًا بعد زوجها الأول ليتبين لها أن الزوج الجديد مصاب بالجنون. وهنا يأتي

أقرباء المرأة وأهلها ليقنعوها بأن تترك هذا الزوج المجنون ليقاد إلى المصحة، لكنها ترفض، فهي لم تعد قادرة على أن تعود إلى حياتها الطبيعية الأولى حتى ولو أرادت ذلك. من الواضح هنا أن سارتر أراد أن يسبر غور الكثير من القضايا في الوقت نفسه: من قضية الماضي إلى مسألة الجنون، ومن الانعزال إلى العائلة ـ والعائلة البرجوازية بخاصة، وصولاً إلى مسائل تتعلق بالجنس والزواج وما إلى ذلك.

في القصة الثالثة "إروسترات" يعود جان بول سارتر إلى صيغة المتكلم، وإلى محاولته ربط الحاضر بالماضي، ليسبر غور موضوعين كانا أساسيين بالنسبة إليه في ذلك الحين: كراهية البشر والعنف... وهو يقدم هذا من خلال لعبة القتل المجاني، والبطل الذي يعيش معاناة علاقته بالمرأة والجنس ... غير أن هذا كله، إذ يمتزج ببعضه البعض في النهاية، ينتهي إلى موقف عبثي حافل بالكوميديا والفاجعة في وقت واحد، ناهيك بأن سارتر اختار عند هذه النهاية أن يحيل قارئه إلى حادث مغرق في ابتعاده زمنيا: حريق مكتبة الإسكندرية. ويأتي هذا عن طريق البطل الذي كان ـ كما يحدثنا هو نفسه ـ قد قرر منذ البداية أن يتبع درب هيروستراتوس، ومن هنا جاء عنوان القصة، الذي حقق مسار التاريخ من خلال فعل الشر. فيقتل ستة أشخاص، لمجرد أن مسدسه لا يتسع أساسًا إلا لست رصاصات... أما اللحظة الأقوى في هذه القصة فهي تلك التي يكتشف فيها البطل كم يملك من القوة حين يقبض بيده على المسدس مدركًا أن في تلك اليد حياة عدد من الأشخاص وموتهم. وعبر هذه الشخصية وحكاياتها من الواضح هنا أن سارتر إنما أراد أن يعطينا صورة قاسية للكيفية التي تتغير بها طبيعة الإنسان تبعًا لإحساسه بقيمة الشيء الذي يمتلكه، حيث إن بطله هنا يتبدل تبعًا لإدراكه حجم الشر الكامن في المسدس.

تحمل القصة الرابعة عنوان "ألفة"، وهذه القصة بدورها تروى لنا بصيغة الغائب. كذلك نجدها تغوص في ما يبدو لنا جزءًا من الماضي. غير أن سارتر

يعمد هنا إلى أن يروي الأحداث عن طريق روايتين مونولوجيتين، على لسان سيدتين تتحدث كل واحدة منهما، بدورها، وفي تقاطع فيما بينهما، عن علاقتها بالحياة الزوجية والجنس والعائلة والمشاعر والفشل وما إلى ذلك. والمنطلق هنا هو من ذلك الفراغ العدمي الذي تحس نفسها واقعة فيه، شابة تزوجت حديثًا، لكنها تجد نفسها وسط خيبة أمل عنيفة تسبب لها بها زوجها. إنها تحس، في صدى لمونولوج المرأة الأخرى، أنها تعيش فراغ الحب وأن الحب نفسه فراغ، لكنها سرعان ما تدرك مستسلمة أن عليها أن تبقى مع زوجها وإلا فإن الفراغ سيصبح مزدوجًا...

أما القصة الأخيرة "طفولة قائد"، التي تقدم عادة بمفردها، فهي تتحدث عن التطور العقلي الذي يطرأ على الفتى المدعو لوسيا فلورييه، بين سن الرابعة وسن البلوغ... ما يمكن سارتر من أن يرسم أمامنا مسارًا تحليليا طويلا متشعب السمات: سيكولوجي، اجتماعي، تاريخي، لشخص كان في البداية شديد العادية، ما أهّله لاحقًا ليصبح واحدًا من المدافعين بشراسة عن الأيديولوجيا الفاشية.

لقد كتب سارتر هذه القصص في أزمان متفرقة طوال ثلاثينيات القرن العشرين، ويبدو أن لكتابة كل قصة من هذه القصص ظروفها وخلفياتها السياسية والأيديولوجية، ولكن من الواضح في الوقت نفسه أنها معًا، تشكل ما يشبه الصورة الموازية لتطور جان بول سارتر نفسه (١٩٠٥ - ١٩٨٠)، ليس فقط من الناحية الأدبية، بل كذلك من الناحيتين السياسية والحياتية. ومن هنا مال كثير من دارسي حياة سارتر وأعماله، إلى اعتبار هذه القصص جزءًا أساسيا من سيرة صاحب "أبله العائلة" و"الوجود والعدم" و"الغثيان" و"الأيدي القذرة" وغيرها...

***

● **جان بول سارتر (١٩٠٥- ١٩٨٠)**

ولد جان بول سارتر في باريس يوم ٢١ / ٦ / ١٩٠٥. أبوه جان باتيست سارتر كان ضابطًا في البحرية الفرنسية، وقد توفي وابنه رضيع. أما أمه آن ماري شفايتزر فقد ربته في كنف جده، واحتفظت بحدبها عليه حتى بعد أن تزوجت من جديد. وكان عمها ألبير شفايتزر طبيبًا مشهورًا، وقد نال جائزة نوبل للطب سنة ١٩٥٢.

نشأ سارتر بين الكتب نشأة يعبر عنها كتابه "الكلمات" الذي يمثل شطرًا من سيرة ذاتية ومدخلاً إلى مكونات وعي هذا الفيلسوف الذي لم يكف عن الأسئلة حتى غادر هذا العالم في الخامس عشر من أبريل١٩٨٠.

عاش سارتر تجربة الأسر، عندما احتل الألمان بلاده خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يحمل السلاح، فاستمر حبسه سنة (١٩٤٠-١٩٤١) وبعد عام، راح يتردد على المقاهي الثقافية ومعه عدد من المشاهير من أمثال ألبير كامو. وقد أسس مجلة "الأزمنة الحديثة" عام ١٩٤٤. وفي العام التالي ألقى محاضرة في أمريكا بعنوان "الوجودية نزعة إنسانية" فأحدث ضجة كبرى كانت المدخل إلى شهرته العالمية.

كانت علاقته مع ألبير كامو، فيلسوف العبث، علاقة شد وصد. فهما صديقان حميمان، لكنهما اختلفا مرتين وانتهى الخلاف الثاني عام ١٩٨٤ بقطيعة نهائية، كسرها سارتر بعد وفاة كامو بمقالة مشهورة نشرها في كتابه "أدباء معاصرون". إلا أن صداقته لم تنقطع مع الكاتبة الوجودية سيمون دو بوفوار، وظل وفيًا لذكرى صديقه بول نيزان. كما كتب باحترام وحب عن جان جينيه واصفًا إياه بأنه كاتب وشهيد.

كان سارتر، الوجودي، ذا نزعة ماركسية، إلا أنه كان حر التفكير. فوقف ضد التدخل السوفييتي في المجر عام ١٩٥٦، وضد مثل هذا التدخل في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨. وألف كتابًا بعنوان "عارنا في الجزائر" أسهم في

تأليب العالم ضد احتلال فرنسا للجزائر. أما في عام ١٩٥٨ فقد كان من أشهر المتظاهرين ضد الجنرال شارل ديغول الذي كان يقول: أنا فرنسا وفرنسا أنا.

عام ١٩٦٤ فاز سارتر بجائزة نوبل للآداب، وكانت قيمتها المادية ربع مليون كورون سويدي. لكنه رفض الجائزة وسط دهشة العالم واختلاف المعلقين على تفسير ذلك الرفض الغريب.

من الصعب ضبط سجل أعمال سارتر في هذا السياق. فقد كان غزير الإنتاج. من رواياته: "الغثيان" و"دروب الحرية" التي تتألف من ثلاثية هي "وقف التنفيذ ـ سن الرشد ـ الحزن العميق". ومن مجموعاته القصصية نذكر "الجدار". أما مسرحياته فكثيرة، وقد قام ألبير كامو شخصيا بإخراج بعضها. ومن مسرحيات سارتر نذكر "الذباب ـ الجلسة السرية ـ الأيدي القذرة ـ الدوامة ـ أسرى ألتونا ـ البغي الفاضلة" وكتب في النقد "ما الأدب" الذي اعتبره النقاد من أهم الوثائق الأدبية المبشرة بالالتزام. ويظل كتابه "الوجود والعدم" هو السجل المركزي لفلسفته الوجودية. كما أنه صاحب كتاب "ثورة على السكر" المدافع بشرف عن التجربة الكوبية وقائدها فيديل كاسترو.

أما كتابه "الكلمات" فقد دونه عام ١٩٦٣، أي عندما كان له من العمر ثمان وخمسون سنة. ويرى النقاد ومؤرخو الأدب ألا غنى عن هذا الكتاب المكثف لمعرفة حقيقة جان بول سارتر.

إن سارتر فيلسوف وجودي فرنسي، عبَّر عن آرائه في العديد من الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة والأعمال النظرية.

كانت مسألة الوجود المجرد للأشياء، خاصة وجوده هو شخصيا، مصدر قلقه وإعجابه مما دفعه للبحث. فقد بدا له أنه لا مبرر لوجود أي شيء.

وفي روايته الأولى "الغثيان" ١٩٣٨ وصف الرعب والغموض اللّذّين يواجههما الإنسان عندما يفكر في حقيقة وجود الأشياء؛ تلك الحقيقة التي لا يمكن تغييرها.

في عمله الفلسفي الرئيسي "الوجود والعدم" ١٩٤٣ قام سارتر بالتحري في طبيعة الوجود والعدم وأشكالهما. قال سارتر إن الوجود البشري الذي سماه الوجود لذاته يختلف اختلافًا جذريا عن وجود الجمادات؛ مثل الطاولات، الذي سماه الوجود في ذاته.

يقول سارتر إن الكائن البشري وحده هو الذي يعي وجود نفسه كما يعي وجود الأشياء الأخرى. ويتمسك سارتر برأيه في أن الجمادات ببساطة هي أشياء جامدة، غير أن بني البشر ليسوا كذلك، لأن لهم الخيار في أن يصبحوا الشيء الذي يختارونه هم بأنفسهم. ويقول سارتر: إن الإنسان ليس جبانًا، ومثال ذلك أن الطاولة هي طاولة فقط ولا شيء غير ذلك، بينما الإنسان بعكس الطاولة يصبح جبانًا باختياره هو. ويستطرد سارتر قائلا: إن الإنسان، على عكس الطاولة، لا يملك سمة مميزة أو جوهرًا ثابتًا محددًا أو مخصصًا له. ومبدئيا فإن الناس يوجدون كمخلوقات عليهم أن يختاروا طبائعهم وسماتهم بأنفسهم. وهكذا فإنه في مقالة "الوجودية والإنسانية" ١٩٤٦ وصف الوجودية بأنها مبدأ ينطبق على البشرية التي يسبق فيه وجودُها سماتها المميزة.

يعتقد سارتر أن الناس أحرار تمامًا، إلا أنهم يخشون الاعتراف بهذه الحرية وتحمّل المسئولية الكاملة تجاه سلوكهم المنطوي على هذه الحرية. ولذلك فإن الناس يميلون إلى خداع أنفسهم عن موقفهم الحقيقي. قام سارتر باختيار الأشكال المختلفة والدقيقة عن الخداع النفسي في جميع أعماله الفلسفية والأدبية وتحليلها. وقد انتقد سارتر نظرية سيجموند فرويد في التحليل النفسي للسلوك البشري، ووضع نظريته الخاصة في التحليل النفسي والوجودي. ويقول سارتر إن الدافع الأساسي للسلوك البشري هو الرغبة في تحقيق إرضاء الذات بصورة كاملة، وذلك بمحاولة أن يصبح الإنسان السبب في وجود نفسه. وقال سارتر إن هذا الهدف مناقض لنفسه، ومن المحال تحقيقه. ولذلك فهو يعد النشاط البشري كله لا طائل من ورائه. كما قال سارتر أيضًا إن الإنسان عاطفة لا فائدة منها. ويُعرِّف فكرة الكائنات ذات القناعة الذاتية التامة، التي هي السبب في وجود أنفسها بأنها الفكرة التقليدية عن الإله. وحسب ما يقول سارتر. حاشا

لله وتعالى عن هذا الزعم - فإن كل فرد منا يريد أن يصبح الإله وإن الإله لا يمكن أن يكون موجودًا.

وفي نقد المنطق الجدلي ١٩٦٤ قدّم سارتر نظرياته السياسية والاجتماعية، واعتبرها شكلاً من أشكال الماركسية.

تتضمن مسرحيات سارتر: "الذباب" ١٩٤٣؛ "ولا مخرج" ١٩٤٤؛ و"الأيدي القذرة" ١٩٤٨؛ "سجناء الطونا" ١٩٥٩. وكتب "طرق الحرية" وهي سلسلة من الروايات تشمل "عمر المنطق" ١٩٤٥؛ و"تأجيل تنفيذ الحكم" ١٩٤٥؛ و"النوم المزعج" ١٩٤٩.

وقد طبّق سارتر نظرياته في التحليل النفسي في كتاباته عن السيرة الذاتية لبودلير عام ١٩٤٧، والقديس جنيت عام١٩٥٣، أما الكلمات ١٩٦٣، فهي سيرته الذاتية أثناء فترة الشباب.

وفى رواية "الجدار" سجل سارتر أحاسيس ثلاثة رجال ومعاناتهم في ليلتهم الأخيرة قبل تنفيذ حكم الإعدام بهم رميا بالرصاص على الجدار. عجوز مريض، شاب عاشق، وثالث اختبر الحياة وذاق حلوها ومرها.

● **عن الرواية:**

تعد قصة "الجدار" تجسيدا حيا لفكر سارتر فى وصفه للمشاعر الإنسانية، وهى تواجه أقصى لحظات الحرج فى أصعب المواقف وتحليله الدقيق لردود أفعال شخصيات قصصه تجاهها. وأود التنويه أن قصة "الجدار" قد قام بترجمتها قبلا المترجم الكبير هاشم الحسينى عام ١٩٦٣، وهى مرجع أدبى كبير، لأنها تمثل مستوى الفكر والنشاط واللغة الأدبية لذلك الزمن، كما أنها تمثل النظرة الإنسانية والفكرية فى عقل المترجم، فهو وإن كان يترجم الأفكار، إلا أنه يلونها ويصبغها بلون قلمه ولون شخصيته، ولكنى بوصفى كاتبة أردت أن أعبر عن

أفكار الكاتب بأحاسيس الكاتبة، وليس بأحاسيس المترجمة؛ لذا حاولت أن تكون الترجمة متواكبة مع الفكر والأدب فى العصر والزمن الحالى لكي تتناسب مع ثقافة القارئ العربى وأخلاقياته، وتكون جديرة بأن تضاف إلى المكتبة العربية.

نجلاء نادى

القاهرة فى ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٩م

إلى أولجا كوزاكيفتش

الجـــدار

دفعنا إلى قاعة كبيرة بيضاء وكانت عيناى ترتعشان بسبب الضوء المسلط عليهما، ثم رأيت منضدة وأربعة أشخاص من المدنيين متراصين خلفها يتصفحون الأوراق.

وكان قد تم حشد المساجين الآخرين فى الداخل فكان علينا الدخول لهذه الغرفة لنلحق بهم. كان هناك الكثيرون ممن أعرفهم وآخرون غرباء. كان الاثنان اللذان يتقدمانى ذوى بشرة شقراء على جمجمتين مستديرتين. كانا متشابهين أعتقد أنهما فرنسيان وكان أصغرهم يرفع بنطاله طوال الوقت مما يجعلنى عصبى المزاج .

دام هذا الحال ثلاث ساعات كنت خاملا ورأسى خاويًا، ولكن لحسن الحظ كانت الغرفة معتدلة الدفء، مما أشعرنى بالتحسن: فمنذ أربع وعشرين ساعة لم نكف عن الارتعاش من البرد.

كان الحراس يقتادون مسجونا تلو الآخر أمام المائدة، وعندها يسألهم الأشخاص الأربعة عن اسم كل منهم ومهنته. وفى أغلب الأحيان كانوا لا يذهبون بعيدا عن هذه المعلومات أو أنهم كانوا يطرحون سؤالا من هنا و هناك: "هل اشتركت فى تخريب الذخيرة عن عمد؟ "أو بالأحرى" أين كنت فى صباح يوم؟.

وماذا كنت تفعل؟".

كانوا لا يستمعون إلى الإجابات، ولم تبد عليهم أى نية للاستماع من الأصل فكانوا يصمتون برهة وينظرون قبالتهم ثم يأخذون فى الكتابة.

سألوا طوم إذا كان قد خدم حقا فى الفرقة الدولية، ولم يستطع طوم أن ينفى ما قيل بسبب الأوراق التى وجدوها فى سترته. ولم يسألوا خوان شيئا فبعد أن ذكر اسمه ظلوا يكتبون كثيرا.

فقال خوان :

ـ "إنه أخى خوزيه هو الفوضوى، ولكنكم تعرفون أنه لم يعد هنا وأنا لا أتبع أى حزب ولم أشتغل أبدا بالسياسة" .

لم يجيبوه فأكمل قائلا:

ـ "أنا لم أفعل شيئا. ولن أدفع ثمن ما فعله الآخرون" .

كانت شفتاه ترتعشان. فأسكته الحارس واصطحبه، وكان دورى هو التالى...

ـ "أتدعى بابلو إيبييتا؟

فأجبت: نعم .

فنظر واحد منهم فى أوراقى، وقال:

ـ "أين رامون جريس؟

ـ لا أعرف!

ـ لقد قمت بالتستر عليه وإخفائه فى بيتك من اليوم السادس وحتى التاسع عشر.

ـ لا!

فكتبوا ملاحظاتهم للحظة وأخرجنى الحراس. وفى الممر كان طوم وخوان ينتظران بين حارسين وعندما شرعنا فى الانصراف سأل طوم أحد الحراس:

ـ وبعد؟

ـ ماذا؟ قال الحارس .

ـ أكان هذا استجوابا أم محاكمة ؟

رد الحارس مستهزئا:

- كانت هذه محاكمة!

- إذن ماذا سيفعلون بنا؟

فأجاب الحارس بجفاء:

- سنبلغكم بالحكم فى زنزاناتكم .

فى الواقع كانت الزنزانة التى يقصدها الحارس هى أحد أقبية المستشفى، وكان الجو فيها شديد البرودة بسبب تيارات الهواء.

قضينا الليل كله نرتجف، ولم يتحسن الحال طيلة النهار. أمضيت الخمسة أيام الماضية فى سجن الإيبارشية المظلم (مقر رئيس الأساقفة) وهو نوع من الزنزانات التى توجد تحت الأرض ويرجع تاريخها للعصور الوسطى. لما كان يوجد كثير من المساجين، ولما كان المكان ضيقا كنا نصطف فى أى مكان. لم أكن آسفا على سجنى المظلم: لم أعان فيه من البرد ولكنى كنت وحيدا، وكلما طال الوقت يصبح الأمر مزعجا! أما فى هذه الزنزانة فكانت لدى رفقة.

خوان لا يتكلم إلا نادرا: كان يشعر بالخوف ثم إنه كان صغيرا ليتحمل تبعات ما سيتفوه به، ولكن طوم كان متحدثا لبقًا، وكان يتقن تماما الإسبانية. فى القبو كان هناك مقعد وأربعة فرش محشوة من القش. وعندما أحضرونا، جلسنا ننتظر بصمت، و قال طوم بعد برهة:

انتهى أمرنا!

فقلت: أعتقد هذا أنا أيضا، ولكنى أظن أنهم لن يفعلوا شيئا بالنسبة للصغير.

فأجاب طوم:

- لا يوجد ما يلام عليه فهو شقيق لثائر، هذا كل ما فى الأمر!

نظرت إلى خوان، لم يكن يبدو عليه أنه ينتبه. وتابع طوم:

ـ هل تدرى بما يفعلونه فى سرقسطة؟ إنهم يطرحون الأشخاص على الطريق ويمرون فوقهم بالشاحنات. أخبرنا بذلك أحد المغاربة الفارين. يقولون إن ذلك لتوفير الذخيرة فقلت:

ـ هذا لا يوفر الوقود!

كنت غاضبا من طوم فكان الأجدر به ألا يقول هذا! وأضاف:

ـ هناك ضباط يتنقلون على الطريق، يشرفون على العملية، أيديهم فى جيوبهم والسيجار فى فمهم. أتظن أنهم يجهزون على الأشخاص؟ وأنهم يدعونهم يصرخون أحيانًا لمدة ساعة لقد قال لى المغربى إنه لم يصرخ فى المرة الأولى! فقلت:

ـ لا أظن أنهم سيفعلون هذا هنا! إلا إذا كان هناك نقص فى الذخيرة بالفعل.

كان النهار يتسلل إلى الزنزانة عن طريق أربع فتحات لمرور الهواء وثغرة مستديرة أحدثت فى السقف، إلى جهة اليسار، وكانت مشرفة على السماء. فمن خلال هذا الثقب المستدير المسدود عادة بحاجز صغير، كانوا يلقون بالفحم فى القبو.

وتحت هذه الثغرة تمامًا كانت توجد كومة كبيرة من الفحم المسحوق، والذى كان مخصصًا لتدفئة المستشفى. ومنذ بداية الحرب تم إجلاء المرضى، وظل الفحم بغير استخدام حتى إن المطر كان يتساقط عليه لأنهم نسوا إغلاق الحاجز الصغير.

كان طوم يرتجف قائلاً:

ـ "يا إلهى إنى أرتجف، ها هو الأمر يعاودنى من جديد!

ونهض وأخذ يمارس بعض التدريبات الرياضية وفى كل حركة كان قميصه ينفتح كاشفًا عن صدره الأبيض المكسو بالشعر. تمدد على ظهره ورفع ساقيه فى الهواء على شكل مقص. وكنت أرى مؤخرته السمينة ترتجف، كان قوى البنية،

كثير الشحم. كنت أفكر برصاصات البندقية ورءوس الحراب وكيف أنها ستغرز فى تلك الكتلة من اللحم الطرى كما تتخلل قطعة من الزيد. لم يكن سيحدث لى الأثر نفسه لو كان ضعيفا.

لم أكن أشعر بالبرد تمامًا بل كنت لا أشعر بكتفى ولا ذراعى.

كان يتهيأ لى من وقت لآخر أن شيئا ما ينقصنى فأبحث عن سترتى من حولى، ثم أتذكر بغتة أنهم لم يعطونى السترة.

كان الأمر عسيرًا، فقد أخذوا ثيابنا ليعطوها لجنودهم، ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا، وتلك السراويل التى يرتديها مرضى المستشفيات فى الصيف. وبعد برهة نهض طوم ليجلس بجانبى وهو ينفخ:

ـ هل تدفأت؟

ـ يا اسم الله المقدس، لا ... ولكنى لا أستطيع التقاط أنفاسى!

ونحو الساعة الثامنة دخل أحد القواد مع اثنين من جنود الكتائب.

كان يحمل ورقة فى يده، فسأل الحارس:

ـ ما اسم هؤلاء الثلاثة؟ فأجاب الحارس:

ـ ستينبوك، إيبيتا، ميربال.

ووضع القائد نظارته القديمة ونظر إلى القائمة.

ـ ستينبوك... ستينبوك.. انظر أنت محكوم عليك بالإعدام. ستعدم رميًا بالرصاص غدًا صباحًا.

وتطلع أيضا ثم قال:

ـ والآخران أيضًا. فقال خوان:

ـ غير معقول! ليس أنا! فتطلع إليه القائد بدهشة:

ـ ما اسمك؟

فقال خوان ميريال.

فقال القائد:

- اسمك هنا. أنت أيضا محكوم عليك.

- فقال خوان: لم أفعل شيئا!

فهز القائد كتفيه واتجه نحو طوم ونحوى:

- هل أنتما من الباسك؟

- لا أحد من الباسك. فبدا عليه الانزعاج.

- لقد قيل لى إن هناك ثلاثة من الباسك. ولن أضيع الوقت فى الركض خلفهم. إذا بالطبع ألا تريدون كهنة؟

فلم نكلف أنفسنا بالإجابة فقال:

- سيأتى لكم طبيب بلچيكى فى الحال، سمح له بقضاء الليل معكم. وقدم التحية العسكرية وانصرف.

- فقال طوم: أما كنت أقول لك إننا فى أحسن حال!

- فقلت: نعم، ولكنه عمل وحشى بالنسبة للصغير.

لقد قلت هذا فقط لكى أكون عادلاً، ولكننى لم أكن أحب الصغير.

كان وجهه ذا ملامح رقيقة، ولكن الخوف والمعاناة جعلا وجهه معوجًا ومشوهًا. قبل ثلاثة أيام كان صبيا مرفهًا يروق للعين، ولكنه الآن يشبه شكل خشبة مسطحة، وكنت أعتقد أنه لن يعود إلى صباه أبدا حتى ولو أطلق سراحه. لم تمثل شفقتى عليه شيئًا، بالنسبة لى، غير أنها تثير اشمئزازي، إذ إنه كان يخيفنى.

لم ينطق بشىء بعد ذلك، ولكنه أصبح داكن اللون: كما أصبح وجهه ويداه داكنة أيضًا. عاد إلى الجلوس ونظر أرضا بعينين مستديرتين. وكان طوم طيب

النفس فأراد أن يمسك بيده، لكن الصغير تخلص منه بعنف مبديًا امتعاضه. فقلت بصوت منخفض:

ـ دعه، فأنت ترى أنه سيبدأ بالبكاء.

وخضع طوم للأمر مكتئبا، إذ كان يؤثر تعزية الصغير. عله ينشغل عن التفكير فى حاله مرة أخرى . لكن هذا يزعجنى: لم أكن قط قد فكرت بالموت، لأن فرصة الموت لم تسنح لى ولكن الفرصة موجودة الآن، ولم يعد هناك شىء آخر يجدر عمله سوى التفكير فى هذا الأمر .

بدأ طوم بالكلام وسألنى:

ـ هل قتلت أشخاصًا، أنت؟

لم أجب فأخذ يشرح لى كيف أنه قتل ستة أشخاص منذ بداية شهر أغسطس، لم يكن يعى الموقف، ورأيت أنه لم يرغب بأن يشعر بذلك. أما أنا فلم أكن أفقه شيئا تماما، كنت أتساءل إذا كان ذلك يؤلم كثيرا، وأفكر بالرصاصات وأتصور أجسامها الحارقة تخترق جسدى.

كل هذا كان على هامش القضية الحقيقية، لكننى حافظت على هدوئى: فلدينا الليل كله لنفهم. وبعد لحظة توقف طوم عن الحديث فنظرت إليه بطرف عينى. رأيت إنه بات داكن اللون هو أيضًا وأن ملامحه تدل على البؤس، وقلت فى نفسى "ها هى البوادر" كان الوقت ليلاً إلى حد ما، والضوء الباهت يدخل من خلال الثغرات وكومة الفحم محدثًا بقعة كبيرة تحت السماء ومن ثقب السقف بت أرى إحدى النجوم: سيكون الليل صافيًا وباردًا.

فتح الباب ليدخل حارسان. كان يتبعهما رجل أشقر يرتدى بزة رسمية بلچيكية. قام بتحيتنا ثم قال:

ـ أنا طبيب ولدىّ التصريح بمؤازرتكم فى هذه الظروف العصيبة.

كان صوته مميزًا يروق للسامع، وقلت له:

ـ ماذا جئت لتفعل هنا؟

ـ أضع نفسى تحت تصرفكم، سأبذل قصارى جهدى حتى لا تكون هذه الساعات القليلة شديدة الثقل.

ـ لماذا أتيت إلينا؟ فهناك أشخاص كثيرون يضيق بهم المستشفى. فأجاب بهيئة مبهمة:

ـ لقد أرسلونى إلى هنا. وأضاف:

ـ آه! أتودون أن تدخنوا؟ لدى سجائر وسيجار أيضا.

قدم لنا سجائر إنجليزية وسيجار، لكننا رفضنا. نظرت فى عينيه فبدا منزعجًا. وقلت له:

ـ أعتقد أنك لم تأت إلى هنا للمسايرة فأنا أعرفك. لقد شاهدتك مع الفاشيين فى ساحة الثكنة فى اليوم الذى ألقى على القبض فيه.

كنت أهم بالمتابعة، ولكن شيئًا ما أتانى فجأة فباغتنى: إن وجود هذا الطبيب لم يعد يهمنى. فعادة عندما أكون فى مواجهة رجل لا أتركه أبدا ومع ذلك فقدت الرغبة فى الحديث معه. فهززت كتفى وحولت عينى. بعد ذلك بقليل رفعت رأسى فقد كان يراقبنى بفضول. كان الحراس قد جلسوا فوق أحد فرش القش. بدرو الطويل الناحل كان يدير إبهاميه، والآخر يهز رأسه من وقت لآخر حتى لا ينام. قال بدرو فجأة للطبيب:

ـ هل تريد ضوءا؟ فأومأ الآخر برأسه: "نعم".

أظن أنه لم يكن أذكى من قطعة الحطب، لكنه لم يكن خبيثا بلا ريب والناظر إلى عينيه الزرقاوين الباردتين يرى أنه كان يخطئ لضعف خياله. وخرج بدرو ورجع حاملاً سراجًا مضاءً بالنفط وضعه على طرف المقعد. كان السراج لايضىء كثيرًا، لكنه أفضل من لا شىء: فقد تركونا البارحة فى الظلام. نظرت لبرهة غير قصيرة لدائرة الضوء التى رسمها السراج فى السقف، كنت مشدوهًا، ومن ثم استيقظت بغتة فانمحت دائرة الضوء.

وأحسست بأني منسحق تحت عبء ثقيل. لم تكن تلك فكرة الموت أو الخوف: بل كان ذلك مبهمًا. كان خداى يحرقاننى كما كنت أشعر بألم فى جمجمتى.

نبهت نفسى وتطلعت إلى صاحبى. كان طوم قد دفن رأسه بين يديه، فلم أكن أرى سوى رقبته السمينة البيضاء. والصغير خوان كان أكثرنا بعدا عن طوره، كان فمه مفتوحًا وفتحتا أنفه ترتجفان.

اقترب الطبيب منه ووضع يده فوق كتفه وكأنه يريد أن يواسيه. لكن عينيه ظلتا باردتين. ثم شاهدت يد البلچيكى تنزل على طول ذراع خوان حتى القبضة. وخوان يسمح له بذلك غير آبه.

وأخذ البلچيكى يده بين أصابعه الثلاثة، بأسارير منبسطة، وفى الوقت نفسه تراجع قليلاً إلى الوراء لكى يدير لى ظهره. غير أنى انحنيت نحو الوراء فشاهدته يخرج ساعته وينظر إليها لحظة بدون أن يترك يد الصغير. وما هى إلا هنيهة حتى ترك اليد الجامدة وذهب إلى الجدار يستند عليه، وكأنه تذكر فجأة شيئًا مهمًا عليه أن يدونه فى الحال، فقد أخذ دفترًا صغيرًا من جيبه وكتب عليه عدة أسطر. وقلت فى نفسى "لن يأتى هذا القذر ليجس نبضى، فسأضربه بقبضة يدى على فمه القذر".

ولم يأت، ولكنى كنت أحس بأنه ينظر إلىّ. فرفعت رأسى

ونظرت إليه بالمقابل. فقال لى بصوت وكأنه غير صادر منه:

ـ ألا تجد أننا نرتجف هنا؟!

كان يبدو عليه أنه بارد الجسم، فقد كان بنفسجى اللون .

فأجبته: ـ أنا لا أشعر بالبرد.

ولم يكف عن النظر إلىّ بعين قاسية. فجأة فهمت ورفعت يدى إلى وجهى كنت مبتلاً بالعرق. فى ذلك القبو وفى خضم الشتاء وفى تيارات الهواء، كان العرق يتصبب منى ومررت بأصابعى على شعرى الذى يبس من العرق. ورأيت فى الوقت نفسه أن قميصى مبلل ولاصق بجسدى: كان العرق يتصبب منى منذ ساعة على الأقل ولم أشعر بشىء. ولكن هذا البلچيكى لم يتغافل عن هذا: فقد رأى قطرات العرق تتدحرج على خدى.

وفكر: إنها عوارض شبه مرضية للخوف. كان يشعر أنه طبيعى وبكل فخر لأنه كان يشعر بالبرد. وما كدت أقوم بحركة بسيطة حتى انمحى خجلى وغضبى. وسقطت على المقعد غير آبه.

اكتفيت بفرك عنقى بمنديلى، لأنى الآن بت أشعر بالعرق المتصبب من شعرى على رقبتى وكان كريهًا، وفجأة عدلت عن فرك رقبتى كان ذلك بغير جدوى: وكان منديلى قد أخذ الشكل الممزق، والعرق لا يزال يتصبب. كنت أعرق فى مؤخرتى أيضًا وكان سروالى المبلل لاصقًا بالمقعد.

وتكلم خوان الصغير فجأة :

ـ هل أنت طبيب؟

فأجاب البلچيكى: ـ نعم .

ـ هل نتألم... لوقت طويل؟

فقال البلچيكى بصوت أبوى:

ـ أوه! متى... ؟ كلا بل إن الأمر ينتهى بسرعة.

ـ كان يبدو عليه أنه يشدد من عزيمة مريض يدفع الثمن.

ـ ولكن أنا... قيل لى... إنهم يعمدون فى أكثر الأحيان إلى طلقتين.

فقال البلچيكى وهو يحرك رأسه:

ـ فى بعض الأحيان قد لا تصيب الطلقة الأولى أيا من الأعضاء الحيوية.

ـ عندها من الواجب إذا تعبئة البنادق والتصويب من جديد؟

ففكر وأجاب بصوت مخنوق:

ـ هذا يستمر وقتًا طويلاً!

كان يشعر بالخوف الشديد من أن يتألم ولم يكن يفكر إلا بهذا، وهذا يرجع على كل حال إلى عمره. أما أنا فلم أعد أفكر بذلك كثيرا ولم يكن الخوف من العذاب هو ما يجعل العرق يتصبب منى.

نهضت ومشيت إلى كومة الفحم المسحوق. فارتجف طوم

ورمانى بنظرة بغيضة: كنت أزعجه لأن حذائى يحدث صوتًا . .

وتساءلت فى نفسى إذا كان وجهى مخيفًا بقدر وجهه، فقد رأيت أن العرق يتصبب منه هو الآخر. كانت السماء رائعة، ولم يكن أى ضوء يتسرب إلى هذه الزاوية المعتمة، ولم يكن علىّ إلا أن أرفع رأسى لكى أشاهد الدب الأكبر. ولكنه ليس كما فى السابق: ليلة أول أمس فى سجن الإيبارشية، كان بإمكانى أن أشاهد قطعة كبيرة من السماء وكل ساعة من النهار كانت تبعث فى نفسى ذكرى مختلفة. وفى الصباح حين كانت السماء زرقاء حادة وخفيفة كنت أفكر بالمسابح على ضفاف الأطلسى. وفى الظهر كنت أرى الشمس وأتذكر ذلك البار فى إشبيلية حيث كنت أشرب الينسون الدافئ وأنا ألتقط الأنشوجة والزيتون .

وبعد الظهر أصبح فى الظل، أفكر بذلك الظل العميق الذى يمتد على نصف مساحة الحلبات، بينما كان نصفها الثانى يسطع تحت الشمس:

كان عسيرًا جدًا أن نبصر الأرض هكذا تنعكس فى السماء. لكنه أصبح الآن بإمكانى أن أتطلع فى الهواء ما شئت، فلم تعد السماء توحى لى بشىء. كنت أفضل هذا. وعدت لأجلس بجوار طوم. ومرت فترة طويلة...

بدأ طوم حديثه بصوت خافت. كان عليه دائمًا أن يتكلم. فبدون هذا لم يكن يستطيع أن يعرف نفسه من خلال أفكاره. أظن أنه كان يوجه كلامه إلىّ، ولكنه لم يكن يتطلع نحوى. فقد كان يخشى بلا ريب أن يرانى كما كنت، داكن اللون يتصبب منى العرق: كنا أشبه بالمرايا أو أسوأ، بالنسبة لبعضنا البعض. كان يتطلع إلى البلچيكى، الحى وكان يقول له:

ـ هل تفهم، أنت؟ أنا لا أفهم.

بدأت أنا أيضًا بالحديث بصوت خافت. كنت أتطلع إلى البلچيكى.

ماذا، ماذا هنالك؟

ـ سيحدث لنا شىء لا أستطيع أن أفهمه.

كانت هناك رائحة غريبة تنبعث من طوم. فقد بدا لى أنى أكثر إحساسا للرائحة من ذى قبل، وهممت ضاحكا:

ـ ستفهم فى الحال.

فقال طوم بوجه عنيد:

ـ ليس الأمر واضحًا. أود أن تكون لى الشجاعة، ولكن علىّ أن أفهم على الأقل... أصغ، سيقتادوننا إلى الساحة.

وسيصطف الأشخاص فى مواجهتنا. كم سيكون عددهم؟

ـ لا أعرف خمسة أو ثمانية ليس أكثر.

ـ حسنًا، سيكونون ثمانية. ستأتيهم الصيحة "صوبوا على الهدف!" وسأرى البنادق الثمانى مصوبة إلىّ. أعتقد أنى سأدخل الجدار، سأدفع الجدار بظهرى بكل قواى، والجدار يقاوم كما يحدث فى الكابوس. كل هذا بإمكانى

أن أتصوره. فقلت له:

ـ حسنا! فأنا أتصوره أيضا. فأضاف فى خبث:

ـ سيؤدى ذلك إلى عذاب الكلاب. هل تدرى أنهم يصوبون على العينين والفم لكى يشوهوا الوجه. إنى أشعر بالجراح منذ الآن، فمنذ ساعة بدأت أشعر بألم فى الرأس والعنق، ليست آلاما حقيقية، بل الأسوأ هى الآلام التى سأشعر بها غدًا صباحًا. ولكن ماذا بعد؟

كنت أفهم تمامًا ما يعنيه، ولكنى لم أرغب فى أن أفصح عن ذلك. أما الآلام فكنت أنا أيضًا أحملها فى جسدى، كمجموعة من ندوب الجراح. لم أشأ أن أنثنى فكنت مثله لا أعير لهذا الأمر أهمية.

وقلت بقسوة:

ـ بعدها ستأكل السلطة.

بدأ يتحدث إلى نفسه: بدون أن يترك البلچيكى بعينيه. ولم يبد على هذا الأخير أنه كان يصغى. كنت أعرف السبب الذى جاء من أجله. وما كنا نفكر به لم يكن له أهمية عنده. لقد أتى ليشاهد أجسامنا، تلك الأجسام التى تنازع وهى حية.

فقال طوم:

ـ كما يحدث فى الكابوس نود أن نفكر بشىء فنعتقد طيلة الوقت بأننا فيه، وبأننا سنفهمه ومن ثم نراه ينزلق،

ويفر ويسقط من جديد. قلت فى نفسى: وبعدئذ لا يبقى شىء. ولكننى لا أفهم ماذا يعنى ذلك؟! هناك فترات أتوصل فيها لذلك تقريبًا... ثم يسقط من جديد. وأعود وأفكر بالآلام والرصاص والمفرقعات. أنا مادى. أقسم لك بذلك. فلن أصبح مجنونًا. لكن أمرًا ما ليس على ما يرام إنى أرى جثتى! ليس هذا شاقًا، ولكنى أنا الذى أراها بعينى هاتين على أن أتوصل لأفكر ... لأفكر بأنى لن أرى شيئا، ولن أسمع شيئا وأن العالم سيستمر بالنسبة للآخرين. نحن لم نوجد لنفكر هكذا يا بابلو. بإمكانك أن تصدقنى: فقد حدث لى أن سهرت الليل بطوله وأنا أنتظر شيئا، ولكن هذا الشىء، ليس شبيهًا لذاك: إنه يباغتنا يا بابلو. ولن نكون قد أتممنا الاستعداد لمواجهته.

فقلت له:

- أيها القوى، هل أستدعى لك أب الاعتراف؟

لم يجب بشىء. كنت قد لاحظت أنه كان يتوق إلى النبوة، وأن ينادينى بابلو متكلمًا بصوت نقى. لم أكن أحب ذلك كثيرًا.

ولكن يبدو أن جميع الأيرلنديين على هذا الحال. كان يتهيأ لى أن رائحة البول تتصاعد منه. فى الواقع لم أكن أحبِ طوم كثيرًا ولم أكن أدرى لماذا؟ وبحجة أننا سنموت معا كان علىّ أن أزيد تلك المحبة. هناك أشخاص يختلف معهم الحال: رامون جريس مثلاً. ولكننى كنت أجد نفسى وحيدًا مع طوم وخوان.

غير أنى كنت أفضل ذلك. لعلنى كنت أزداد فى العاطفة لو كان الأمر مع رامون. لكننى كنت قاسيا بصورة رهيبة فى هذه الفترة، كما كنت أرغب بالبقاء كذلك.

وتابع مضغ كلماته بنوع من الارتياح. من المؤكد أنه كان يتحدث ليمنع نفسه عن التفكير. كانت رائحة البول تفوح منه بشدة كالعجزة المرضى بالبروستاتا. وكنت من رأيه بالطبع، فكل ما قاله كان بإمكانى أن أقوله: فليس طبيعيا أن يموت الإنسان هكذا. ومذ بدأت أستعد للموت، لم يعد أى شىء يبدو لى طبيعيا: لا هذه الكومة من الفحم المسحوق ولا هذا المقعد ولا فم بدرو القذر. غير أنه لم يكن يعجبنى أن أفكر بما يفكر فيه طوم. وكنت أعلم حق العلم أننا طيلة الليل ويفارق خمس دقائق فقط، كنا نتابع التفكير بالأشياء ذاتها فى الوقت نفسه أيضا وأن العرق يتصبب منا معا. أو أننا نرتجف معا. نظرت إليه جانبيا

ولأول مرة بدا لى غريبا: كان وجهه حاملا الموت. لقد طعنت بكبريائى: أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار طوم، كنت أصغى إليه وأحدثه، وأعرف أن ما من شىء مشترك فيما بيننا. أما الآن فإننا نتشابه كالأخوين التوأمين لمجرد أننا سنلاقى حتفنا معا. أمسك طوم بيدى دون أن ينظر إلىّ وقال:

- بابلو ... إنى أتساءل... أتساءل إذا كنا سنعدم حقا؟!

أفلت يدى فقلت له:

- انظر بين رجليك أيها القذر!

كانت تحت رجليه بركة، ونقاط تتساقط من سرواله، فقال مرتاعا:

- ما هذا؟ فقلت له:

- أنت تتبول فى سروالك. فقال غاضبا:

- ليس هذا صحيحا، أنا لا أتبول ولا أشم شيئا.

كان البلچيكى قد اقترب وسأل برجاء مصطنع:

- هل تشعر بالألم؟

لم يجبه طوم. ونظر البلچيكى إلى البركة دون أن يقول شيئا.

وقال طوم بلهجة جسورة:

- لا أعرف ما هذا لكنى لست خائفا، أقسم لك بأنى لست خائفا.

لم يقل البلچيكى شيئا. فنهض طوم وذهب ليتبول فى ركن من الغرفة.

وعاد وهو يزرر فتحة سرواله وجلس دون أن ينبس بكلمة. كان البلچيكى يسجل ملاحظاته.

كنا ننظر إليه نحن الثلاثة لأنه حى. كانت له حركات كحركات الحى وهموم الحى. كان يرتجف فى ذلك القبو كما يرتجف الحى، كان جسمه طيعا، حسن التغذية. أما نحن فلم نعد نحس بأجسامنا وليس كما يحس هو على كل حال.

كنت أرغب فى أن أتحسس سروالى بين فخذى، ولكنى لم أتجرأ فأنظر إلى البلچيكى الواقف على رجليه متخذا شكل القوس وهو يسيطر على عضلاته، والذى كان بإمكانه التفكير بغده. كنا هناك ثلاثة ظلال بغير دم، ننظر إليه ونود أن نمتص حياته كالأفاعى.

وأخيرا، اقترب من خوان الصغير. هل أراد أن يتحسس رقبته لسبب يتعلق بمهنته أم أن ذلك كان بدافع الإحسان؟ إن كان ذلك بدافع الإحسان فهى المرة

الوحيدة طيلة هذه الليلة. لقد دغدغ جمجمة خوان الصغير وعنقه. وتركه الصغير يفعل ذلك، بدون أن يتركه بناظريه، وفجأة أمسكه بيده ونظر إليه بنظرة غريبة. كان ممسكا بيد البلچيكى بكلتا يديه. ولم يكن فى ذلك الملقطين الداكنى اللون أى شىء طريف، وهما يمسكان بتلك اليد السمينة الضاربة إلى الحمرة. كنت أشك كثيرا فيما سيحدث وكذلك كان طوم: لكن البلچيكى لم يكن يرى سوى النار، وكان يبتسم ابتسامة أبوية. وما هى إلا لحظة حتى رفع الصغير تلك الراحة الضخمة الحمراء إلى فمه وأراد أن يعضها. فأفلت البلچيكى يده وتراجع حتى الجدار وهو يهتز.

ونظر إلينا للحظة بهلع شديد، كان عليه أن يفهم فجأة بأننا لسنا رجالا مثله. أخذت أضحك، وارتعد أحد الحراس وأما الآخر فقد نام وعيناه مفتوحتان لا يظهر منهما سوى البياض.

كنت أشعر بأننى منهك ومتوتر الأعصاب فى الوقت نفسه.

لم أكن أود إن أفكر فيما سيحدث عند الفجر، أى بالموت.

إذ لم أفقه شيئا من ذلك. ولم أكن أصادف سوى كلمات أو فراغ.

ولكن ما إن أحاول التفكير بشىء آخر، حتى أرى فوهات البنادق مصوبة إلىّ. لقد عشت لحظة إعدامى نحو عشرين مرة متتالية، وفى مرة منها اعتقدت أنها حقيقية، يبدو أنه قد غلبنى النوم لمدة دقيقة. كانوا يجروننى نحو الحائط، فأتخبط به وأطلب إليهم المغفرة. واستيقظت مذعورا ونظرت إلى البلچيكى: خشيت أن أكون قد صرخت فى نومى. لكنه كان يمسح شاربيه، فلم يلاحظ شيئا، لو شئت أظن أنه كان بإمكانى أن أنام برهة: كنت مستيقظا منذ ثمان وأربعين ساعة، و قد تملكنى الإعياء. لكننى لم أشأ أن أفقد ساعتين من ساعات الحياة: فسيأتون لإيقاظى عند الفجر، وسأتبعهم مخبولا من النعاس فأموت دون أن أطلق زفرة، لم أكن أرغب فى ذلك، لا أريد أن أموت كحيوان، أريد أن أفهم.

ثم إنى كنت أخشى أن أرى الكوابيس. نهضت وتمشيت طولا وعرضا، وحتى أبدل أفكارى بدأت أفكر بحياتى السابقة.

وعاودتنى زحمة من الذكريات، من هنا ومن هناك، منها الجميلة ومنها الرديئة أو أننى كنت أسميها هكذا على الأقل.

كانت هناك وجوه وقصص. رأيت وجه مصارع صغير قتل على قرنى الثور فى ڤالنسيا إبان المهرجان، وكذلك وجه أحد أعمامى ووجه رامون جريس. وتذكرت قصصا عديدة: كيف أنى بقيت عاطلا عن العمل لمدة ثلاثة أشهر سنة ١٩٢٦ وكيف كدت أن أموت من الجوع. وتذكرت ليلة أمضيتها فوق مقعد فى غرناطة: لم أكن قد تناولت الطعام منذ ثلاثة أيام، كنت مسعورا ولم أكن أرغب بالموت. أضحكنى ذلك. فبأية همة كنت أركض وراء السعادة، وراء النساء، وراء الحرية. ولماذا أردت أن أحرر إسبانيا. كنت معجبا ببى ومارجاى، فالتحقت بالحركة الفوضوية وتكلمت فى الاجتماعات العامة: كنت آخذ كل شىء على محمل الجد وكأننى كنت خالدا.

فى تلك اللحظة تجسدت مجمل حياتى أمام عينى وفكرت: "إنها كذبة مقدسة" ولم تكن بذات قيمة لأنها انتهت. كنت أتساءل كيف كنت أستطيع أن أتنزه وأن ألهو مع النساء، لو كنت أعلم أنى سأموت هكذا لما حركت أصغر أصابعى على الإطلاق. كانت حياتى أمامى مغلقة، مطبقة كالحقيبة ومع ذلك فإن كل ما فى داخلها لم يكن منتهيا. وحاولت للحظة أن أعطى فيها حكما. ووددت أن أقول لنفسى: إنها حياة جميلة. ولكن ليس بالإمكان إعطاء حكم عليها، فقد كانت رسما. كما أمضيت وقتى باستخلاص المراحل فى سبيل الأبدية، ولم أفهم شيئا. ولم أكن آسفًا على شىء: كانت هناك عدة أشياء يمكن أن آسف عليها: كطعم المشروب الإسبانى أو الحمامات التى كنت آخذها فى الصيف على خليج صغير قرب قادش. ولكن الموت أفسد كل شىء.

وفجأة أتت البلچيكى فكرة رائعة فقال لنا:

ـ أيها الأصدقاء بإمكانى أن أتولى، إذا وافقت الإدارة العسكرية بأن أحمل منكم كلمة، أو ذكرى إلى من يحبونكم...

فهمهم طوم: ليس لى أحد.

ولم أجب بشىء. وانتظر طوم لحظة، ثم تطلع إلىّ بفضول:

ـ ألن توصى شيئا لكونشا؟

ـ كلا.

كنت أمقت هذة اللياقة الرقيقة، لكنه خطأى فقد تحدثت عن كونشا فى الليلة السابقة، و كان على أن أضبط نفسى. كنت معها منذ سنة. وفى العشية أيضا وددت قطع ذراعى بالفأس حتى أراها خمس دقائق. لهذا تكلمت عنها، كان ذلك رغما عنى. واليوم لم أعد أرغب برؤيتها ثانية. ولم يعد لدىّ شىء أقوله لها. لم أكن أود حتى أن أضمها إلى صدرى.

كنت أمقت جسدى الذى أصبح داكن اللون يتصبب منه العرْق ولم أكن متأكدا إذا كنت أمقت جسدها أيضا. ستبكى كونشا عندما تعرف بخبر موتى. ستظل شهورا غير راغبة بالحياة.

ولكن، مع ذلك، فأنا الذى سوف أموت. فكرت بعينيها العذبتين الجميلتين. عندما كانت تنظر إلىّ، ينتقل شىء منها إلىّ. ولكنى فكرت أن ذلك الأمر قد انتهى، فإذا تطلعت إلى فى الوقت الحاضر ستظل نظرتها فى عينيها ولن تصل إلىّ. كنت وحيدا.

وطوم كذلك كان وحيدا ولكن ليس بالطريقة نفسها. إذ جلس منفرج القدمين وأخذ ينظر إلى المقعد بنوع من الابتسام ، كانت تبدو عليه الدهشة. وقرب يده ولامس الخشب بحذر، وكأنه يخشى أن يكسر شيئا ما. ثم سحب يده بحدة وارتجف .

لو كنت طوم لما تسليت بالمقعد. كان ذلك نوعا من التمثيليات من الأيرلندى. ولكننى كنت أرى أن للأشياء شكلا غريبا:

فقد كانت أكثر اختفاء وأقل وزنا من المعتاد. إذ كان يكفى أن أنظر إلى المقعد، والسراج، وكومة الفحم المسحوق حتى أشعر بأنى سأموت. بالطبع لم أكن لأستطيع أن أفكر فى موتى بصفاء لكنى كنت أراه أينما كان، على الأشياء، فى

الشكل الذى تراجعت به الأشياء ووقفت بعيدة، بتحفظ، كأشخاص يتكلمون بصوت خافت قرب فراش إنسان يموت، كان موته هو ذاك الذى تحسسه طوم على المقعد.

فى الحال الذى كنت فيه، لو جاء من يعلن لى أن بإمكانى العودة إلى البيت بهدوء وأن حياتى سيتم إنقاذها: لظللت على برودى: فعدة ساعات أو عدة سنين من الانتظار كلها سواء، عندما يتبدد وهم الخلود. لم أعد أصر على شىء فقد بت هادئا.

لكن هدوئى كان رهيبا بسبب جسدى: جسدى الذى كنت أنظر بعينيه وأسمع بأذنيه، ولكنه ليس أنا. كان يتصبب منه العرق ويرتجف وحده، لم أعد أتعرف عليه. كنت ملزما بأن ألمسه أو أن أنظر إليه لأرى كيف أصبح، كما لو أنه أضحى جسم إنسان آخر. لفترات كنت لا أزال أشعر به، أحس بالمنزلقات، وبأنواع التدحرج كما لو كنا فى طائرة تائهة أو أننى أشعر بخفقان قلبى. ولكن هذا لم يكن ليطمئننى، فكل ما كان يأتى من جسدى كانت له هيئة قذرة معوجة، معظم الوقت كان يصمت، ويظل أبكم ولم أعد أشعر سوى بنوع من الجاذبية والوجود المدنس قبالتى. كان يتهيأ لى أنى مرتبط بموت بطىء.

تحسست سروالى للحظة وشعرت بأنه مبلل ولم أكن أعرف إذا كان مبللا من العرق أم من البول. غير أنى ذهبت لأتبول على كومة الفحم، احتياطيا.

أخرج البلجيكى ساعته ونظر إليها وقال:

- إنها الثالثة والنصف.

يا له من قذر. لقد فعل هذا عمدا. قفز طوم على الأرض: لم نكن قد أدركنا بعد أن الوقت يمر، فالليل يحيط بنا ككتلة مظلمة ليس لها شكل معين ولم أعد أتذكر حتى أنه ابتدأ.

أخذ خوان الصغير بالصراخ، كان يتمزق ألما ويتوسل:

- لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت.

وركض عبر القبو رافعا ذراعيه فى الهواء، ثم تهالك على فراش من القش وأخذ ينتحب. كان طوم ينظر إليه بعينين كئيبتين ولم تعد به رغبة لمواساته. ولم يعد هذا ضروريا.

إذ كان الصغير يحدث ضجيجا أكثر منا، ولكن إصابته كانت أخف، كان بمثابة مريض يدافع عن بؤسه بالحمى. فالحمى إذا زالت، تصبح الأمور أشد خطورة.

كان يبكى وكنت أعرف أنه يشفق على نفسه. ولم يكن يفكر بالموت. للحظة واحدة، للحظة واحدة اعترانى شعور بالبكاء أنا أيضا، شعور بالبكاء رفقا بنفسى. و لكن العكس هو ما حدث. ألقيت نظرة على الصغير، فرأيت كتفيه الهزيلتين الباكيتين.

وأحسست بعدم إنسانيتى، فلم يكن بوسعى أن أشفق على نفسى ولا على الآخرين. و قلت فى نفسى: أود أن أموت حقا.

كان طوم قد نهض، ووقف تحت الفوهة المستديرة بالضبط وأخذ يترقب طلوع النهار. وأنا كنت مصدوما، وددت أن أموت حقا، ولم أكن أفكر بغير ذلك. ولكن منذ أنبأنا الطبيب عن الوقت، بدأت أشعر به ينقضى، بل يسيل قطرة فقطرة.

كان الوقت لا يزال ظلاما عندما سمعت صوت طوم:

ـ هل تسمعهم؟

ـ نعم.

كان الرجال يتمشون فى الساحة.

ما الذى جاء بهم؟ فليس بإمكانهم أن يطلقوا النار فى الظلام. وما هى إلا دقائق ولم نعد نسمع شيئا. فقلت لطوم:

ـ ها هو النهار.

استيقظ بدرو متثائبا وجاء ليطفئ السراج. وقال لرفيقه.

يا له من صقيع.

كان القبو قد أصبح داكنا تماما. وسمعنا صوت أعيرة نارية من بعيد فقلت لطوم:

ـ ها هم قد بدأوا، يودون القيام بالواجب فى الساحة الخلفية.

طلب طوم من الطبيب إعطاءه سيجارة. أما أنا فلم أكن أرغب بالتدخين. لا أريد سيجارة و لا كحولا. وبدءا من هذه اللحظة لم يكفوا عن إطلاق النار.

ـ فقال طوم: هل ترى؟

كان يود إضافة شىء ولكنه سكت وكان ينظر إلى الباب، ففتح الباب، ودخل ملازم مع أربعة جنود. فوقعت السيجارة من يد طوم:

ـ ستينبوك؟

لم يجب طوم، فبدرو هو الذى دل عليه.

ـ خوان مريال؟

ـ هذا الذى يفترش القش. فقال الملازم:

ـ انهض.

لم يتحرك خوان. فأخذه جندیان من تحت إبطيه وأوقفاه ولكن ما إن تركاه حتى سقط أرضا.

وتردد الجنود. وقال الملازم:

ـ ليس هو الوحيد الذى يرى نفسه فى حالة سيئة، عليكما أن تحملاه أنتما الاثنان. وسنتدبر الأمر هناك.

واستدار لطوم قائلا: ـ هيا تعال.

وخرج طوم يصحبه جنديان وكان يتبعه جنديان آخران. يحملان الصغير من تحت إبطيه وعرقوبيه. لم يكن مغشيا عليه.

فعيناه جاحظتان، والدموع تسيل على خديه. ولما هممت بالخروج أوقفنى الملازم:

- إيبييتا؟

- نعم.

- ستنتظر هنا فسوف يأتون لأخذك فى الحال.

وانصرفوا. خرج البلچيكى والسجانان أيضا، وبقيت وحدى.

لم أكن أفهم ما يجرى لى، ولكنى وددت لو أن الأمر ينتهى سريعا، وسمعت الطلقات النارية على فترات شبه منتظمة.

وكنت أرتجف عند سماعها. كنت أود أن أصرخ، أن أنتزع شعرى لكنى ضغطت على أسنانى وغرست يدى فى جيبى لأنى كنت أود البقاء نظيفا.

وما هى إلا ساعة حتى أتوا ليأخذونى، واقتادونى إلى الطابق الأول، إلى حجرة صغيرة تفوح منها رائحة السيجار، حرارتها خانقة. كان فيها ضابطان يدخنان وهما جالسان على كنبات، كما كان يضع كل منهما أوراقا على ركبتيه.

- اسمك إيبييتا؟

- نعم.

- أين رامون جريس؟

- لا أعرف.

كان الذى يستجوبنى قصيرا وضخما. كانت عيناه القاسيتان تظهران من خلف نظارته وقال لى:

- اقترب.

فاقتربت، فنهض وأمسكنى من كتفى وهو ينظر إلىّ بوجه كمن يريد قذفى إلى باطن الأرض، فى الوقت نفسه الذى كان يضغط فيه على عضلات ذراعى بكل قواه. لم يكن ذلك بهدف إيذائى، بل إنها اللعبة اللبقة! كان يبغى السيطرة علىّ. وارتأى أيضا أن ينفث لهاثه العفن فى وجهى. بقينا لحظة واحدة على هذا الحال،

كان هذا أقرب إلى إضحاكى. إذ كان يلزم أكثر من ذلك لإخافة رجل على وشك الموت: لم تنجح لعبته. فدفعنى بعنف ثم عاد إلى الجلوس وقال:

ـ إنها حياتك مقابل حياته. سوف ننقذ حياتك إذا أخبرتنا أين هو.

إن هذين الرجلين المزدانين بسياطهما وأحذيتهما الطويلة الساق هما كذلك من الرجال الذين سيموتون، بعد موتى بقليل ولكن ليس أبعد من هذا، كانا منهمكين بالبحث عن أسماء فى أوراقهما، كانا يركضان وراء رجال آخرين بغية الإلقاء بهم فى السجن أو حذفهم من الوجود. كان لهم آراء حول مستقبل إسبانيا وحول مواضيع أخرى. كانت نشاطاتهما الضئيلة تبدو لى هزلية ومفجعة: لم يكن بوسعى أن أضع نفسى فى مكانهما إذ تهيأ لى أنهما مجنونان.

كان الصغير القصير الضخم ينظر إلىّ بإمعان، وهو يضرب بالسوط على حذائه. كل حركاته كانت توحى بدقة أن له هيئة حيوان هائج مفترس.

ـ إذا؟ فهمت؟ فأجبت:

ـ أنا لا أعرف أين جريس. كنت أظن أنه فى مدريد.

ورفع الضابط الثانى يده بوقاحة. هذه الوقاحة كانت محسوبة بدقة أيضا. كنت أشهد مناوراتهم الصغيرة، مندهشا من وجود رجال يتسلون بهذه الأمور. فقال بتؤدة:

ـ لديك ربع ساعة لتفكر، قده إلى غرفة الغسيل، وستعيده بعد ربع ساعة. فإذا أصر على الرفض سننفذ عليه الحكم فى هذا المكان.

كانوا يعرفون ما يفعلونه فقد أمضيت ليلى كله بالانتظار وبعد هذا حملونى على الانتظار ساعة فى القبو، بينما كانوا يعدمون طوم وخوان والآن هاهم يحتجزوننى فى غرفة الغسيل .

لابد أنهم أعدوا ضربتهم منذ البارحة. لقد قالوا فى أنفسهم إن الأعصاب تتلف مع الوقت وهم يأملون فى أن يرونى هكذا.

كانوا يخطئون كل الخطأ، ففى غرفة الغسيل جلست على طاولة لأنى كنت لا أزال أشعر بضعفى وبدأت أفكر، ولكن ليس باقتراحهم. بالطبع كنت أعلم أين كان جريس؟ كان مختبئا فى بيت أبناء عمه، على بعد أربعة كيلومترات من المدينة. وكنت أعلم كذلك أنى لن أكشف عن مكان وجوده إلا إذا عذبونى (ولم يبد عليهم أنهم فكروا فى ذلك). كان كل ذلك معدا تمام الإعداد النهائى، ولم يكن يهمنى أبدا. بيد أننى وددت لو أدرك أسباب سلوكى. كنت أفضل الموت على تسليم جريس. لماذا؟ لم أعد أحب رامون جريس. وصداقتى معه تلاشت قبل الفجر بقليل، مع حبى لكونشا، مع رغبتى فى الحياة. كنت لا أزال أقدره بلا شك، كان رجلا قاسيا. ولكن ليس لهذا السبب أن أقبل الموت مكانه، فلم يعد لحياته قيمة تفوق قيمة حياتى. لم يعد لأية حياة قيمة. سيلصقون الإنسان بالجدار وسيطلقون الرصاص عليه حتى الموت، فلا يهم إن كنت أنا أو جريس أو أى شخص آخر فالكل سواء. كنت أعلم أنه أكثر فائدة منى لقضية إسبانيا غير أنى أسخر من إسبانيا ومن الفوضى.

لم يعد لأى شىء أهمية.

ومع ذلك كنت هناك، وكان بإمكانى أن أنفذ بجلدى بتسليم جريس ورفضت الإقدام على ذلك. رأيت هذا مضحكا: إذ كان عنادا وفكرت: "هل على المرء أن يكون عنيدا". واعترانى نوع من السعادة غريب. وجاءوا يستدعوننى أمام الضابطين. فخرج جرذ من تحت أرجلنا فألهانا قليلا. واتجهت إلى أحد رجال الكتائب وقلت له:

ـ هل رأيت الجرذ؟

ولم يجب. كان مكفهر الوجه، مقتنعا بجديته. أما أنا فكنت أرغب بالضحك ولكنى كنت أضغط على نفسى لأنى خفت إن بدأت أن أفقد القدرة على التوقف. كان لرجل الكتيبة شاربان، فأضفت قائلا له:

ـ عليك أن تحلق شاربيك أيها الغبى.

كنت أرى أن إطلاق الشعر ليغزو الوجه أثناء الحياة، من الأمور الغريبة. فدفعنى بقدمه بغير اقتناع، فسكتت.

فقال الضابط الضخم:

- حسنا هل فكرت؟

نظرت إليهما بفضول كما لو أننى أنظر إلى حشرات من نوع نادر جدا. وقلت لهما:

- أنا أعرف أين هو؟ فهو مختبئ فى المقابر، فى قبو صغير أو فى كوخ الحفارين.

كان هذا لأهزأ منهما، كنت أود أن أراهما يقفان، ويشدان حزاميهما ويعطيان الأوامر باهتمام. فقفزا على أرجلهما.

- هيا اطلب خمسة عشر رجلا من الملازم لوبيث.

- وقال لى الضابط القصير الضخم:

- وأنت لو كان ما قلته حقيقيا فليس عندي إلا قول واحد.

ولكن ستدفع الثمن غاليا لو كنت تكذب علينا.

ومضوا محدثين ضجة قوية، بينما انتظرت بسرور تحت رقابة رجال الكتائب. كنت أضحك من وقت لآخر عندما أتخيل الوجه الذى سيقابلوننى به. كنت أشعر بنفسى مغفلا وخبيثا. تخيلتهم رافعين حجارة القبر، فاتحين أبواب الأقبية واحدا تلو الآخر.

وتمثلت الموقف كما لو كان شخصا آخر: هذا السجين الذى يصر على عمل البطولة، هؤلاء، هؤلاء الكتائبيون الوقورون بشواربهم، وأولئك الرجال ببزاتهم الرسمية يتراكضون بين القبور. كان ذلك فى منتهى الطرافة.

وما هى إلا نصف ساعة حتى عاد القصير الضخم وحده.

وخلت أنه جاء يعطى أمر القضاء علىّ. أما الباقون فظلوا فى المقابر.

ونظر إلىّ الضابط، وقد اختفت من وجهه مسحة الارتباك وقال:

- خذوه إلى الساحة مع الآخرين. ففى نهاية العمليات العسكرية ستقرر المحكمة العادية مصيره.

وتهيأ لى أننى لم أفهم، فسألته:

- إذا سوف.... لن يقتلوننى بالرصاص؟

- ليس الآن على كل حال. ثم إن الأمر لم يعد متعلقا بى.

لم أفهم أيضا وقلت له:

- ولكن لماذا؟

فهز كتفيه بدون أن يجيب، واقتادنى الجنود. وفى الساحة الكبيرة كان هناك مئات السجناء من نساء وأولاد و بعض الشيوخ. وبدأت أدور حول الأرض المزروعة الرئيسية وقد أصبحت معتوها. عند الظهر قدموا لنا الطعام فى المطعم و قام باستجوابى شخصان أو ثلاثة. كان علىّ أن أعرفهم، غير أنى لم أجبهم، فلم أكن أعرف حتى أين أنا؟

وعند المساء ألقوا فى الساحة نحو عشرة سجناء جدد، فتعرفت على جارسيا، الخباز فقال لى:

- يا لك من محظوظ مقدس! لم أكن أفكر بأنى سأراك على قيد الحياة.

فقلت:

- لقد حكموا علىّ بالإعدام، ثم غيروا فكرتهم. ولا أدرى لماذا؟ فقال جارسيا:

- لقد ألقوا القبض علىّ فى الساعة الثانية.

- لماذا؟

جارسيا لم يكن يعمل بالسياسة. فقال :

- لا أدرى أنهم يعتقلون جميع الذين لا يفكرون على شاكلتهم.

وخفض صوته: لقد قتلوا جريس...

وبدأت أرتجف: متى؟

- هذا الصباح. لو تدرى ماذا فعل المغفل؟! لقد غادر بيت أبناء عمه يوم الثلاثاء لأنه صدر عنهم كلام. ولم يكن يفتقر لأناس يأوونه ولكنه لا يريد إحسانا من أحد. وقال "كنت سأختبئ عند إبييتا ولكن بما أنهم ألقوا القبض عليه فسأختبئ فى المقابر".

- فى المقابر؟

- نعم فى المقابر، كانت بلاهة منه. فبالطبع مروا بها هذا الصباح، وكان هذا هو ما حدث. فوجدوه فى كوخ الحفارين. فأطلق النار عليهم ولكنهم أردوه قتيلا.

- فى المقابر!

كل شىء بدأ بالدوران، ووجدتنى جالسا على الأرض، كنت أضحك بقوة، إلى حد أن الدموع انسابت من عينى.

الغرفة

كانت السيدة داربدا تحمل بين أصابعها قطعة راحة الحلقوم وقربتها من شفتيها بعناية مخافة أن يطير عنها مسحوق السكر قائلة فى نفسها: "إنها معطرة برائحة الورد".

وعضت تلك القطعة التى بلون الزجاج، فتصاعدت منها رائحة عفنة ملأت فمها.

"غريب كم أن المرض يصفى الأحاسيس". وأخذت تفكر بالمساجد وبالشرقيين من أصحاب المجاملة (فقد ذهبت إلى الجزائر فى رحلة عرسها) ورسمت على شفتيها ابتسامة، فراحة الحلقوم أيضا متملقة.

وكان عليها أن تمر براحة يدها على صفحات كتابها ولعدة مرات، لأن طبقة من المسحوق الأبيض كانت تغطى يدها رغم الحذر. فيداها قد دحرجتا حبيبات السكر وألصقتها بالورق الأملس: "إن هذا ليذكرنى بأركاشون عندما كنت أقرأ على الشاطئ ... " فقد أمضت صيف ١٩٠٧على شاطئ البحر .

وكانت تعتمر وقتئذ قبعة من القش لها شريطة خضراء.

كما كانت تجلس على رصيف الحجارة وبيدها كتاب "لچيب" أو "لكوليت إيفر" والريح تمطر على ساقيها زوابع من الرمال

وهى تقلب من وقت لآخر كتابها ممسكة بأطرافه. إنه الإحساس عينه غير أن حبات الرمل الصغيرة كانت جافة فى حين أن حبيبات السكر تلتصق بيدها. فقد

رأت من جديد قطعة من السماء الغبراء المتلألئة فوق بحر أسود. "لم تكن إيف قد ولدت بعد".

وأحست وهى مثقلة بالذكريات بأنها ثمينة كصندوق من الصندل. وعاودها اسم القصة التى كانت تقرأها: واسمها "السيدة الصغيرة" ولم يكن الاسم مزعجا. لكن السيدة داريدا باتت تفضل المذكرات والمؤلفات التاريخية مذ أرغمها بلاء مجهول على البقاء فى غرفتها. كانت تتمنى أن الألم، والقراءات العديدة والانتباه الشديد لذكريات أيامها العذبة من شأنها أن تجعلها ناضجة كثمرة تعجل نضجها.

وفكرت بقليل من الضيق بأن زوجها سيطرق بابها بعد قليل. ففى أيام الأسبوع الأخرى كان يأتى فى المساء فقط، يقبلها فى جبينها بصمت ويجلس قبالتها ليتابع قراءة كتاب "الوقت".

لكن الخميس هو يوم السيد داريدا كان سيقضى ساعة عند ابنته، من الساعة الثالثة إلى الرابعة. وقبل خروجه، دخل عند زوجته، وتحدث الاثنان بمرارة حول زوج ابنتهما. كانت مناقشات يوم الخميس تلك ترهق السيد داريدا بتفاصيلها الدقيقة. إذ كان يملأ الغرفة الهادئة بوجوده. فهو لا يجلس بل يذرع أرض الغرفة.

ويدور حول نفسه. كانت حدته تجرح السيدة داريدا كشظية الزجاج. وفى هذا الخميس كان الوضع أسوأ من المعتاد لأن مجرد تفكيرها فى أن تردد لزوجها اعترافات إيفا ورؤية ذلك الجسم الضخم المخيف يقفز من الهلع، كان ذلك يجعل العرق يتصبب منها. وأخذت قطعة الحلقوم من الصحن ونظرت إليها لحظات بتردد ثم تركتها وبكآبة، إذ لم تكن تريد أن يراها زوجها تأكل الحلقوم .

وارتعشت عندما سمعت الباب يطرق.

وقالت بصوت ضعيف: "ادخل".

دخل السيد داريدا على رءوس أصابعه.

فقال كعادته كل يوم خميس: "سوف أذهب لزيارة إيڤا".

فابتسمت له السيدة داريدا قائلة: "ستقبلها من أجلى".

لم يجب السيد داريدا وقطب حاجبيه باهتمام. ففى كل خميس وفى الساعة نفسها يعتريه نوع من الإثارة التى تمتزج بجاذبية الهضم.

"سأمر لأرى فرانشو عند خروجى من بيتها، أريد أن يكلمها بجدية وأن يحاول إقناعها".

كان يقوم بزيارات متعددة للدكتور فرانشو، ولكن عبثا، ورفعت السيدة داريدا حاجبيها. ففى الماضى عندما كانت فى كامل نشاطها كانت ترفع كتفيها دائما ولكن منذ أثقل المرض جسدها، استبدلت بالحركات التى أرهقتها حركات من وجهها: فتقول نعم بعينيها لا بطرف فمها كما ترفع حاجبيها بدلا من الكتفين.

- من الواجب أن ننتزعه منه بالقوة.

- سبق وقلت لك إن هذا مستحيل، وذلك لأن القانون قد أسيئت صياغته. قال لى فرانشو قبل أيام إن لديهم متاعب لا تحصى مع العائلات: أشخاص لايستطيعون اتخاذ قرار معين، يريدون إبقاء المريض عندهم. والأطباء مكبلو الأيدى فبإمكانهم أن يبدوا رأيهم، ليس إلا. وتابع كلامه بقوله: عليه أن يثير فضيحة عامة أو أن تطلب هى بنفسها إدخاله فى المستشفى.

فقالت السيدة داريدا:

- وهذا لن يكون بين ليلة وضحاها.

- كلا.

واتجه نحو المرآة، وغرس أصابعه فى لحيته وبدأ يسرحها. كانت السيدة داريدا تنظر بغير حنو إلى رقبة زوجها الحمراء القوية. وقال السيد داريدا:

- إذا استمرت هكذا فستصبح أكثر جنونا منه، وتلك حالة غير صحية. فهى لا تتركه خطوة، ولا تخرج أبدا إلا لزيارتك، ولا تستقبل أحدا. فجو غرفتهم بمنتهى البساطة لا يمكن استنشاقه.

وهى لا تفتح الباب إطلاقا لأن بيير لا يقبل ذلك. كما لو لو كان يجب استشارة المريض. ويحرقون على ما أظن عطورا..بل قذارة فى مجمرة، وكأنهم فى كنيسة. إننى أقسم بأنى أتساءل أحيانا: لماذا لها هاتان العينان الغريبتان؟ فقالت السيدة داربدا:

ـ لم ألاحظ ذلك، أرى هيئتها عادية، وهى حزينة بالطبع.

ـ إنها تحمل ملامح من غادر القبر. فهل تنام؟ وهل تأكل؟

يجب ألا تسأل عن هذه الأمور، ولكننى أظن أنه لا يغمض لها جفن برفقة رجل ضخم مثل بيير. وهز كتفيه وأضاف:

ـ إن ما أراه يعد أسطوريا، إذ إننا نحن أسرتها، ليس لنا الحق فى حمايتها من نفسها. ناهيك عن أن بيير يمكن الاعتناء به جيدا عند فرانشو. فهناك حديقة كبيرة،

واستطرد مبتسما: إنه هناك يستطيع أن يتفق مع أناس من نوعيته. إن هؤلاء الأشخاص كالأولاد يجب تركهم معا فهم يؤلفون نوعا من الجماعة المتآلفة. فهناك كان يجب وضعه من اليوم الأول وأقول: من أجل نفسه. من أجل مصلحته بلا ريب. وأضاف بعد لحظة:

ـ سأقول لك إننى لا أريد أن أعرف أنها وحيدة مع بيير خاصة فى الليل. فلو افترضنا أن شيئا ما قد حصل. فإن بيير مراء بشكل خطير.

فقالت السيدة داربدا:

ـ لا أدرى إذا كان من الواجب القلق إلى هذا الحد، لا سيما وإنها حالة رافقته دائما كان يعطى دائما انطباعا بأنه يهزأ من العالم. وتابعت متنهدة: يا له من صبى مسكين، حاز على شرفه ثم وصل إلى هذا الحد. كان يظن أنه أكثر ذكاء منا جميعا وله أسلوب فى قوله لك: "الحق إلى جانبك". لإقفال النقاش... إنها رحمة له أن لا يستطيع الاطلاع على حالته.

كانت تتذكر بكل ألم ذلك الوجه الطويل الساخر، دائم الانحناء إلى جهة واحدة. ففى الأيام الأولى لزواج إيفا، لم تتمن السيدة داربدا أكثر من إقامة

علاقة ودية مع صهرها. لكنه ثبط همتها، فلم يكن يتحدث، كان يوافق باستعجال وبغير اكتراث.

ويتابع السيد داربدا فكرته قائلا:

- دعاني فرانشو لزيارة عيادته، إنها رائعة، فالمرضى لهم غرف خاصة، فيها مقاعد جلدية وأسرة مريحة وهل تعرفين أيضا أن بها ملعبًا للتنس، كما سيتم بناء مسبح.

كان قد انتصب أمام النافذة ينظر من خلال الزجاج متأرجحا يمينا ويسارا على رجليه المقوستين. ثم استدار فجأة على طرفى حذائه بمرونة خافضا كتفيه، واضعا يديه فى جيوبه. وبدأت السيدة داربدا تشعر بأن العرق سيتصبب منها، ففى كل مرة يحدث الشىء ذاته. والآن سيذرع أرض الغرفة طولا وعرضا كَدُبٍّ فى قفصه، وسيقرقع بحذائه عند كل خطوة فقالت له:

- يا صديقى، أرجوك اجلس، أنت تتعبنى.

- وأضافت بتردد: عندى شىء خطير أقوله لك.

جلس السيد داربدا على كرسي كبير، ووضع يديه فوق ركبتيه.

وسرت قشعريرة خفيفة فى ظهر السيدة داربدا، فقد حان الوقت، كان عليها أن تتكلم. و قالت بصوت ملؤه الانزعاج:

- أتدرى لقد رأيت إيڤا يوم الثلاثاء.

- نعم ...

- لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة، كانت لطيفة جدا، فمنذ وقت طويل لم أجدها بتلك الثقة. عند ذلك طرحت عليها بعض الأسئلة، وجعلتها تتكلم عن بيير. وأضافت وقد ازداد انزعاجها: حسنا إنها تتمسك به كثيرا .

فقال السيد داربدا :

- أقسم بأنى أعرف ذلك حق المعرفة.

كان يزعج السيدة داريد قليلا، إذ إن عليها أن تشرح له الأشياء بدقة واضعة النقاط على الحروف، كانت السيدة داريدا تحلم بأن تمضى حياتها مع أشخاص من ذوى اللباقة والحس المرهف، ممن يفهمونها بسرعة. وأردفت:

- غير أنى أريد أن أقول إنها تتمسك به بخلاف ما كنا نتصور.

وتطلع السيد داريدا بعينين غاضبتين مضطربتين، كعادته عندما لا يفهم معنى تلميح أو خبر ما: ماذا يعنى ذلك؟

فقالت السيدة داريدا:

- شارل، لا تتعبنى، عليك أن تفهم أن الأم تجد الصعوبة فى ذكر بعض الأمور.

فقال السيد داريدا بغضب:

- لم أفهم أية كلمة من الكلمات التى أتيت بها، ولا تريدين أن تقولى شيئا رغم ذلك؟

فقالت: بلى ...

- لديهم أيضا ... أيضا حتى الآن.

فأجابت بثلاث كلمات جافة:

- نعم! نعم! نعم!

فأزاح السيد داريدا ذراعيه، وأخفض رأسه وسكت.

فقالت امرأته بقلق:

شارل كان علىّ أن لا أقول لك ذلك ولكننى لا أستطيع الاحتفاظ به لنفسى.

فقال بصوت خفيض:

آه يا ابنتى! مع هذا المجنون! إنه لم يعد يعرفها فهو يدعوها أجاتا، فطبيعى أن تكون فقدت معنى ما يجب أن تكون.

ثم رفع رأسه ونظر إلى زوجته بقساوة:

- هل أنت متأكدة من أنك فهمت جيدا؟ فأضافت بحدة:

- لم يكن هناك من شك ممكن، فأنا مثلك، لم يكن يسعنى أن أصدق وأنا لا أفهمها على كل حال إلا لأنها متأثرة بهذا البائس المسكين... وتنهدت:

- أعتقد أنه يشدها إليه من هذا المنطلق!

فأجاب السيد داربدا:

- يا للأسف! هل تذكرين ما قلته لك عندما جاء لخطبتها؟ قلت لك: "إنه يروق لإيفا أكثر من اللازم"، ولم تريدى أن تصدقينى.

وضرب فجأة على الطاولة وقد احمر وجهه بقوة:

- هذا فساد فى الأخلاق! فهو يأخذها بين ذراعيه ويقبلها وهو يدعوها أجاثا ويفرغ جميع سخافاته حول التماثيل التى تطير وغير ذلك! و هى تسمح بذلك! ولكن ما يجرى فى الحقيقة بينهما؟ أن تلومه من كل قلبها، أن تضعه فى مأوى للراحة، حيث يصبح بإمكانها أن تراه كل يوم يا حبذا، غير أنى لم أفكر بشىء كهذا.. كنت أعتبرها بمثابة أرملة. و قال بصوت وقور:

- أصغى يا چانيت أريد أن أكلمك بصراحة، فإذا بقى لديها إحساس عليها أن تتخذ لنفسها عشيقا!

فصاحت السيدة داربدا: شارل، اصمت!

فأخذ السيد داربدا القبعة والعصا اللتين وضعهما على الطاولة المستديرة عند دخوله وكانت هيئته متعبة وختم حديثه قائلا:

- بعد الذى قلته لى لم يبق لى أى أمل. وفى النهاية سأحدثها رغم كل شىء لأن هذا من واجبى.

كانت السيدة داربدا تستعجل انصرافه، فقالت له بهدف تشجيعه:

- "أتدرى أن إيفا تشكو من عنادها أكثر من أى شىء آخر. تعرف أنه غير قابل للشفاء ولكنها تصر على عنادها وهى لا تريد أن ترضى بالأكاذيب".

كان السيد داريدا يداعب لحيته حالما:

ـ عناد؟ نعم يمكن أن يكون الأمر كذلك. حسنا، فإذا كان الحق معك لابد وأن تتعب فى النهاية. فهو ليس مريحا كل يوم ثم إن الحوار يعوزه، فعندما أقول له مرحبا، يمد لى يدا رخوة بدون أن يتكلم. وعندما ينفردان معا، أظن أنه يعود إلى أفكاره الثابتة: قالت لى إنه يصرخ كالذبيح لأن عنده وساوس. تماثيل. تخيفه التماثيل لأنها تئز. يقول إنها تدور حوله بأعين بيضاء".

وأردف وهو يضع قفازه :

ـ "ألا أقول لك، إنها ستمل فى النهاية. ولكن إذا جئت قبل ذلك؟ أود أن تخرج قليلا، أن ترى العالم فإذا قابلت شابا ظريفا ـ شخصا مثل شرويدر مثلا وهو مهندس يعمل عند سامبلون، شخص أمامه مستقبل باهر، تراه تارة عند هؤلاء، وطورا عند أولئك وتعتاد برفق على التفكير ببناء حياتها من جديد".

لم تجب السيدة داريدا بشىء مخافة أن يتطور الحديث. فانحنى زوجها نحوها قائلا:

ـ "هيا، على أن أذهب".

فقالت السيدة داريدا وهى تقرب جبينها:

ـ وداعا أيها الأب. قبلها جيدا وقل لها نيابة عنى إنها عزيزة تعسة.

وما إن ذهب زوجها حتى وقعت السيدة داريدا على طرف أريكتها وأغمضت عينيها من فرط الإعياء. وفكرت بنوع من الملامة: "يا لها من حيوية". وما كادت تستعيد بعض قواها حتى مدت يدها الشاحبة والتقطت قطعة حلقوم من الصحن، بارتجاف

ودون أن تفتح عينيها .

كانت إيفا تقيم مع زوجها فى الطابق الخامس من إحدى البنايات القديمة، فى شارع باك. صعد السيد داريدا برشاقة درجات السلم المائتين واثنتى عشرة. ولما ضغط على زر الجرس لم يكن حتى يلهث وتذكر بارتياح كلمة الآنسة دورموا:

- "بالنسبة إلى سنك يا شارل، أنت، بكل بساطة رائع". لم يكن يشعر أنه أكثر نشاطا وأكثر صحة إلا يوم الخميس، لا سيما بعد صعود الدرج ".

وجاءت إيفا لتفتح له: "صحيح، ليس عندها خادمة. هؤلاء البنات، لاتستطيع البقاء فى خدمتها لو وضعت نفسى فى مكانهن". قبلها قائلا :

- "مرحبا بك يا عزيزتى المسكينة".

فقالت له مرحبا ببعض البرود.

وقال السيد داربدا وهو يلامس خدها:

- "وجهك مائل إلى الشحوب، فأنت لا تتمرنين ما فيه الكفاية". ومرت فترة صمت وسألت إيفا:

- "أأمى صحتها جيدة؟"

- لا رديئة ولا جيدة. هل رأيتها الثلاثاء؟

حسنا إنها ككل يوم. جاءت خالتك لويزا لتزورها بالأمس، فسرت لذلك، تحب كثيرا أن تتلقى الزيارات شريطة ألا تطول كثيرا. خالتك لويزا أتت إلى باريس مع الصغار من أجل قضية الحجز. لقد حدثتك عنها على ما أظن. إنها قضية غريبة. ومرت على مكتبى لتطلب منى استشارة. فقلت لها إن ليس هناك من طريقين: عليها أن تبيع. فقد وجدت بريتونيل كمستأجر على كل حال. هل تتذكرين بريتونيل؟ لقد انسحب من إدارة الأعمال فى الوقت الحاضر.

وتوقف فجأة ، فإيفا لا تكاد تصغى إليه. ففكر باكتئاب بأنها لم تعد تكترث لشىء. (كقصة الكتب فى السابق كان علينا انتزاعها منها بالقوة. والآن لم تعد تقرأ أبدا).

-""كيف حال بيار؟" فقالت إيفا:

- "بأحسن حال. هل تريد أن تراه؟"

فقال السيد داربدا بسرور:

ـ "بل بكل تأكيد، أريد أن أزوره زيارة قصيرة".

كان كثير الملاطفة لهذا الرجل التعيس، ولكنه لم يكن يستطيع رؤيته بغير اشمئزاز. "أنا أخاف الأشخاص غير الأصحاء". لم تكن تلك غلطة بيار بلا شك: كانت سلالته مليئة. وتنهد السيد داريدا:

"مهما أخذنا من احتياطات فإن كل هذه الأمور تعرف فى وقت لاحق". كلا، لم يكن بيار مسئولا. ولكن على كل حال، فقد حمل هذه الآفة فيه، وهى تكون جوهر طبيعته. إذا لم تكن كمرض السرطان أو السل، بالإمكان التغاضى عنهما عندما نكون بصدد الحكم على الإنسان كما هو بحد ذاته. فلطالما راق إيفا تلك الجاذبية العصبية وذاك الذكاء عندما كان يغازلها، لقد كانت أزهار الجنون" كان بالفعل مجنونا حين تزوجها، غير أن جنونه لم يكن قد ظهر. وفكر السيد داريدا، إن المرء ليتسأل أين تبتدئ المسئولية أو بالأحرى أين تنتهى. إنه يحلل نفسه كثيرا على كل حال فهل هذا سبب بلائه أم نتيجته. ولحق بابنته عبر ممر طويل معتم وقال:

ـ هذه الشقة كبيرة بالنسبة إليكما، عليكما أن تنتقلا منها". فأجابت إيفا:

ـ تردد لى هذا فى كل مرة يا أبت، لكنى أجبتك بأن بيار يرفض مغادرة غرفته.

كانت إيفا مدهشة: وهذا ما يثير التساؤل فيما لو كانت تعلم بحالة زوجها، كان مجنونا، وهى كانت تحترم قراراته وآراءه كما لو كان متمتعا بحسه السليم.

فأردف السيد داريدا ببعض الانزعاج :

ـ "ما أتحدث عنه هو من أجلك. إذ يبدو لى لو كنت امرأة أنى سأخاف من هذه الحجرات القديمة شبه المضاءة، أتمنى لك أن تقيمى فى شقة مضيئة، كتلك التى بنوا منها فى السنوات الأخيرة ناحية أوتوى، من ثلاث غرف يدخلها الهواء جيدا. وقد خفضوا الإيجار فيها لأنهم لم يجدوا المستأجرين ، فالفرصة سانحة".

وأدارت إيفا مزلاج الباب برفق ودخلا الغرفة. كان السيد داربدا يختنق من رائحة البخور الثقيلة، وكانت الستائر مسدلة فميز فى الظل رقبة هزيلة فوق ظهر الأريكة، كان بيار يدير ظهره، فقد كان يأكل.

فقال السيد داربدا رافعا صوته :

ـ "مرحبا يا بيار. كيف حالنا اليوم؟ "

واقترب السيد داربدا، كان المريض جالسا إلى طاولة صغيرة بهيئة متملقة، وقال السيد داربدا رافعا صوته أكثر:

ـ "أكلنا بيض نبرشت. إنه لذيذ، هذا البيض!

فأجاب بيار بصوت رقيق:

ـ "أنا لست أصم".

وأدار السيد داربدا ـ متأثرا ـ وجهه ناحية إيفا ليأخذها كشاهدة. لكن إيفا بادلته نظرة قاسية وسكتت. ففهم السيد داربدا أنه جرحها.

"حسنا. فليكن ما تشاء". كان يستحيل إيجاد اللهجة الملائمة مع هذا الرجل: إذ إن عقله دون عقل طفل فى الرابعة، وإيفا تريد أن يعامله الناس كرجل. ولم يكن السيد داربدا ليستطيع أن يحول دون الانتظار بفارغ الصبر زوال تلك النواحى المضحكة. فالمرضى يزعجونه دائما ـ وخاصة المجانين لأنهم على خطأ. فبيار المسكين مثلا، دائم الوقوع فى الخطأ، لم يكن بوسعه أن يتفوه بكلمة دون أن يضيع صوابه، وكان من العبث أن يطلب إليه أى تواضع، أو حتى الاعتراف العرضى بالأخطاء.

وانتزعت إيفا قشرة البيض ووضعت أمام بيار صحنا مع شوكة وسكين . فقال السيد داربدا مسرورا:

ـ ماذا سيأكل الآن؟

ـ قطعة بفتيك.

كان بيار قد تناول الشوكة ووضعها على طرف أصابعه الطويلة الشاحبة، فحصها بدقة ثم ضحك ضحكة خفيفة. وتمتم وهو يضعها من يده:

ـ لن تكون لهذه المرة. فقد نبهت.

اقتربت إيفا ونظرت إلى الشوكة باهتمام فائق فقال بيار:

ـ "أغاتا أعطينى شوكة أخرى".

وأطاعته إيفا، وبدأ بيار يأكل، فتناولت الشوكة المشبوهة.

وأمسكتها بكلتا يديها بدون أن تزيح نظرها عنها: يبدو أنها تقوم بمجهود عنيف. ففكر السيد داربدا . كم هى منحرفة جميع تصرفاتهم وحركاتهم!".

كان متضايقا وقال بيار:

ـ "انتبهى، أمسكيها من نصف الظهر بسبب الملاقط".

فتنهدت إيفا وألقت الشوكة مع فضلات الطعام. وضاق السيد داربدا ذرعا بما رآه . ولم يفكر بأنه من الأفضل الموافقة على ترهات هذا المسكين ـ حتى من وجهة نظر بيار، كان الأمر مؤذيا . لقد قالها فرانشو بوضوح:

ـ "علينا ألا ندخل فى هذر المريض". فبدلا من إعطائه شوكة أخرى كان يجب تصويبه برفق وإفهامه أن الشوكة الأولى ككل الشوكات الأخرى. واقترب من فتات الطعام، وتناول الفرشاة علنا وأخذ يحك على أسنانها بخفة.

ثم اتجه نحو بيار. لكن هذا كان يقطع قطعة اللحم بسرور. فرفع نحو حميه نظرة عذبة لا تنم عن شيء. فقال السيد داربدا لإيفا:

ـ "أريد أن أتحدث معك قليلا".

ـ تبعته إيفا طائعة إلى غرفة الاستقبال. وانتبه السيد داربدا وهو يجلس، إلى أنه نسى الفرشاة فى يده. فرماها، بانزعاج على المنضدة وقال:

ـ هنا أفضل.

ـ لن أتى قط.

ـ هل بإمكانى أن أدخن؟

فقالت إيفا بتلهف:

ـ طبعا يا أبت. هل تريد سيجارا؟

آثر السيد داربدا أن يلف سيجارة. كان يفكر بغير قلق بالمناقشة التى سيجريها. كان منزعجا من عقله وهو يتحدث إلى بيار، انزعاج المارد من قوته عندما يلاعب ولدا صغيرا. فكل صفاته من وضوح وصفاء ودقة كانت تتحول ضده.

"مع جانيت المسكينة، الأمر متشابه إلى حد ما، علىّ أن أعترف بذلك، وبالطبع، إن السيدة داربدا ليست مجنونة ولكن المرض أنهكها. إيفا، بالعكس، كانت كأبيها، ذات طبيعة مستقيمة ومنطقية والمناقشة معها كانت متعة.

"لهذا لا أريد أن يغرقوها". رفع السيد داربدا عينيه، كان يريد أن يرى ملامح الذكاء والفطنة عند ابنته. خاب ظنه: ففى هذا الوجه الذى كان عاقلا شديد الوضوح، يوجد الآن شىء مضطرب كثيف. كانت جميلة جدا. ولاحظ السيد داربدا أنها تزينت بعناية فائقة، وحتى بزهو. فقد لونت ريفها بالأزرق واكتحلت. تلك الزينة الكاملة والعنيفة أحدثت عند أبيها انطباعا مضنيا. فقال لها:

ـ تبدين خضراء من تحت زينتك، أخشى أن تقعى فريسة المرض. ولكم تتبرجين فى الوقت الحاضر! أنت التى كنت.

لم تجب إيفا، وتطلع السيد داربدا بانزعاج إلى هذا الوجه البارز المنهك تحت كتلة الشعر الكثيف الأسود. وفكر بأن لها هيئة ممثلة درامية."حتى إنى أعرف لمن تشابه، لتلك المرأة المتحفظة الرومانية، التى لعبت دور فيدرا باللغة الفرنسية فى حائط الأورانج". وندم على إبدائه تلك الملاحظة غير المحببة.

ـ "حدث هذا رغما عنى! من الأفضل ألا أضايقها بهذه الأشياء الصغيرة".

فقال لها مبتسما:

- "اعذرينى، فأنت تعرفين أنى متمسك بالطبيعة ، قديم، لا أحب كل هذه المراهم التى تطلى بها نساء اليوم وجوههن لكننى أنا المخطئ، فمن الواجب أن يساير الإنسان عصره وابتسمت له إيفا بحب. أشعل السيد داريدا سيجارته وأخذ عدة أنفاس وبدأ كلامه:

- "يا ابنتى الصغيرة، كنت أريد أن أقول لك حقا إننا نريد أن نثرثر نحن الاثنين، كما فى السابق. هيا، اجلسى واصغى إلىّ بلطف، فعليك أن تثقى بهذا الأب العجوز.

فقالت إيفا:

- أفضل أن أبقى واقفة. ثم أضافت :

- ما عندك لتقوله لى؟

فقال السيد داريدا بمزيد من الجفاء:

- أريد أن أسألك سؤالا بسيطا. إلام سيقودك كل هذا؟

فكرت إيفا مندهشة:

- كل هذا؟

- أجل، كل هذا، كل هذه الحياة التى تعيشينها".

وأردف قائلا:

- "أصغى، لا تظنى أنى لا أفهمك (أصيب بضياع مفاجئ). لكن ما تريدين أن تقومى به هو فوق طاقة البشر. تريدين أن تعيشى بالخيال ، فقط أليس كذلك؟ لا تريدين أن تقتنعى بأنه مريض؟ لا تريدين أن ترى بيار كما هو اليوم، أليس كذلك؟ عيونك لا ترى سوى بيار الذى عرفتيه من قبل، وتابع السيد داريدا. يا عزيزتى الصغيرة، يا ابنتى الصغيرة، إنها مخاطرة لا يمكن الاستمرار فيها. إليك بهذا، أريد أن أقص عليك حكاية لم تسمعى بها من قبل: نحن عندما كنا فى سابله - دولون، كان عمرك ثلاث سنوات، وتعرفت أمك على امرأة جذابة

كانَ عندها طفل رائع. كنت تلعبين على الشاطئ مع هذا الصبى كنت لا تزالين صغيرة جدا، إنه خطيبك وفى باريس شاعت أمك أن تعود للقاء تلك المرأة الشابة، وقيل لها إن حادثا رهيبا قد حصل لها، فولدها الجميل قتل بعهد أن صدمته مقدمة إحدى السيارات.

وقيل لأمك:

- "اذهبى لمقابلتها ولكن لا تتناولى بأى حال موضوع ولدها فهى لا تريد أن تصدق أنه مات". وذهبت أمك لترى خلقة شبه مجنونة: كانت تعيش كما لو أن ولدها لا يزال على قيد الحياة، إذ إنها تكلمه، وتضع صحنه على الطاولة. لقد عاشت ستة أشهر على تلك الحال من التوتر العصبى، ولم تمض هذه الأشهر الستة حتى اقتيدت بالقوة إلى دار للاستشفاء والراحة بقيت فيه ثلاث سنين.

وقال السيد داريدا وهو يهز رأسه: "لا يا صغيرتى إن أمورا كهذه مستحيلة. كان من الأفضل لها أن تعترف بالحقيقة بشجاعة، فتتألم لمرة واحدة ثم يمتص الزمن ألمها. فلا يمكن إلا مواجهة الأمور بشجاعة، صدقينى.

فقالت إيفا بعناء:

- "أنت مخطئ فأنا أعرف أن بيار...".

ولم تجر الكلمة على لسانها، فوقفت منتصبة القامة، ووضعت يديها على ظهر الكرسى. كان هناك شىء مجدب دميم فى أسفل وجهها. وسأل السيد داريدا مندهشا:

- حسنا... ماذا؟

- ماذا؟

- أنت...؟

فأسرعت إيفا لتقول بهيئة مزعجة:

- "أحبه كما هو".

فقال السيد داريدا بقوة:

- ليس هذا صحيحا، ليس هذا صحيحا: أنت لا تحبينه، ليس بإمكانك أن تحبيه. ليس بالإمكان الشعور بمثل هذه العواطف إلا تجاه إنسان سليم وطبيعى. إن لديك بعض الممالأة لبيار ولا أشك فى ذلك، كما أنك تحافظين على ذكرى السنوات السعيدة الثلاث التى أمضيتها معه. ولكن لا تقولى لى إنك تحبينه، فلن أصدقك.

ظلت إيفا صامتة وحدجت السجادة بنظرة تائهة. فقال السيد داريدا ببرود:

- هل تستطيعين أن تجيبينى ولا تظنى أن هذا الحديث لا يؤلمنى بقدر ما يؤلمك..".

- "مادمت لن تصدقنى".

فقال وقد ضاق ذرعا:

- "حسنا، إذا كنت تحبينه فإن هذا وبال عليك، وعلىّ وعلى أمك المسكينة. وسأقول لك شيئا كنت أفضل إخفاءه. منذ ثلاث سنوات كان بيار سيصاب بالجنون التام وكان سيتحول إلى حيوان.

وحدج ابنته بنظرات قاسية، لقد كرهها لأنها أرغمته بعنادها على الاعتراف لها بهذا الأمر الخطير. ولم تتحرك أيضا وبدون أن ترفع ناظريها:

- أعرف ذلك.

فسأل مشدوها:

- ومن قاله لك؟

- فرانشو. فأنا أعرف ذلك منذ ستة أشهر..

فقال السيد داريدا بمرارة:

- وأنا الذى قلت له أن يسايرك، ولكن لعل هذا أفضل. ولكن فى مثل هذه الأحوال لا يمكن أن نغفر لك الاحتفاظ ببيار فى بيتك. فالكفاح الذى كرست

نفسك من أجله سيكتب له الفشل، فمرضه لا يغفر. فإذا كان عليك أن تفعلى شيئا، وإذا كان بالإمكان إنقاذه بالعناية، فلا أعترض. ولكن انظرى قليلا: كنت جميلة، ذكية، مرحة، وأنت تدمرين حياتك مختارة وبغير فائدة. حسنا، أفهم أنك مدعاة للإعجاب، ولكن ها أنت قد قمت بواجبك على أكمل وجه بل أكثر من واجبك. ومن العار أن تصرى على رأيك فى الوقت الحاضر، فعلى المرء واجبات تجاه نفسه يا ابنتى. ثم ألا تفكرين بنا. وأضاف وهو يشد على الكلمات:

- يجب عليك أن ترسلى بيار إلى عيادة فرانشو، ثم تتركى هذه الشقة التى لم تجلب لك سوى العذاب وتعودى إلى بيتنا. وإذا كنت راغبة بأن تكونى مفيدة وأن تخففى آلام الغير، فعليك بأمك. إن المسكينة تحت عناية الممرضات وهى بحاجة لأن ترى بشرا حولها.

وأضاف:

- وهى.. هى بإمكانها أن تقدر ما تقومين به من أجلها وتكون لك شاكرة. وطال الصمت بينهما. وسمع السيد داربدا بيار يغنى فى الغرفة المجاورة. بالكاد كان صوته غناء فهو نوع من السرد الحاد العصبى، ورفع السيد داربدا نظره نحو ابنته:

- إذا، ألن تقبلى؟

فقالت برفق:

- سيظل بيار معى، فإن التفاهم بيننا شديد.

- شريطة القيام بأعمال حيوانية طيلة النهار.

فابتسمت إيفا وحدجت أباها بنظرة ساخرة شبه فرحة. وفكر السيد داربدا بغضب: صحيح، فهما لا يعملان أكثر من هذا: ينامان فى فراش واحد.

فقال وهو ينهض:

- أنت مجنونة كاملة.

فابتسمت بكآبة متمتمة وكأنها تحدث نفسها:

ـ ليس كثيرا.

ـ ليس كثيرا! لا أستطيع أن أقول لك سوى شيء واحد يا ابنتى، أنت تخيفينني.

وقبلها على عجل وانصرف. وفكر وهو ينزل الدرج:

ـ "من الأجدر أن أرسل لها رجلين ضخمين يقتادان تلك القذارة المسكينة و يضعانه تحت مصب المياه دون أخذ رأيها".

كان يوما هادئا من أيام الخريف، ليس فيه من غرابة. والشمس تسطع فى وجوه المارة. دهش السيد داريدا لبساطة تلك الوجوه، فمنها الأسمر الخشن ومنها الناعم، ولكنها كانت تعكس السعادة والهموم التى ألفها. وقال فى نفسه وقد اشتلم جادة سان جرمان.

"أعرف بوضوح تام ما آخذه على إيفا، فأنا أعتب عليها أنها تعيش خارج إطار حدود البشر، لم يعد بيار كائنا بشريا: فبكل ما توليه من عناية وتهبه من حب أراها تحرم هؤلاء البشر الآخرين منه وإذا ما وجد الشيطان، فذلك هو المجتمع. فليس بإمكان المرء أن يتخلى عن بنى الإنسان.

كان يراقب المارة بمحبة: يعشق نظراتهم الوقورة الصافية.

ففى هذه الشوارع المشمسة وبين البشر، بإمكان المرء أن يكون مطمئنا، كما لو كان فى عائلة كبيرة.

وتوقفت إحدى النسوة أمام الأشياء المعروضة فى الهواء الطلق، كانت تمسك بيدها بنتا صغيرة. فسألت البنت وهى تدل على جهاز الراديو:

ـ ما هذا؟ فقالت أمها:

ـ لا تلمسى شيئا بيدك، إنه جهاز، يحدث موسيقى.

وظلتا للحظة ساكتتين، وفى غمرة السعادة.

فانحنى السيد داربدا وقد رق قلبه ـ نحو البنت الصغيرة وابتسم.

- ٢ -

"لقد ذهب". وكان باب المدخل قد أقفل بقرقعة جافة. وإيفا وحدها فى غرفة الاستقبال: "أود أن يموت".

وتشنجت يداها على ظهر الكرسى، إذ تذكرت عينى أبيها. كان السيد داربدا قد انحنى فوق بيار وقال له: "ألذيذ هذا؟" وكأنه يتقن الحديث إلى المرضى. نظر إليه، فارتسم وجه بيار فى قعر عينيه.

"أنا أكرهه، عندما أفكر بأنه يراه".

وانزلقت يدا إيفا على طول الكنبة، واتجهت نحو النافذة. كانت مندهشة. فالغرفة تسطع بالشمس، فالشمس فى كل مكان فيها:

على السجادة ذات الدوائر، وفى الهواء، كغبار يعمى الأبصار. لقد فقدت إيفا تعودها على الضوء القوى، الذى يصل إلى كل مكان ويخترق جميع الزوايا، يلامس الأثاث فيجعله يلمع. وتقدمت مع ذلك نحو النافذة ورفعت ستار القماش الذى يتدلى فوقها.

فى اللحظة نفسها، كان السيد داربدا يغادر البناية، فلمحت إيفا فجأة كتفيه العريضتين. ورفع رأسه ونظر إلى السماء مغمضا عينيه ثم ابتعد بخطى واسعة وكأنه رجل شاب. وفكرت إيفا:

"إنه يجهد نفسه كانت هناك أشياء قليلة فى هذا الرأس".

لم تكن لتكرهه أبدا: إذ لا يكاد اهتمامه بالبقاء شابا يظهر عليه. لكن الغضب عاد واستبد بها عندما شاهدته ينعطف نحو جادة سان جرمان، ومن ثم يختفى. "إنه يفكر ببيار". فالقليل من حياتهما فر خارج الغرفة المقفلة ليتهالك فى سيره عبر الشوارع، وفى الشمس، وبين الناس.

"أليس بالإمكان قط أن ينسونا؟".

كانت طريق باك شبه مقفرة. امرأة عجوز تعبر الشارع على مهل، وتمر ثلاث فتيات يتضاحكن. ثم رجال أقوياء وقورون يحملون حقائبهم ويتبادلون الحديث وفكرت إيفا: "البشر العاديون"، وقد أدهشها أن ترى فى نفسها تلك المقدرة على الكراهية.

وركضت امرأة جميلة سمينة أمام سيد أنيق. فأحاطها بذراعيه

وقبلها فى فمها. ضحكت إيفا ضحكة قاسية وأسدلت الستار.

كان بيار قد انقطع عن الغناء، لكن زوجة الطابق الثالث جلست إلى البيانو تعزف قطعة لشوبان. وشعرت إيفا بأنها أكثر اطمئنانا، وخطت خطوة نحو غرفة بيار، لكنها توقفت فجأة وأسندت ظهرها إلى الحائط بشىء من القلق: إذ فى كل مرة كانت تغادر فيها الغرفة، يدب فى نفسها الذعر عند فكرة العودة إليها ثانية. إلا أنها تعرف أنه لم يكن بوسعها العيش فى مكان آخر: كانت تحب الغرفة.

وجابت ببصرها بفضول بارد تلك الغرفة التى لا ظلال لها ولا رائحة حيث كانت تنتظر أن تسترد شجاعتها، وكأنها تريد أن تكسب قليلا من الوقت. "ليقال إنها عيادة طبيب أسنان".

فكنبات الحرير الوردى، والديوان، والطاولات كانت صبورة متكتمة، على شىء من الأبوة فهى من الأصدقاء الطيبين للإنسان.

وتصورت إيفا أن رجالا وقورين عليهم أثواب فاتحة، يشبهون من سبق أن رأتهم من النافذة، يدخلون قاعة الاستقبال وهم يواصلون حديثا كانوا قد بدأوه. لم يسعهم الوقت لكى يتعرفوا حتى على المكان، إذ تقدموا بخطى ثابتة إلى وسط الحجرة، وكان واحدًا مثلهم، يجر يده وراءه، يلامس عند مروره الأغراض والطاولات، فلا يرتعد لاحتكاكه بها. وإذا وقعت فى طريقهم قطعة أثاث، كان يعمد هؤلاء الرجال الرزينون لإزاحتها من مكانها، بدون أن يأخذوا عناء الابتعاد عنها. وجلسوا أخيرا وهم لا يزالون غارقين فى مباحثاتهم، حتى بدون أن يلقوا نظرة إلى الوراء. ففكرت إيفا: "إنها قاعة استقبال للبشر العاديين"

وثبتت نظرها بالباب المقفل والقلق يضغط على حنجرتها:

"عليّ أن أذهب. فلن أتركه وحده لهذه المدة الطويلة".

كان عليها أن تفتح الباب ثم تقف فى العتبة، محاولة أن تعود عينيها على خيال الظل، فتدفعها الغرفة بكل قواها. وكان على إيفا أن تنتصر على تلك المقاومة وأن تدخل إلى قلب الغرفة.

فجأة اعتراها ميل عنيف لمشاهدة بيار، وأرادت أن تشاطره السخرية من السيد داريدا. لكن بيار لم يكن بحاجة إليها، ولم تتصور إيفا نوع اللقاء الذى يعده لها. وفجأة فكرت بنوع من الفخر أنه لم يبق لها محل فى أى مكان. "إن الأشخاص العاديين لا يزالون يعتقدون أننى واحدة منهم غير أنى لا أستطيع المكوث ساعة بصحبتهم. أنا بحاجة لأعيش هناك، فى الجهة الأخرى من هذا الجدار. ولكنهم لا يريدوننى هناك".

وحدث تغير عميق فيما حولها. لقد شاخ الضوء، وأصبح لونه داكنا: وتثاقلت إيفا، كالماء فى إناء الزهور حين لا يتغير منذ البارحة. وعلى الأشياء وفى هذا الضوء العجوز، رأت إيفا من جديد تلك الكآبة التى كانت قد نسيتها منذ وقت طويل، كآبة بعد ظهر يوم من أيام خريف مضى. كانت تنظر فيما حولها مترددة خجولة: كل هذا كان بعيدا جدا: ففى الغرفة ليس هناك نهار أو ليل، ولا فصل ولا كآبة. وتذكرت بغير وضوح فصول الخريف السابقة، فصول خريف طفولتها، ثم جمدت فى مكانها فجأة ، كانت تخشى الذكريات.

وسمعت صوت بيار.

ـ أجاتا! أين أنت؟

فصاحت:

ـ ها أنا آتية.

وفتحت الباب ودخلت إلى الغرفة.

لقد ملأت رائحة البخور الكثيفة أنفها وفمها، بينما أغمضت عينيها ومدت يديها إلى الأمام ـ منذ زمن طويل لم تكن الرائحة والظل بالنسبة لها سوى عامل

واحد، فظ وبسيط ومألوف مثل الماء والهواء أو النار - وتقدمت بحذر نحو بقعة يبدو أنها طافية فى الغمام. كانت تلك هى وجه بيار: فثيابه (وبيار مذ مرض بات يرتدى لباسا أسود) قد ذابت فى العتمة. كان بيار قد قلب رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه. إنه جميل. نظرت إيفا إلى رموشه الطويلة المقوسة، ثم جلست إلى جانبه على الكرسى الواطئ. وفكرت فى نفسها: "يبدو أنه يتألم". بدأت عيناها تألفان الظل شيئا فشيئا. فظهر المكتب أولا، ثم السرير، ثم أشياء بيار الشخصية، والمقص، والكتب التى كانت على الأرض قرب الكنبة.

- أجاثا؟

فتح بيار عينيه ونظر إليها باسما وقال:

- أتدرين قصة الشوكة؟ فعلت ذلك لأخيف الرجل. فلم يكن ينقصها شىء تقريبا.

فتبددت مخاوف إيفا وضحكت ضحكة خفيفة وقالت:

- لقد نجحت نجاحا هائلا، فجعلته يخاف خوفا شديدا.

وابتسم بيار.

- أرأيت؟

داعبها هنيهة وأمسكها بكلتا يديه وقال:

- "إن ما هناك، إنهم لا يحسنون أخذ الأشياء فهم يضعونها فى قبضتهم".

فقالت إيفا:

- هذا صحيح.

ونقر بيار قليلا على باطن يده اليسرى بسبابة يده اليمنى.

- فبهذه يلتقطون. يقربون أصابعهم وما إن يلتقطوا الشىء حتى يضعوا راحة يدهم فوقه ليخنقوه.

كان يتحدث بصوت سريع وبطرف شفتيه، كان يبدو أنه محتار. وقال فى الختام :

ـ أتساءل عما يريدونه. لقد أتى هذا الرجل من قبل. لماذا أرسلوه إلىّ؟ فإذا أرادوا أن يعرفوا ما أعمل، فليس عليهم سوى أن يقرأوه على الشاشة، فليسوا بحاجة حتى للتحرك من أماكنهم. إنهم يرتكبون الأخطاء. لديهم القوة ولكنهم يرتكبون الأخطاء. أما أنا فلا أخطئ أبدا، وهذا هو رصيدى. ثم قال: "هوفكا هوفكا".

كان يحرك يديه المديدتين أمام جبهته:

ـ العاهر! هوفكا بافكا سوفكا. هل تريدين أكثر من هذا؟".

فسألته إيفا:

ـ هل هذا هو الجرس؟

وأردف بشدة:

ـ نعم. إنها ذهبت.

ـ هذا الرجل متخلف. أنت تعرفينه، وذهبت معه إلى قاعة الاستقبال. ولم تجب. فسأل بيار:

ـ ماذا كان يريد؟ ولابد وأن يكون قد قاله لك.

فترددت لحظة ثم أجابت بعنف:

ـ كان يريد أن نحتجزك".

عندما تقال الحقيقة على مسمع بيار بهدوء، كان شديد الحذر، إذ يجب أن يواجه بالحقيقة بعنف كى تتشل شكوكه. كانت إيفا تفضل أن تعنفه على أن تكذب عليه. فإذا كذبت وصدقها، لم تكن لتتمالك نفسها دون شعور بسيط بالتفوق عليه، يجعلها تشمئز من نفسها.

وكرر بيار بسخرية:

أن يحتجزونى. إنهم يفقدون جادة الصواب. وما عسى ذلك أن يفعل بى بين الجدران؟ لعلهم يعتقدون بأن هذا يوقفنى. إننى أتساءل أحيانا هل هناك عصابتان؟ الصحيحة هى تلك التى تنتسب للزنجى. ومن ثم عصابة مسودات تسعى لحشر أنفها فى القضية فترتكب السخافة تلو السخافة.

ووضع يده على ذراع الكنبة ونظر إليها باغتباط ثم سأل بعد أن استدار نحو إيفا بفضول:

ـ الجدران، بالإمكان اختراقها. فماذا أجبته؟

ـ ألا يتم احتجازك.

فهز كتفيه:

ـ "لم يكن ينبغى أن تقولى هذا. أنت أيضا ارتكبت خطأ إذا لم تكونى قد تعمدتيه. ينبغى أن نتركهم يستنفذوا لعبتهم".

وسكت. فأخفضت إيفا رأسها بحزن: "يقبضون عليهم!" فبأى لهجة احتقار قال هذا، وكم كان صحيحا. "وهل أقبض أنا أيضا على الأشياء؟ مهما راقبت نفسى، أظن أن غالبية حركاتى تؤذيه. ولكنه لا يفصح بذلك". شعرت عندئذ بأنها يائسة، كما كانت عليه فى سن الرابعة عشرة، وأن السيدة داريدا المليئة بالحيوية والخفة تقول لها:

ـ "كما لو كنت لا تدرين ما تفعلينه بيديك".

لم تكن تتجرأ على القيام بأية حركة، وفى تلك اللحظة تماما شعرت برغبة عارمة فى تغيير وضعها. وأعادت رجليها بهدوء إلى تحت الكرسى، ودون أن تلامس السجادة. كانت تنظر إلى المصباح على الطاولة ـ المصباح الذى طلى بيار ركيزته بالأسود ـ ورقعة الشطرنج. على الرقعة لم يترك بيار سوى القطع السوداء.

كان ينهض أحيانا ويذهب إلى قرب الطاولة فيأخذ الجنود واحدا واحدا بين يديه، يحدثهم، يطلق عليها اسم الأشخاص الأليين، فيبدون وكأن الحياة قد دبت

فيها بين أنامله. وعندما يضع الجنود من يده، كانت إيفا تذهب لتلامسهم بدورها (كان يتهيأ لها أن ذلك أمر غريب): إذ عادت الجنود قطعا من الخشب الميت.

ولكن شيئا ما مبهما لا يمكن التقاطه ظل يكسوها، شيئا يشابه المعنى. وفكرت فى نفسها: "إنها أشياؤه. لم يبق لى شىء فى الغرفة". كانت تملك بعض الأثاث فى السابق. كالمرآة والمنضدة التى أتتها من جدتها، والتى كان بيار يسميها ممازحا: منضدتك. لقد جر بيار الأشياء وراءه: وله وحده تظهر الأشياء وجهها الحقيقى. كان بإمكان إيفا أن تنظر إلى الأشياء طيلة ساعات، والأشياء تأبى ألا أن تبدى سوى مظاهرها ـ كما هو الحال بالنسبة للدكتور فرانشو والسيد داريدا. وقالت بنفس ملؤها القلق: "غير أنى لا أرى الأشياء بمنظار أبى. فليس ممكنا أن أستطيع رؤيتها كما يراها هو".

وحركت ركبتها قليلا، فقد تخدرت ساقها. كان وجهها جامدا متقلصا فهو يؤلمها، إذ تراه شديد الحيوية، غير كتوم:

"أود أن أظل غير مرئية وأن أبقى هنا. أراه دون أن يرانى. فهو ليس بحاجة إلىّ، فأنا متطفلة فى الغرفة". وأدارت رأسها قليلا ونظرت إلى الجدار فوق رأس بيار. على الحائط كتبت التهديدات.

وإيفا تعرف ذلك ولكنها لم تكن تستطيع أن تقرأها. كانت تنظر أحيانا إلى الورود الكبيرة الحمراء على سجادة الحائط، حتى تتراقص أمامها تلك الورود. وتلتهب الورود فى الظل. ويكون التهديد أكثر ما يكون مسجلا قرب السقف، إلى اليسار فوق السرير، لكنه يتنقل فى بعض الأحيان. "ينبغى أن أنهض. لا أستطيع ـ لا أستطيع أن أظل جالسة لوقت أطول". وعلى الجدار أيضا إطارات بيضاء تشابه قطع البصل. وتدور الإطارات حول نفسها فتأخذ يدا إيفا بارتجاف وتفكر بمرارة:

"هناك لحظات أصبح فيها مجنونة، ولكن لا، ليس بإمكانى أن أصبح مجنونة بل تثور ثائرتى، هذا كل ما فى الأمر".

وفجأة شعرت بيد بيار فوق يدها ويقول بيار بحنو:

ـ أجاتا.

كان يبتسم لها لكنه يأخذ يدها بطرف أصابعه بنوع من النفور، وكأنه يلتقط سرطان البحر من ظهره يريد أن يتجنب ملاقطه ويقول:

ـ أجاتا، أريد أن أثق بك كثيرا.

وأغمضت إيفا عينيها وارتفع صدرها: "ينبغى ألا أجيب وإلا سيشعر بالتحدى فيمسك عن الكلام". وأرخى بيار يدها وقال لها:

ـ "أحبك كثيرا يا أجاتا ولكن ليس بوسعى أن أفهمك. لماذا تظلين فى الغرفة طيلة الوقت؟ ولم تجب إيفا .

ـ قولى لى لماذا؟

فقالت بجفاء:

ـ أنت تعرف جيدا أنى أحبك.

فيجيبها بيار:

ـ أنا لا أصدقك. فلماذا تحبيننى؟ ينبغى أن أخيفك: فأنا مجنون.

ويبتسم بيار ولكن سرعان ما يعود إلى رصانته:

ـ هناك جدار بينى وبينك. أراك، أكلمك، ولكن فى الجهة الأخرى ما يحول دون حبنا واحدنا الآخر؟ يبدو لى أن هذا كان أسهل فى الماضى. فى هامبورغ.

فتقول إيفا بحزن:

ـ نعم فى هامبورغ دائما. لم يكن يتحدث قط عن ماضيهما الحقيقى. فلم يكونا يوما ما فى هامبورغ لا هو ولا إيفا .

ـ "كنا نتنزه على طول الأقنية، وكان هناك قارب، فهل تتذكرين؟

والقارب أسود، وعلى الجسر كلب.

كان يخترع بمقدار. كان غائبا عن الواقع.

ـ كنت آخذك بيدى، جلدك كان مختلفا. وصدقت كل ما كنت تقولينه لى ".

وصاح: "اسكتوا" وأصغى هنيهة ثم قال بصوت حزين:

ـ" هاهم قادمون".

فارتعدت إيفا:

ـ "إنهم قادمون؟ ظننت أنهم لن يأتوا بعد على الإطلاق".

منذ ثلاثة أيام كان بيار أكثر هدوءا من الماضى. فلم تأت إليه التماثيل. كان بيار يخاف خوفا شديدا من التماثيل ولم يتفق معها. أما إيفا فلم تكن تخشاها: ولكن ما إن يبدأوا بالطيران فى الغرفة مهمهمين حتى تفزع هى أيضا من بيار.

ويقول بيار:

ـ "أعطينى المجموعة".

وتنهض إيفا وتأخذ المجموعة: كانت المجموعة من قطع الورق المقوى ألصقها بيار بنفسه، ويستخدمها فى طرد التماثيل، والمجموعة تشبه العنكبوت. وعلى إحدى الأوراق كتب بيار:

"قدرة على المكيدة" وعلى ورقة أخرى: "أسود" وعلى ثالثة رسم رأسا ضاحكا بعينين مجعدتين: كانت صورة لفولتير.

وتناول بيار المجموعة بيده ونظر إليها بوجه معتم وقال:

ـ لم يعد بإمكانها أن تخدمنى.

ـ لماذا؟

ـ لقد قلبوها.

ـ هل ستصنع مجموعة أخرى؟

ونظر إليها طويلا وقال من بين أسنانه:

- تريدين ذلك جيدا.

وثارت إيفا ضد بيار. "فى كل مرة يأتون فيها، يتلقى هو خبرا، فكيف يتصرف: إنه لا يخطئ أبدا".

كانت المجموعة تتدلى من طرف أصابع بيار. "إنه يجد دائما أسبابا حقيقية لعدم استعمالها. ففى يوم الأحد عندما جاءوا، ادعى بأنه أضاع المجموعة لكننى كنت أراها بنفسى وراء علبة اللصق ولم يكن ممكنا ألا يراها. فأتساءل إن لم يكن هو الذى يجتذبهم". لم يكن بالإمكان أن نعرف إذا كان مخلصا حقا. ففى بعض اللحظات، كان يتهيأ لإيفا أن سيلا من الأفكار والرؤى السيئة تغزو بيار. ولكن فى لحظات أخرى، كان يبدو لها أن بيار يخترع." إنه يتألم. ولكن إلى أى حد هو يؤمن بالتماثيل وبالزنجى؟ التماثيل على كل حال، أنا متأكدة من أنه لايراها، فهو يسمعها فقط: فحين تمر يحول رأسه عنها، ويدعى مع ذلك بأنه يراها و يصفها". وتذكرت وجه الدكتور فرانشو المائل للاحمرار: "ولكن يا سيدتى العزيزة إن جميع المجانين كاذبون، فستضيعين وقتك إذا أردت أن تميزى بين ما يشعرون به حقا وبين ما يدعون الشعور به".

وارتعدت :

"لماذا أتى فرانشو، لا أريد أن أفكر على غراره".

كان بيار قد نهض وذهب ليضع المجموعة فى سلة الأوراق، وتمتمت: "مثلك أريد أن أفكر" كان يمشى بخطى ضئيلة، على رءوس أصابعه وهو يقرب ذراعيه من جانبيه لكى يحتل أقل مكان ممكن. وعاد إلى الجلوس ونظر إلى إيفا بوجه مطبق.

وقال:

- "ينبغى وضع سجادات سوداء فوق الجدران، فليس فى هذه الغرفة ما يكفى من السواد".

كان قد ارتاح على الأريكة ونظرت إيفا بحزن إلى هذا الجسد الشحيح، المستعد دائما للانسحاب والانكفاء على نفسه: فذراعاه وساقاه ورأسه كانت تبدو

كأعضاء قابلة للانكماش. ودقت الساعة السادسة على الجدار، وسكت صوت البيانو وتنهدت إيفا:

لن تأتى التماثيل فى الحال، كان ينبغى انتظارها.

ـ "هل تريد أن أضىء النور".

كانت تفضل ألا تنتظر التماثيل فى الظلام. فقال بيار:

ـ "افعلى ما شئت".

وأضاءت إيفا مصباح المكتب الصغير، فاجتاح الغرفة ضباب أحمر. كان بيار أيضا ينتظر.

لم يكن يتحدث، بل إن شفتيه بتحركهما ترسمان بقعتين مظلمتين فى الضباب الأحمر. إنها تحب شفتى بيار. فقد كانتا فى الماضى مثيرتين مغريتين. إلا أنهما فقدتا إغراءهما. إذ تنفصل إحداهما عن الأخرى بارتعاش قليل ثم تعود للالتحام مع رفيقتها، فتنسحق إحداهما على الأخرى لتعودا فتنفصلان من جديد. فهما تعيشان وحيدتين فى هذا الوجه المسور وكأنهما حيوانان وجلان. كان بإمكان بيار أن يجعل شفتيه ترقصان طيلة ساعات بدون أن يخرج من فمه أى صوت، ولطالما انبهرت إيفا بتلك الحركة المستمرة. "أحب فمه". لم يعد يقبلها أبدا. إذ بات يخشى الملامسة. فى الليل كان يلامس أيدى رجال قاسية جافة تلتقطه فى أنحاء جسمه. وأيدى نساء ذات أظافر طويلة تقوم بدغدغته بقذارة. غالبا ما كان ينام بثيابه، لكن يديه تنزلقان تحت ثيابه وتشدان على قميصه. وذات مرة، سمع ضحكة، شفتان منتفختان تلتصقان بشفتيه. ومنذ تلك الليلة انقطع عن تقبيل إيفا.

وقال بيار:

ـ "أجاتا، لا تنظرى إلى فمى! "

وأخفضت إيفا عينيها. وتابع بوقاحة:

ـ "أنا لا أجهل أن بالإمكان تعلم قراءة ما على الشفتين".

كانت يده ترتجف على ذراع الكنبة. ومد سبابته ونقر على الإبهام ثلاث مرات وتشنجت الأصابع الأخرى: كانت عملية مطاردة. وفكرت في نفسها: "ها هو يبدأ". كان بودها أن تأخذ بيار بين ذراعيها.

بدأ بيار بالكلام بالصوت العالي وبلهجة لائقة:

- "هل تذكرين سان بولي؟"

لا إجابة. لعل هذا فخ. وقال بوجه مسرور:

- هناك عرفتك. اختطفتك من بحار دانمركي. كدنا نتقاتل، لكنني دفعت ثمن الرحلة وتركني أصطحبك. لم يكن كل ذلك إلا مهزلة.

"إنه يكذب، إنه لا يعتقد في أي كلمة يقولها. يعرف أني لا أدعي أجاثا. إني أكرهه حين يكذب". لكنها رأت عينيه الجامدتين وتبدد غضبها وفكرت في نفسها: إنه لا يكذب، إنه متعب. يحس بأنهم يقتربون. ويتحدث كيلا يسمع". وتعلق بيار بكلتا يديه بذراع الأريكة. كان وجهه شاحبا وهو يبتسم. وقال:

- هذه اللقاءات غريبة أكثر الأحيان، لكني لا أؤمن بالصدفة.

أنا لا أسألك عمن أرسلك، فأنا أعرف أنك لن تجيبي. لقد كنت على كل حال لبقة إلى حد أنك لطختني.

كان يتحدث بإعياء، وبصوت حاد مضغوط. فهناك كلمات لم يستطع أن يلفظها فتخرج من فمه كمادة رخوة لا شكل لها.

لقد جذبتني في غمرة العيد، في ميادين السيارات السوداء، ولكن من وراء السيارات جيشا من العيون الحمراء التي كانت تظهر بريقا عندما أدير ظهري. أظن أنك كنت تعطيهم الإشارات. وأنت تتعلقين بذراعي، لكنني لم أر شيئا. كنت مأخوذا جدا باحتفالات التتويج الكبرى.

كان ينظر قبالته جاحظ العينين. ومر بيده على جبينه بسرعة فائقة وبحركة رشيقة ودون أن يكف عن الكلام، لم يكن يريد الكف عن الكلام. وقال بصوت حاد:

ـ كانت حفلة تتويج الجمهورية، مشهداً مثيراً فى نوعه بسبب الحيوانات المختلفة الأجناس التى أرسلتها المستعمرات من أجل الاحتفال. وخفت أن تضيعى بين القردة. وتابع بصوت ملؤه الغطرسة، وهو ينظر حوله:

ـ قلت بين القردة وبإمكانى أن أقول بين الزنوج؟ فالحيوانات البغيضة التى تزحف تحت الموائد وتظن أنها ستمضى بغير أن يراها أحد يكتشفها "نظرى" ويقضى عليها فى الحال. وصاح:

ـ الأمر هو السكوت. السكوت. الجميع فى مكانهم وحذارى من دخول التماثيل، هذا هو النظام. ترالالا ـ كان يعوى ويضع يديه معا أمام فمه ـ ترالالا، ترالالا.

وسكت، وعلمت إيفا أن التماثيل قد دخلت الغرفة. فجلس جامدا شاحبا باحتقار. وجمدت إيفا هى الأخرى وانتظر الاثنان بصمت.

كان أحد الأشخاص يمشى فى الممر. إنها مارى، الخادمة، ها هى تصل بلا شك. وفكرت فى نفسها: "ينبغى أن أعطيها دراهم للغاز". ومن ثم بدأت التماثيل تطير فتمر ما بين إيفا وبيار.

وقال بيار: "هه " وتكور فى كنبته مخبئا ساقيه تحته. وحول رأسه. كان يهذى من وقت لآخر لكن نقاطا من العرق كانت تتلألأ على جبينه: لم تستطع إيفا أن تحتمل هذا الخد الشاحب، وهذا الفم الذى يشوهه تحريكه شذرا.

وأغمضت عينيها. بدأت خيوط مذهبة تتراقص فى قعر جفنيها الأحمر. وأحست بأنها عجوز كبيرة الوزن. وعلى مسافة غير بعيدة، كان بيار ينفخ بجلبة.

"إنهم يطيرون، يهدرون، يتنحنحون فوقه..." وشعرت بدغدغة خفيفة، وبانزعاج فى الكتف والخاصرة اليمنى.

وبحركة غريزية انحنى جسمها نحو اليسار كما لو أنها تتجنب ملامسة مزعجة، أو كأنها تفسح المجال لشىء ثقيل أخرق.

وفجأة قرقع السقف، وأحست برغبة مجنونة فى فتح عينيها، والنظر إلى يمينها وهى تكنس الهواء بيدها.

ولم تفعل شيئا. بل أبقت على عينيها مغمضتين وارتعشت فى سرور جاف. وفكرت فى نفسها: "أنا أيضا أخاف" فكل حياتها كانت تلجأ إلى جانبها الأيمن. وانحنت نحو بيار، بدون أن تفتح عينيها إذ يكفيها مجهود بسيط حتى تدخل فى هذا العالم الرهيب لأول مرة. وفكرت فى نفسها: "أنا أخشى التماثيل". كان تأكيدا عنيفا أعمى أو ساحرا: أرادت بكل قواها أن تشعر بوجودهم، والقلق الذى يشل جهتها اليمنى، حاولت أن تجعل منه معنى جديدا، نوعا من اللمس. وفى ذراعها، وفى خاصرتها، وفى كتفها، شعرت بمرورهم .

كانت التماثيل تطير ببطء على ارتفاع ضئيل، وتهدر. وإيفا تعلم أن تلك التماثيل خبيثة ولكنها أساءت تصورها. وتعلم أيضا أنها لم تكن حية تماما، بل إن قطعا من اللحم والقشر تظهر على أجسامها الضخمة. وعلى طرف أناملها كان الحجر يتقشر، وراحات أيديها تأكلها. لم تكن إيفا تستطيع أن ترى كل هذا: فهى تفكر فقط أن نساء شديدات الضخامة ينزلقن عليها بعين إنسانية وبالعناد والصلب للحجارة "ها هى التماثيل تنحنى فوق بيار" وبذلت إيفا مجهودا عنيفا إلى حد أن يديها أخذتا ترتعشان. "إنها (التماثيل) تنحنى فوقى". وجمدها فى النهاية صوت رهيب. "لقد لامسوه". وفتحت عينيها: كان بيار يضع رأسه بين يديه، وهو شديد الإعياء. وأحست إيفا بأنها منهكة، وفكرت بندم:

"لم تكن سوى لعبة. لم تكن سوى لعبة، لم أؤمن بها ولو للحظة واحدة. وطوال هذا الوقت كان يتألم حقا".

وارتاح بيار وتنهد بقوة. ولكن حدقتيه ظلتا ممددتين بشكل غريب، كان العرق يتصبب منه. و سأل:

ـ هل رأيتها؟

ـ ليس بإمكانى أن أراها.

فقال:

ـ "هذا أفضل بالنسبة إليك. فهى قد تخيفك. أما أنا فقد تعودت".

كانت يدا إيفا لا تزالان ترتجفان، ودمها يتصاعد إلى الرأس.

وتناول بيار سيجارة من جيبه ورفعها إلى فمه. لكنه لم يشعلها وقال:

- "لا يهمنى أن أراها. ولكن لا أريد أن تلامسنى: أخشى أن تنبت لى بثورا".

وفكر لحظة ثم سأل:

- "وهل سمعتها؟".

فقالت إيفا:

- نعم، إنها كمحرك الطائرة (قالها لها بالعبارة نفسها يوم الأحد الماضى).

وابتسم بيار بنوع من التنازل وقال:

- إنك تبالغين. لكنه ظل شاحب الوجه. وتطلع إلى أيدى إيفا:

- يداك ترتجفان. لقد أثر هذا فى نفسك يا أجاتا المسكينة. ولكن لا حاجة لك لإفساد دمك: فلن تعود قبل الغد (التماثيل)".

لم تكن إيفا تستطيع الكلام، كانت أسنانها تصطك وتخشى أن يلاحظ بيار ذلك. ونظر إليها بيار طويلا. وقال وهو يومئ برأسه:

- "أنت فائقة الجمال، يا للخسارة، يا للخسارة حقا".

ومد يده ولامس أذنها بسرعة.

- يا شيطانتى الجميلة! إنك تزعجيننى قليلا، أنت جميلة جدا، وهذا ما يسلينى. إذا لم يكن الأمر استعادة ...

وتوقف ثم نظر إلى إيفا بدهشة وقال وهو يبتسم بوجه غامض:

- "ليس بهذه الكلمة... ها قد أتت... ها قد أتت. كانت عندى الكلمة الأخرى على حافة لسانى... وتلك... حلت مكانها.

ونسيت ما كنت أقوله لك.

وفكر لحظة ثم هز رأسه وقال:

ـ "هلمى، أريد أن أنام، وأجاب بصوت طفولى:

"هل تعرفين يا أجاتا أنا متعب. لم أعد أجد أفكارى".

ورمى سيجارته ونظر إلى السجادة بوجه مضطرب.

ووضعت إيفا له مخدة تحت رأسه.

فقال لها وهو يغمض عينيه:

"بإمكانك أن تنامى أيضا، فلن تعود بعد".

"استعادة". كان بيار نائما، على وجهه نصف ابتسامة ساذجة. وكان يحنى رأسه: يقال إنه يريد أن يجعل خده يلامس كتفه. لم تكن إيفا راغبة فى النوم، كانت تفكر "استعادة".

واتخذ بيار فجأة شكلا حيوانيا وسالت الكلمة خارج فمه طويلة مائلة للبياض. كان قد تطلع أمامه بدهشة كما لو أنه يرى الكلمة ولا يتعرف عليها. فمه مفتوح رخو فكأن شيئا قد تحطم فيه.

"لقد دندن بسرعة. هى المرة الأولى التى يحدث له فيها أمر كهذا، وقد انتبه لذلك على كل حال. فقال إنه لم يعد يجد أفكارا".

أرسل بيار زفرة شهوانية، وقامت يده بحركة خفيفة. نظرت إليه إيفا بقساوة: "كيف سيستيقظ؟" كان هذا يعذبها. فما إن ينام بيار حتى تضطر للتفكير به، وليس بإمكانها أن تحول دون ذلك. إنها تخشى أن يستيقظ بعينين مضطربتين وأن يدندن. وفكرت فى نفسها: "أنا بلهاء، فلن يحدث ذلك قبل عام هكذا قال فرانشو".

لكن القلق لم يغادرها، عام، فشتاء، فربيع، فصيف، فبداية خريف آخر. ذات يوم، ستتشوه هذه الملامح، سيتهدل فكه، وسيفتح عينيه الدامعتين قليلا. وانحنت إيفا على يد بيار ووضعت شفتيها فوقها: "سأقتلك قبل أن يحدث ذلك".

إروسترات

البشر ينبغى أن نراهم من فوق. كنت أطفئ النور وأجلس فى النافذة: لم يكونوا ليشكوا بأن أحدا ينظر إليهم من فوق. هم يعتنون بالواجهة، وأحيانا بالجهات الخلفية، ولكن الجميع تأثراتهم كانت محسوبة بعين المشاهدين بارتفاع متر وسبعين سنتيمترًا. فمن فكر إذا بشكل القبعة الصفراء، كما تبدو من الطابق السادس؟ إنهم يهملون الدفاع عن أكتافهم وجماجمهم تحت الألوان الفاقعة والأقمشة البارزة اللون، ليس بإمكانهم أن يقضوا على كل هذا العدد الكبير للإنسانية: التطلع من فوق. وانحنيت وأخذت أضحك: أين هى تلك "المحطة الواقفة "التى كانوا يفخرون بها: كانوا يسحقون على الرصيف وتخرج من بين أرجلهم سيقان طويلة تزحف تحت أكتافهم.

فى شرفة الطابق السادس: هناك كان ينبغى أن أقضى كل حياتى.

كما ينبغى أن نسند مجالات التفوق المعنوى برموز مادية، وإلا ستسقط إذا، ما هى بالضبط مجالات تفوقى على البشر؟ تفوق فى الوضعية ليس إلا: وضعت نفسى فوق الإنسان الذى هو فى داخلى وأخذت أتأمله. لهذا كنت أحب أبراج نوتردام، وقواعد برج إيفل، والقلب المقدس، وطابقى السادس فى شارع دلامبر. إنها رموز رائعة.

كان ينبغى فى بعض الأحيان النزول إلى الشوارع للذهاب إلى المكتب مثلا. كنت أختنق. عندما نمضى مع البشر، فمن الصعب كثيرا أن نعتبرهم كالنمل:

إنهم مؤثرون. ذات مرة، شاهدت شخصا ميتا فى الشارع. سقط على أنفه، قلبوه، فرأوا الدماء تنزف منه. ورأيت عينيه المفتوحتين ووجهه الدميم، وكل هذا الدم. وقلت فى نفسى: "ليس هذا بذى شأن، فليس أكثر تأثيرا من الدهان الجديد. لطخوا أنفه بالأحمر، هذا كل شىء". لكننى أحسست بعذوبة قذرة تتسرب إلى ساقى ورقبتى، ففقدت الوعى. اقتادونى إلى صيدلية، ووضعوا لصقات على كتفى وأسقونى كحولا. كنت سأقتلهم.

أعرف أنهم أعدائى، ولكنهم لا يعرفون ذلك. كانوا يحبون بعضهم، ويشدون على مرافق بعضهم بعضًا. لعلهم ضربونى بقبضة يد من هنا وهناك لأنهم ظنوا بأنى شبيه لهم. غير أنهم لو أدركوا أقل جزء من الحقيقة، لقضوا علىّ. ولقد قضوا علىّ فيما بعد على كل حال. عندما ألقوا القبض علىّ وعرفوا من أنا، أوسعونى لكما وضربونى لمدة ساعتين فى دائرة الشرطة، وصفعونى ولكمونى، وجعلوا ذراعى تلتوى، وانتزعوا سروالى، ومن ثم ولكى ينتهوا ألقوا بنظارتى على الأرض، ولما هممت بتناولها على أربع، أمعنوا بركلى من الخلف ضاحكين. توقعت دائما أنهم سينتهون إلى القضاء علىّ: أنا لست قويا وليس بإمكانى أن أدافع عن نفسى. كثيرون كانوا يتربصون بى منذ وقت طويل: الكبار. يدفعوننى فى الشوارع ليضحكوا أو ليروا ما سأقوم به، لم أقل شيئا. وتظاهرت بعدم الفهم ومع ذلك نالوا منى. كنت أخاف منهم: وهذا شعور مسبق. وكلكم تعتقدون تمام الاعتقاد أن لدى أسبابا أخرى أكثر جدية تدفعنى إلى أن أكرههم.

من هذه الجهة، سار كل شىء على ما يرام إلى أن جاء اليوم الذى اشتريت فيه مسدسا. يحس المرء بقوته عندما يحمل باستمرار شيئا من تلك الأشياء التى تنفجر أو تحدث ضجة. كنت أحمله يوم الأحد، وأضعه فى جيب سروالى ثم أذهب لأتنزه ـ عادة فى الشوارع العريضة. فأحس به ينطلق من جيب سروالى كالسرطان، وأشعر به يضغط على فخذى، ببرود كلى لكنه يسخن شيئا فشيئا باحتكاكه بجسدى. وكنت أسير بنوع من الجمود، مشية الشخص الذى يشد سرواله دائما. ومددت يدى إلى جيبى وتحسست الغرض. كنت أدخل من وقت لآخر إلى المرحاض ـ وحتى فى المرحاض كنت أتنبه فغالبا ما يكون بجوارى أحد

من الناس. كنت أخرج مسدسى وأرجحه بيدى ثم أتطلع إلى قبضته ذات المربعات السوداء وزناده الأسود الذى يشبه جفنا شبه مغمض. والآخرون، أولئك الذين يرون من الخارج، رجلى المتباعدتين وقعر سروالى، كانوا يظنون أنى أتبول ولكننى لا أتبول على الإطلاق فى المراحيض العامة.

ذات مساء أتتنى فكرة إطلاق النار على البشر. كان ذلك فى مساء يوم السبت، خرجت لكى أبحث عن ليا، وهى شقراء تداوم على الوقوف أمام أحد الفنادق فى مونبارناس. لم أكن قد أقمت علاقات حميمة بامرأة قط: كنت سأشعر بنفسى وكأنى سرقت. صحيح أننا نعتليهن، ولكنهن يفترسنك بفمهم الواسع، فهن إذا على ما سمعت، اللائى يربحن من هذه المبادلة. أنا لا أطلب شيئا إلى أى إنسان، غير أنى لا أريد أن أعطى شيئا. أو إنه ينبغى أن تكون لى امرأة باردة تقية تقبلنى باشمئزاز.

فى أول سبت من كل شهر كنت أصعد مع ليا إلى غرفة فى فندق دوكان. كانت تخلع ثيابها، فأنظر إليها بدون أن ألمسها. فى بعض الأحيان كنت أبلغ ذروة اللذة فى سروالى، وأحيانا أخرى كان لدىّ الوقت الكافى للعودة إلى منزلى حتى أنتهى. فى ذلك المساء، لم أجدها فى مكتبها. وانتظرت لحظة، ولما لم تأت، افترضت أنها مصابة بالزكام. كان الوقت فى بداية شهر يناير والطقس شديد البرودة، حزنت كثيرا: فأنا خيالى، وتمثلت اللذة التى توقعت أن أجتلبها فى تلك الأمسية. فى شارع أوديسا كانت تقف إحدى السمراوات، وكنت قد لاحظت وجودها فى أكثر الأحيان، إنها شديدة النضوج، لكنها صلبة وممتلئة. أنا لا أكره النساء الناضجات: ولكن وهن عاريات، فإنهن يبدين كذلك أكثر من الأخريات. غير أنها لم تكن تدرى شيئا عنى، وهذا ما كان يجعلنى أخجل منها أن أفصح عن ذلك فجأة. ثم إنى أحذر الصداقات الجديدة: إذ إن بإمكان أولئك النسوة أن يخبئن لصا وراء الباب، لا يلبث أن يستولى على أموالك. هذا إن لم يوافك ببعض اللكمات. غير أن شيئا ما من الشجاعة كان يأخذنى فى تلك الأمسية فقررت أن أمر بمنزلى لأخذ المسدس وأقوم بالمغامرة.

عندما دخلت على المرأة، وبعدها بربع ساعة، كان مسدسى لا يزال فى جيبى ولم أخش شيئا. والناظر إليها من قريب يدرك أنها أقرب إلى البؤس. إنها تشبه جارتى فى البيت المقابل، أى زوجة نائب الضابط، سررت لذلك لأنى تمنيت منذ وقت طويل أن أراها عارية. كانت ترتدى ثيابها والنافذة مفتوحة فى غياب نائب الضابط، وكنت أبقى وراء الستار كى أباغتها. لكنها تقوم بزينتها فى نهاية الغرفة.

فى فندق ستيلا لم يبق سوى غرفة فارغة فى الطابق الرابع. وصعدنا. كانت امرأة ثقيلة تتوقف عند كل درجة، لتتنفس. وكنت أشعر بالارتياح لأن جسمى جاف رغم بطنى الدافق، إذ يلزمنى أربعة طوابق لأشعر بالتعب. على درج الطابق الرابع توقفت ووضعت يدها اليمنى على قلبها وتنهدت بقوة. بيدها اليسرى كانت تحمل مفتاح غرفتها.

وقالت محاولة أن تبتسم لى: "المكان شاهق".

أخذت المفتاح من يدها دون أن أجيب وفتحت الباب. كنت أحمل مسدسى بيسراى، مصوبا إلى الأمام فى جيبى، ولم أتركه إلا بعد أن أضاءت مفتاح النور. كانت الغرفة خاوية. وعلى المغسلة وضعوا مربعا صغيرا من الصابون الأخضر. وابتسمت: لم تكن قطعة الصابون مفيدة بالنسبة إلىّ. لا تزال المرأة تلهث ورائى وهذا ما يثيرنى.

واستدرت، فمدت لى شفتيها. فدفعتها عنى وقلت لها:

- "اخلعى ثيابك"

كان هناك كرسى عليه بساط مزركش فجلست عليه مرتاحا. فى مثل تلك الأحوال أندم على عدم التدخين. وخلعت المرأة فستانها ثم توقفت، وهى تنظر إلىّ نظرة حذرة.

وسألتها وأنا أرتمى إلى الوراء:

- "ما اسمك؟"

- "رينيه".

- حسنا، عجلى يا رينيه، إنى أنتظر".

- "ألا تخلع ثيابك؟"

فقلت لها:

- "اذهبى، اذهبى، لا تهتمى بى".

وأنزلت سروالها حتى رجليها ثم التقطته ووضعته بعناية فوق فستانها إلى جانب صدريتها. وسألتنى:

- "إنك مذنب صغير، يا صغيرى، وكسول صغير. هل تريد أن تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله؟"

وفى الوقت نفسه، اقتربت منى خطوة، وحاولت، وهى تسند يديها على جانبى المقعد، أن تركع بين فخذى، غير أنى رفعتها بقسوة. وقلت:

- "لا أريد شيئا من هذا، لا أريد شيئا من هذا".

فنظرت إلىّ بدهشة:

- "ماذا تريد أن أفعل لك؟"

- "لا شىء، سيرى، تنقلى، ابتعدى لا أطلب منك أكثر من ذلك".

وبدأت تسير طولا وعرضا، بوجه العاجز. لا شىء يزعج النساء قدر سيرهن عاريات. فلم يألفن وضع أرجلهن على الأرض. وقوست البغى ظهرها وجعلت ذراعيها يتهدلان. أما أنا فقد كدت أطير فرحا: كنت هناك، أجلس بهدوء، مرتديا ملابسى حتى العنق، ولا أزال واضعا قفازى، بينما راحت تلك المرأة الناضجة تدور حولى، عارية.

وأدارت رأسها نحوى، وابتسمت لى برقة لإنقاذ المظاهر.

- "هل تجدنى جميلة؟ هل تمتع ناظريك؟"

- "لا تهتمى بهذا"

فسألتنى بغضب مباغت:

- "قل، هل تنوى أن تجعلنى أمشى كثيرا هكذا؟"

- "اجلسى"

جلست على السرير، وبدأنا نتبادل النظر بصمت. اقشعر بدنها. وسمعنا صوت المنبه من جانب الجدار الآخر، وفجأة قلت لها:

- "باعدى بين فخذيك".

فترددت لربع ثانية ثم انصاعت. فنظرت بين فخذيها وأصدرت شخيرا. ثم بدأت أضحك بقوة حتى سالت الدموع من عينى.

وقلت لها ببساطة:

- "هل لاحظت؟"

وتابعت الضحك. فنظرت إلىّ مشدوهة ثم احمرت كثيرا وضمت فخذيها وقالت من بين أسنانها:

- "يا للقذر".

لكننى استرسلت بالضحك، عندها قفزت وراحت تأخذ صدريتها من على الكرسى. فقلت لها:

- "هه، لم أنته بعد. سأدفع لك خمسين فرنكا فى الحال، لكنى أريد مقابل دراهمى".

وتناولت سروالها بعصبية.

- "ضقت ذرعا، هل تفهم. لا أعرف ماذا تريد. وإذا كنت جعلتنى أصعد لتهزأ منى..." عندها أخرجت مسدسى وأظهرته لها. فتطلعت إلىّ بوجه رصين وأنزلت سروالها دون أن تنبس بشفة.

فقلت لها:

-"سيرى ، تنقلى".

وتمشت خمس دقائق. ثم أعطيتها عصاى وجعلتها تقوم بالتمرين. ولما شعرت بأن سروالى تبلل، نهضت وناولتها ورقة الخمسين فرنكا. فأخذتها. وأضفت:

- "إلى اللقاء، عساى لم أتعبك مقابل هذا الثمن".

و ذهبت، وتركتها عارية وسط الغرفة، صدريتها بيد، وورقة الخمسين فرنكا فى اليد الأخرى. لم آسف على دراهمى: لقد أفزعتها وهذا ليس عجيبا، إنها بغى وفكرت وأنا أنزل الدرج:

- "هذا كل ما أردته، أن أدهشهم جميعا. كنت سعيدا كالطفل.

وحملت قطعة الصابون وعدت إلى بيتى وفركته كثيرا تحت الماء الساخن حتى تحول إلى قطعة رقيقة بين أصابعى تشبه حبة الملبس بالنعناع، إذا وضعت فى الفم وقتا طويلا.

ولكن فى الليل، استيقظت مذعورا، ورأيت عينيها، تلك النظرة التى رسمتها لما أشهرت سلاحى، وكذلك بطنها السمين الذى كان يقفز عند كل خطوة. وقلت فى نفسى: كم كنت متوحشا"

وأحسست بندم أليم: كان علىّ أن أطلق النار عندئذ، أن أبقر هذا البطن. فى تلك الليلة ولثلاث ليال متتابعة حلمت بستة ثقوب حمراء متجمعة على شكل دائرة حول السرة.

بعد ذلك لم أعد أخرج دون مسدسى. كنت أنظر إلى ظهور الناس وأتصور كيف سيسقطون فيما لو أطلقت. يوم الأحد، تعودت على الذهاب والوقوف أمام الشاتليه، عند انتهاء حفلات الموسيقى الكلاسيكية. وفى نحو الساعة السادسة، كنت أسمع رنين جرس فتأتى الحاجبات لإقفال الأبواب المزججة بإحكام. كانت تلك هى البداية: الجمهور يخرج على مهل، والناس يسيرون بخطى متهدجة، أعينهم لا تزال الأحلام تغمرها، وقلوبهم مفعمة بالعواطف. كثيرون منهم كانوا

يتطلعون حولهم بوجه مندهش. لقد بدا لهم الشارع أزرق تماما. عندها، كانوا يبتسمون بغرابة: إذ ينتقلون من عالم إلى آخر وفى العالم الآخر كنت أنا بانتظارهم. وضعت يدى اليمنى فى جيبى وضغطت بكل قواى على قبضة مسدسى. وما هى إلا هنيهة، حتى رأيتنى أطلق النار عليهم فيتدحرجون مثل الأنابيب، ويسقطون الواحد فوق الآخر والذين ظلوا على قيد الحياة استبد بهم الذعر، ففروا إلى المسرح يحطمون الزجاج والأبواب. كانت لعبة شديدة الإزعاج: فيداى كانتا ترتجفان، كما ألفيتنى مرغما على احتساء الكونياك عند دراهير لأعود إلى صوابى.

النساء لم أقتلهن. بل أطلقت النار على كلياتهن وفى مؤخراتهن لأدفعهن إلى الرقص..

لم أكن قد صممت على شىء ولكننى ارتأيت أن أفعل كل شىء كما لو أن قرارى توقف وبدأت فى حل بعض التفاصيل الجانبية، ثم ذهبت لأتمرن فى سوق (دانفر روشرو). لم تكن أهدافى شهيرة ولكن الرجال يقدمون أهدافا أوسع خاصة عندما نطلق عن كثب و أخيرا بت أهتم بدعايتى. اخترت يوما كان فيه جميع أقرانى مجتمعين فى المكتب. صباح يوم الإثنين. كنت لطيفا جدا معهم، رغم أنى أجد رهبة فى مصافحتهم باليد. كانوا ينزعون قفازاتهم ليصافحوا الناس، ولهم طريقة خاصة فى تعرية أيديهم ورفع قفازتهم ونزعها بخفة من على أصابعهم لكشف راحة أيديهم الغليظة والمجعدة. أما أنا فكنت أحتفظ بقفازى.

صباح الإثنين، ليس هناك من شىء مهم يجب عمله. فقد أتت الضاربة على الآلة الكاتبة بالأوراق. ومازحها لومارسييه بلطف وما إن خرجت حتى تحدثوا عن مفاتنها بلباقة. ثم تحدثوا عن لندنبرغ. كان يحبون لندنبرغ كثيرا. فقلت لهم:

ـ "أنا أحب الأبطال السود".

فسأل ماسيه:

ـ "الزنوج؟"

- "كلا، الزنوج ، كما يقال السحر الأسود. ولندنبرغ هو بطل أبيض. فهو لا يهمني".

وقال بوكسان بخشونة:

- "اذهبوا وانظروا إذا كان عبور الأطلسي ممكنا"..

وعرضت لهم مفهومي عن البطل الأسود.

وقال لومارسييه مختصرا:

- "إنه فوضوي".

فقلت بهدوء:

- "كلا، إن الفوضويين يحبون الرجال على طريقتهم الخاصة".

- "إذا فهو مجنون".

ولكن ماسيه الذي كانت بين يديه رسائل، تدخل في تلك اللحظة، وقال لي:

- "إني أعرفه هذا النموذج، واسمه إروسترات. كان يريد أن يصبح عظيما ولم يجد شيئا أفضل من إحراق معبد إيفاز، إحدى عجائب الدنيا السبع".

- "وما كان اسم مهندس المعبد؟"

فاعترف قائلا:

- "لم أعد أتذكر، بل أعتقد بأن لا أحد يعرف اسمه".

- حقا؟ وتتذكر اسم إروسترات؟ هل ترى أنه لم يجر حسابا خاطئا مثل هذا.

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات، لكنني كنت مطمئنا، فسيذكرونها في اللحظة المناسبة، أما بالنسبة لي، ولم أكن حتى ذلك الحين، قد سمعت بإروسترات، فقد شجعتني قصته. ها قد مضت ألفا سنة على وفاته، وفعلته لا تزال تشع، كالماسة السوداء. وبدأت أعتقد بأن مصيري سيكون قصيرا ومؤلما.

وهذا ما جعلنى أخاف فى البداية، ثم ألفت ذلك. فإذا اعتبر هذا الأمر من زاوية معينة، فهو شديد العنف، لكنه، من جهة ثانية، يعطى قوة وجمالا لا يستهان بهما. وعندما كنت أنزل إلى الشارع، كنت أشعر أن فى جسمى قوة غريبة. كنت أحمل مسدسى، ذلك الشىء الذى ينفجر ويحدث ضجيجا، لكننى لم أعد أحصل على الأمان منه، بل من نفسى! فقد كنت كائنا من نوع المسدسات والمفرقعات والقنابل. وأنا أيضا ذات يوم فى نهاية حياتى القاتمة، سأنفجر وأضىء العالم بلهيب ساطع قصير، كبريق الماغنسيوم. وحدث لى فى الحقبة نفسها أن رأيت الحلم نفسه فى عدة ليال. كنت فوضويا، وألقيت بنفسى فى طريق القيصر وحملت معى آلة تفجير. وفى الساعة المحددة، مر الموكب وانفجرت القنبلة وقفزنا فى الهواء، أنا والقيصر والضباط الثلاثة الموشون بالذهب، تحت أعين الجمهور.

بقيت أسابيع كاملة لا أداوم فى المكتب. كنت أتنزه فى الشوارع الكبيرة، وسط ضحاياى فى المستقبل، أو كنت أنعزل فى غرفتى وأعد الخطط. طردونى فى بداية شهر أكتوبر. فملأت فراغى إذ سجلت الرسالة التالية وصورت منها مائة نسخة واثنتين.

سيدى، أنت شهير، تطبع مؤلفاتك على ثلاثين ألف نسخة. سأقول لك لماذا: لأنك تحب البشر، فالإنسانية فى دمك: وهذا من حسن حظك أنك تتفتح عندما تكون بصحبة أحد: فما إن ترى واحدا من أشباهك وحتى دون أن تعرفه تشعر بالمودة تجاهه. وأنت تميل لمشاهدة جسمه، من أجل هيئته التى وجد عليها، ومن أجل ساقيه اللتين تنفرجان وتنضمان تبعا لإرادته، ولا سيما ليديه: إذ يعجبك أن يكون له خمسة أصابع، وأن يستطيع مقابلة الإبهام بسائر أصابعه. تسر كثيرا عندما يتناول جارك كأسا من على الطاولة، لأن هناك طريقة وصفتها أكثر الأحيان فى مؤلفاتك، وهى أقل مرونة و سرعة من طريقة القرد. ولكن أليس إنها أكثر ذكاء؟ أنت تحب أيضا لحم الإنسان، وهيئته فى مشيته، كجريح كبير أثناء إعادة تأهيله، وميله إلى إعادة ابتكار السير فى كل خطوة ونظرته التى لا تستطيع الوحوش احتمالها. يسهل عليك إذا أن تجد اللهجة الملائمة لتحدث الإنسان عن

نفسه: لهجة متشائمة لكنها مشتتة. ويرتمى الناس على كتبك بنهم، يقرأونها على مقاعد وثيرة، ويفكرون بالحب التعيس والخفى الذى تخبئه لهم، وهذا ما يعزيهم عن أشياء كثيرة كأن يكونوا قبيحين أو يكونوا جبناء أو يكونوا مخدوعين أو لم يتلقوا زيادة فى أول شهر يناير. ويقولون مختارين عن روايتك الأخيرة: إنها عمل جيد.

كما أفترض بأنه يهمك أن تعرف ما يمكن أن يكون الإنسان الذى لا يحب البشر. إنه أنا، أحبهم حبا ضئيلا جدا حتى إننى فى الحال سوف أقتل منهم نصف دستة فقط، وقد تتساءل: لماذا نصف دستة فقط؟ لأن فى مسدسى ست رصاصات فقط. إنه لعمل إجرامي أليس كذلك؟ وهو بالأخص عمل غير سياسى إطلاقا؟ ولكننى أقول لك إنه ليس بإمكانى أن أحبهم. أنا أفهم تماما ما تشعر به. لكن ما يجذبك إليهم يثير اشمئزازى فقد رأيت مثلك البشر يمضغون العلكة بمقدار، محافظين على نظرتهم الوقحة، وهم يقلبون باليد اليسرى مجلة اقتصادية. هل هى غلطتى إذا كنت أفضل حضور وليمة الحيوانات القطبية؟ ليس بإمكان الإنسان أن يفعل شيئا لوجهه بدون أن يتحول هذا إلى تلاعب فى ملامحه.

وعندما يمضغ وهو مطبق فمه، فترتفع زوايا فمه وتنخفض، يبدو أنه يريد الانتقال بلا تأخر من الصفاء إلى المفاجأة المبكية. أنت تحب هذا، وأنا أعرف ذلك، فأنت تسميه نباهة الروح. لكن هذا يقتلنى. ولا أدرى لماذا، لقد خلقت هكذا.

فإذا لم يكن بيننا سوى فارق فى الذوق، فلن أتعبك. لكن كل شىء يجرى كما لو أن لك الرحمة، وأنا لا أنوى على شىء. أنا حر فى أن أحب الطبق الأمريكي أو ألا أحبه، ولكننى لا أحب البشر، أنا بائس وليس بإمكانى أن أجد مكانا تحت الشمس. لقد أرهقوا معنى الحياة. آمل أن تفهم ما أريد أن أقوله. ها قد مرت ثلاثون سنة وأنا أصطدم بأبواب مغلقة كتب فوقها: "لا يدخل أحد ما لم يكن إنسانى النزعة". وكل ما فعلته هو أننى هجرت المكان. كان ينبغى أن أختار: إما إنها كانت محاولة مجنونة، أو أنه ينبغى أن تنقلب إن عاجلا أو آجلا لمصلحتهم.

والأفكار التى لم أكرسها لهم، ليس بإمكانى أن أنتزعها من نفسى، وأن أصوغها: فستظل فىّ كحركات عضوية خفيفة. والأدوات التى كنت أستعملها، أحس بأنها لهم. الكلمات مثلا: وددت لو أن لى كلمات. لكن هذه الكلمات التى أستعملها، لا أدرى عبر أى من العقول انتقلت. فهى تترتب فى رأسى من تلقاء ذاتها بفضل عادات اكتسبتها عند الآخرين، وليس استعمالى لها خلوا من الاشمئزاز. لكننى أقول لك، ولآخر مرة: يجب أن نحب البشر. أو إذا ما كانوا يسمحون لك باتخاذ أية صنعة. فأنا لا أريد أن أقوم بأية صنعة. سأتناول مسدسى فى الحال، سأنزل إلى الشارع وسأرى إذا كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئا ضدهم. وداعا يا سيدى قد تكون أنت الذى سأصادفك. لن تعرف عندئذ بأى سرور سأطير دماغك. وإلا وهذا مرجح، فاقرأ صحف الغد. فسترى أن شخصا يدعى بول هلبير صرع فى ثورة غضبه خمسة من المارة فى جادة إدجار كينيه. وأنت تعرف أفضل من أى شخص آخر ما قيمة النثر الذى تكتبه الصحف اليومية الكبرى. ستعرف عندئذ بأنى لم أكن فى "ثورة غضب" بل أنا هادئ وأرجوك أن تقبل يا سيدى خالص تحياتى.

"بول هربير"

وضعت الرسائل فى مائة مظروف واثنين، وكتبت على المظروف عنوان مائة واثنين من الكتاب الفرنسيين. ثم وضعت الكل فى درج الطاولة مع ستة دفاتر من طوابع البريد.

طيلة الأيام الخمسة عشر التالية، نادرا ما كنت أغادر البيت، إذ كنت أتلهى بهدوء بجريمتى وفى المرآة التى كنت أتطلع من خلالها إلى نفسى، كنت ألاحظ بسرور التعديل الذى طرأ على وجهى، لقد اتسعت عيناى، حتى كادتا تقضيان على معظم وجهى بسوادها الرقيق البادى من تحت النظارة، كنت أديرهما كالكواكب. عيون جميلة وكأنها لفنان أو لقاتل. غير أنى رغبت فى التبدل كثيرا بعد . تمام المجزرة. لقد رأيت صورة تلك الفتاتين الجميلتين تلك الخادمتين اللتين قتلتا مخدوميهما. رأيت صورهما قبل وبعد. قبل، كان وجههما يتأرجحان

كالزهور العاقلة فوق ياقة من نسيج قطنى. كما كانتا ترفلان بالصحة والشرف. لست أدرى ألة آلة جعدت شعريهما. وكانتا لشدة الشبه بينهما تبدوان كالأختين عند المصور، الأمر الذى يضع صلات الدم والجذور الطبيعية والعائلية فى المقام الأول. وبعد، كان وجههما يشتعلان كالحريق. وتعرت عنقهما وكأنهما سائرتان إلى الشنق وغزتهما التجاعيد، تجاعيد مخيفة من الرهبة والكراهية، تجاعيد، وثقوب فى اللحم كما لو أن وحشا من الوحوش قد دار بأظافره فوق وجههما.

وهاتان العينان، هاتان العينان الواسعتان السوداوان اللتان لا قرار لهما، هما كعينى. على أنهما لم تعودا تتشابهان. إذ باتت كل منهما تحمل ذكرى الجريمة على طريقتها الخاصة. وقلت فى نفسى: "إذا كانت الجريمة التى ارتكبت بالصدفة من شأنها أن تشوه الوجه هكذا، فكيف لجريمة مقصودة ومدبرة قمت بها؟" ستستولى علىّ، وتشوه دمامتى الإنسانية... الجريمة تقطع حياة مرتكبها إلى شطرين. تمر لحظات نتمنى فيها العودة إلى الوراء فإذا بالجريمة تقف فى الطريق تسده. لم أكن أطلب سوى ساعة واحدة لأعيش جريمتى وأشعر بعبئها القاتل. فى هذه الساعة، سأرتب كل شىء لآخذها لنفسى: قررت أن أقوم بالتنفيذ فى شارع أوديسا. سأستفيد من الزحام لأفر تاركا إياهم ورائى يجمعون الأموات. سأركض، سأعبر شارع إدجار ـ كينيه وأتجه سريعا فى شارع دولامبر. لن أحتاج لأكثر من ثلاثين ثانية كى أبلغ باب البناية التى أسكن فيها، وفى هذه اللحظة، يكون من يطاردنى لا يزال فى شارع إدجار كينيه، فيفقدون إثرى، إذ تلزمهم ساعة على الأقل حتى يجدوه. سأنتظرهم فى بيتى، وعندما أسمعهم يطرقون الباب، سأحشو مسدسى وأطلق النار فى فمى.

كانت حياتى أوسع مما هى عليه. تفاهمت مع صاحب مطعم فى شارع فافان كان يأتى لى بأطباق جميلة كل صباح ومساء.

ويطرق العميل الباب، فلا أفتح له، بل أنتظر عدة دقائق ثم أفتح الباب لأرى فى سلة كبيرة على الأرض، صحونا ملأى يتصاعد منها الدخان.

فى السابع والعشرين من أكتوبر، وفى السادسة مساء، كان قد بقى معى سبعة عشر فرنكا ونصف. فأخذت مسدسى ورزمة الرسائل، ونزلت. تعمدت عدم إقفال الباب، كى أتمكن من العودة بسرعة بعد أن أقوم بضربتى. لم أكن على أحسن حال، إذ إن يدىّ باردتان والدم صعد إلى رأسى، وكنت بحاجة لأفرك عينى. نظرت إلى المحلات، إلى فندق اليكول، وإلى المكتبة التى أشترى منها أقلامى فلم أتبينهم. وقلت فى نفسى: "ما هذا الشارع!" كان شارع مونبارناس يعج بالبشر، يدفعوننى إلى الأمام والوراء، ويدفعونى بمرافقهم أو بأكتافهم. كنت أتهادى ذات اليمين وذات اليسار، إذ لم تكن لدىّ قوة الانزلاق بينهم. رأيتنى فجأة وسط ذلك الجمهور، شديد الوحشة والضآلة والصغر. كم كان بإمكانهم أن يؤذوننى لو شاءوا! كنت خائفا بسبب السلاح الذى فى جيبى. فقد تهيأ لى أنهم سيكتشفون مكانه. سيتطلعون إلىّ بأعينهم القاسية وسيقولون: "ولكن .. ولكن .." بغضب يصحبه الفرح، وهم يدهسون علىّ بأرجلهم البشرية.

ما إن يقضوا علىّ كليا، حتى يلقوا بى من فوق رءوسهم، فأقع فوق أيديهم كاللعبة الصغيرة فارتأيت تأجيل مشروعى حتى الغد. وذهبت لأتناول العشاء فى الكوبول بستة عشر فرنكا وثمانين سنتا. كان قد بقى لى سبعون سنتيما ألقيت بها فى مجرى الماء.

بقيت ثلاثة أيام فى غرفتى، دون طعام أو نوم. وأغلقت النافذ ولم أعد أجرؤ على الاقتراب من النافذة أو على إضاءة المصباح. يوم الإثنين طرق بابى أحدهم. فهدأت من روعى وانتظرت وما هى سوى دقيقة حتى عادوا إلى رن الجرس. رحت على رءوس أصابعى لأنظر من ثقب الباب، فلم أر سوى قطعة قماش أسود وزر. رن الشخص الجرس ثانية ثم نزل. ولا أدرى من كان؟ فى الليل، رأيت أحلاما عذبة و أشجار نخيل، وماء جاريا، وسماء بنفسجية فوق قبة. لم أكن أشعر بالظمأ لأنى كنت أشرب ساعة بعد ساعة من حنفية المغسلة لكننى كنت أشعر بالجوع. رأيت البغى السمراء كان ذلك فى قصر قد أقمته على بعد عشرين ميلا من كل قرية. كانت السمراء عارية ووحيدة معى. أرغمتها على الركوع بقوة مسدسى، وعلى الركض على أربع. ثم ربطتها بعمود، وبعد أن شرحت لها مطولا

ما سأقوم به أمطرتها وابلا من الرصاص، أثرت فى هذه الصور إلى حد أنى قد اكتفيت بها. وبعدها بقيت جامدا فى الظلام، فارغ الرأس تماما. بدأت قطع الأثاث تقرقع. كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا. كنت أود أن أعطى أى شيء مقابل الخروج من غرفتى، ولكن لم يكن بوسعى أن أنزل بسبب الناس الذين يسيرون فى الشارع .

وجاء النهار. لم أعد أحس بالجوع، بل إن العرق صار يتصبب منى: فتبلل قميصى. فى الخارج، كانت الشمس مشرقة. عندها فكرت: "فى الغرفة المقفلة، فى الظلام يختبئ. فمنذ ثلاثة أيام لم يذق الطعام أو النوم، دق بابه ولم يفتح والآن سينزل إلى الشارع وسيقتل" . كنت أخيف نفسى فى السادسة مساء عاودنى الشعور بالجوع. كنت غاضبا حتى الجنون تعثرت لحظة بين قطع الأثاث، ثم أضاءت الكهرباء فى الغرف والمطبخ والمراحيض. وبدأت أغنى بأعلى صوتى وغسلت يدى وخرجت. كان يلزمنى دقيقتان أضع جميع رسائلى فى صندوق البريد. كنت أرميها عشرة فعشرة، فجعدت بعض المظاريف. ثم سرت فى شارع المونبارناس وحتى شارع أوديسا وتوقفت أمام المرآة فى إحدى محلات بيع القمصان، ولما لمحت وجهى فيها فكرت فى نفسى: "هذا من أجل المساء" .

تمركزت فى نهاية شارع أوديسا، ليس بعيدا عن قناة الغاز، وانتظرت. ومرت امرأتان كل منهما تمسك بذراع الأخرى، وكانت الشقراء تقول:

- "لقد وضعوا السجادات فى كل النوافذ، وكان نبلاء البلاد هم الذين يقومون بالتصوير" .

فسألتها الأخرى:

- "هل هم مفلسون؟"

- "ليس ضروريا أن يكون المرء مفلسا حتى يقبل بعمل يدر عليه خمس ليرات ذهبية فى اليوم" .

فقالت السمراء مبهورة:

- "خمس ليرات!"

وأضافت وهى تمر من أمامى:

- "ثم أتصور أنهم يتسلون بارتداء ثياب أجدادهم".

وابتعدت المرأتان. كنت أشعر بالبرد لكن العرق كان يتصبب منى بغزارة. وما هى إلا لحظة حتى أتى ثلاثة رجال، فتركتهم يعبرون إذ كان يلزمنى ستة. ونظر إلىّ من كان على اليسار وقرقع بلسانه فحولت نظرى عنه.

فى السابعة وخمس دقائق، دخلت مجموعتان تتبع إحداهما الأخرى شارع إدجار كينيه كان رجل وامرأة بصحبة ولدين فى إحدى المجموعتين. ووراءهم تأتى ثلاث سيدات مسنات. خطوت خطوة إلى الأمام. كانت المرأة غاضبة تهز الصبى من ذراعه، ويقول الرجل بصوت متهدج:

- "إنه لا يطاق، هذا الولد".

كان قلبى يخفق بقوة مما سبب لىّ ألما فى ذراعى. وتقدمت ووقفت قبالتهم لا أتحرك وأصابعى فى جيبى، كانت رخوة حول الزناد.

وقال الرجل و هو يدفعنى:

- "عفوا".

تذكرت أننى أغلقت باب غرفتى وهذا ما جعلنى متناقضا: إذ يلزمنى وقت ثمين لفتحه وابتعد الأشخاص. فغيرت رأيى فجأة وارتددت أتبعهم بصورة آلية. لكننى لم أعد أرغب فى إطلاق النار عليهم. فقد ضاعوا فى زحمة الجمهور فى الشارع. أما أنا، فاستندت إلى الجدار فسمعت الساعة الثامنة تدق، ومن ثم التاسعة. وكنت أكرر قائلا فى نفسى: "لماذا ينبغى قتل هؤلاء الأشخاص الموتى بالفعل" واعترتنى رغبة بالضحك. فجاء كلب وشم قدمى.

ولما تجاوزنى الرجل البدين، ارتعدت واحتذيته كنت أرى تجاعيد عنقه الحمراء بين قبعته وياقة سترته. كان يذهب يمينا ويسارا ويتنفس بقوة فهو يبدو

قويا. أخرجت مسدسى، كان يلمع وكان باردا، يثير اشمئزازى، لم أتذكر تماما ما كان يجب أن أفعل به. فتارة كنت أنظر إليه وتارة إلى عنق الرجل. تجاعيد عنقه كانت تضحك لى، كفم باسم مرير. وتساءلت فى نفسى إذا كنت أهم بإلقاء مسدسى فى إحدى البالوعات.

فجأة اتجه الرجل نحوى ونظر إلىّ بحنق. فتراجعت خطوة إلى الوراء. "ذلك كى... أسألك ... "

لم يبد عليه أنه يريد الاستماع. كان ينظر إلى يدى. وانتهيت بصعوبة:

"هل بإمكانك أن ترشدنى إلى شارع" جيتيه"؟

كان وجهه ضخما وشفتاه ترتجفان. لم يقل شيئا بل مد يده.

فتراجعت أكثر و قلت له:

- "أريد ..."

وفى هذه اللحظة علمت أنى سأبدأ فى الصياح. لم أكن أريد ذلك. وأطلقت عليه ثلاث رصاصات أصابت بطنه. فسقط بغباء على الأرض وأخذت رأسه تدور فوق كتفه الأيسر. وقلت له:

- "يا للقذر، يا للقذر اللعين".

وهربت. وسمعته يسعل. وسمعت أيضا صياحا ووقع خطى تتبعنى. وسأل أحدهم : "هذا، هل هما يقتتلان؟ ثم صاحوا بعد ذلك: "إلى القاتل! إلى القاتل! "لم أكن أعتقد بأن هذه الصيحات تتعلق بى. لكنها بدت مشئومة مثل صفير سيارة المطافئ التى كنت أسمعها وأنا طفل. مشئومة ومضحكة نوعا. وركضت بكل ما أوتيت ساقاى من قوة.

إلا أنى ارتكبت خطيئة لا تغتفر: فبدلا من أن أصعد شارع أوديسا نحو شارع إدجار كينيه، نزلت نحو شارع المونبارناس. وعندما أدركت ذلك، كان الوقت متأخرا: كنت وقتئذ فى وسط الجمهور، تتجه نحوى الوجوه المندهشة، (أتذكر من

بين تلك الوجوه وجه امرأة شديدة التبرج تعتمر قبعة خضراء) وأسمع أصوات السخفاء فى شارع أوديسا يصيحون: إلى القاتل وراء ظهرى. وأحسست بيد تمتد إلى كتفى، عندها أضعت رشدى: لم أكن أريد أن أموت خنقا على يد هذا الجمهور. فأطلقت أيضا عيارين ناريين. فبدأ الأشخاص يهربون ويتفرقون. فدخلت راكضا إلى أحد المقاهى. فوقف رواد المقهى عند دخولى ولكنهم لم يحاولوا إيقافى، وعبرت المقهى بطوله واعتصمت فى المغاسل. بقيت رصاصة واحدة فى مسدسى.

ومرت لحظة. كنت منهوك القوى، لاهثا. كل شىء صامت صمتا عجيبا، كما لو أن الناس تعمدوا السكوت. ورفعت سلاحى حتى عينى ورأيت ثقبه الأسود المستدير: ستنطلق الرصاصة من هنا: وسيحرق البارود وجهى. أرخيت ذراعى وانتظرت. ما هى إلا لحظة حتى وصلوا بخطى الذئاب، لابد وأن يكونوا قطيعا كاملا، على ما يتبادر إلى الذهن من وقع خطاهم. وتمتموا لحظة ثم سكتوا. أما أنا فكنت لا أزال ألهث وفكرت بأنهم سيسمعوننى وأنا ألهث، من جهة الحاجز الأخرى. اقترب أحدهم بهدوء وشد على قبضة الباب. لعله أسند ظهره للجدار جانبيا ليتقى رصاصاتى. ورغبت مع ذلك فى إطلاق النار - لكن الرصاصة الأخيرة كانت لى. وتساءلت فى نفسى:

"ماذا ينتظرون؟ فإذا انقضوا على الباب وخلعوه فى الحال فلن يتركوا لى الوقت الكافى لقتل نفسى، فسيقبضون على حيا"

لكنهم لم يستعجلوا، فقد تركوا لى فرصة كى أموت. القذرون، كانوا خائفين".

وما هى إلا لحظة حتى ارتفع صوت "هيا افتح فلن نؤذيك".

وما هى إلا لحظة صمت حتى تابع الصوت: "أنت تعرف إنه ليس بإمكانك الفرار".

لم أجب ولكننى كنت لا أزال ألهث وحتى أتشجع على إطلاق النار قلت فى نفسى: "إذا قبضوا علىّ فسيضربوننى، سيحطمون أسنانى، سيفقأون إحدى عينى"، وودت أن أعرف إذا كان الرجل البدين قد مات. لعلى جرحته فقط...

والرصاصتان التاليتان لعلهما لم تصيبا أحدا... كانوا يعدون أمرا ما، فهم يجرون شيئا ثقيلا على الأرض. أسرعت بوضع فوهة مسدسى فى فمى وعضضت عليها بقوة. غير أنى لم أستطع إطلاق النار، ولا حتى وضع إصبعى على الزناد. كل شىء عاد إلى الصمت. عندها رميت المسدس وفتحت لهم الباب.

ألفـة

كانت لولو تنام عارية لأنها تحب أن تداعب نفسها بالغطاء، ولأن الغطاء كان ثمينًا. اعترض هنرى فى البداية: فلا يجوز أن تنام عارية فى السرير، فهذا لا يمكن، بل إنها قذارة . لكنه انتهى مع ذلك إلى الحذو حذو زوجته لكن هذا كان نوعًا من المسايرة بالنسبة إليه، كان جافًا تمام الجفاف عندما يكون بين الناس، وبالنسبة للأجناس (كان معجبًا بأهل سويسرا لاسيما سكان جنيف إنه يعجب بهم لأنهم من خشب) غير أنه كان يهمل نفسه فى الأشياء البسيطة، فهو ليس شديد النظافة مثلاً، إذ لم يكن يغير سرواله كثيرًا، فحين كانت تضع لولو سراويله للتنظيف، كانت تلاحظ عليها البقع الصفراء من جراء احتكاكها بفخذيه: لم تكن لولو شخصيًا تكره القذارة: فهى تجعل الشخص أقرب إلى القلب، وهى تضفى ظلالاً عذبة بين المرافق مثلاً. فلم تكن تحب أولئك الإنجليز، تلك الأجساد غير البشرية التى ليس لها رائحة، لكنها كانت تأنف إهمال زوجها، لأنه سبيل للدلال. فى الصباح، حين يستيقظ، يكون شديد الرقة أمام نفسه، فرأسه ملىء بالأحلام، وفى وضح النهار والماء البارد، كانت شعيرات الفرشاة تحدث له انعكاسات سيئة.

كانت لولو نائمة على ظهرها، حين أدخلت إصبع رجلها اليسرى الكبيرة فى شق الغطاء، لم يكن هذا شقًا، بل كان جزءًا من الغطاء مفتقا، كان ذلك يزعجها، إذ علىّ أن أخيطها غدًا، كانت مع ذلك تشد على الخيطان لتنقطع، لم يكن هنرى قد نام، لكنه انفك عن الإزعاج. لطالما قال هذا للولو: ما إن يغمض عينيه حتى

يشعر بأنه قد ربط تمامًا بحيث لا يستطيع أن يحرك حتى إصبعه الصغير. كان كذبابة كبيرة عالقة فى خيوط العنكبوت، ولولو تحب أن تحس بهذا الجسد السجين يلتصق بها، فلو أن بإمكانه أن يظل هكذا مشلولاً لاعتنيت به أنا، ولنظفته كطفل، ولقلبته أحيانًا على ظهره، وضربته على مؤخرته، وأزحت الغطاء حتى إذا أتت أمه ورأته عاريًا، أظن أنها ستجمد فى مكانها. منذ خمسة عشر عامًا لم تشاهده على هذه الحال، مرت لولو بيدها خفيفا على خاصرة زوجها وقرصته فى فخذه بخفة، فهمهم هنرى لكنه لم يقم بأية حركة، أصبح "عاجزًا" وابتسمت لولو: كلمة "العجز" كانت تضحكها دائمًا، ففى الوقت الذى كانت لا تزال فيه تحب هنرى، وكان يبقى بجانبها هكذا مشلولا، كانت تتسلى بتصوره مع مجموعة من الرجال صغيرى الحجم على هيئة ما قرأته فى صغرها عن قصة جلفر. فكانت أحيانا تطلق على هنرى اسم "جلفر". وهنرى كان يحب ذلك فهذا اسم إنجليزي ولولو تبدو مثقفة، لكنه كان يفضل أن تلفظه لولو باللهجة الإنجليزية، كم كانوا قادرين على إزعاجى: فلو رغب فى الثقافة لم يكن عليه سوى الاقتران بجان بدير، فهى وإن حملت نهدين بارزين، فهى تتقن خمس لغات، وعندما كنا نذهب إلى "سو" يوم الأحد كنت أشعر بانزعاج شديد بين أسرتها حتى إنى كنت آخذ أى كتاب لأقرأ فيه، وغالبًا ما كان هناك من يأتى لينظر إلى ما أقرأ وتسألنى أختها الصغيرة: "هل تفهم لوسياس...؟" إن ما فى الأمر أنه لا يجدنى مميزة، السويسريون نعم هم الأشخاص المميزون، لأن أخته البكر قد تزوجت من رجل سويسرى أنجبت منه خمسة أولاد. أما أنا فلا يمكن أن يكون لى أولاد، إنه أمر مشروع غير أنى لم أر أن ما يقوم به، من زيارة المراحيض عدة مرات عندما يكون برفقتى شىء مميز، إذ أصبح مرغمة على النظر إلى واجهات المحلات وأنا بانتظاره - ماذا يبدو على - ، ويخرج وهو يشد سرواله ويقوس ساقيه كالعجوز.

وسحبت لولو إصبعها من شق الغطاء وحركت رجلها قليلاً، حتى تشعر بلذة تنبهها، إلى جانب تلك الكتلة الرخوة من اللحم. وسمعت غرغرة، إنها بطن تغنى، وهذا يزعجنى، فليس بإمكانى أن أعرف هل كانت بطنى أم بطنه. وأغمضت

عينيها: إنها سوائل يسمع خريرها فى الأقنية الرخوة، فالجميع عندهم منها، عند ريرات وعندى (لا أحب أن أفكر بذلك، فهذا ما يسبب لى ألمًا فى بطنى). إنه يحبنى، ولا يحب أمعائى، فلو قدمت له زائدتى الدودية فلن يعرفها، سيظل طيلة الوقت يقلبنى، ولكن إذا وضعنا الإناء فى يديه فلن يشعر بشىء، فلن يفكر بأن هذا الذى فى الداخل "هو لها"، من الواجب أن نحب كل شىء فى الشخص، بلعومه وكبده، وأمعاءه. لعلنا لا نحب هذه الأعضاء بحكم عدم التعود عليها، فلو رأيناها كما نرى أيدينا، وأذرعنا لأحببناها على ما أعتقد، فنجوم البحر إذا تفوقنا فى محبة بعضها، فهى تتمدد على الشاطئ فى الشمس وتخرج معدتها لتستنشق الهواء، والجميع يرون هذه المعدة، وإننى لأتساءل من أين يمكننا أن نخرج معدتنا هل من السرة ؟ كانت قد أغمضت عينيها، أخذت الصحون السوداء بالدوران، كما كنت أمس فى المعرض، أطلق على الصحون بأسهم من المطاط، كانت هناك حروف تشع، يشع الحرف عند كل طلقة، فتؤلف الحروف اسم مدينة، لقد حرمنى من رؤية حروف ديجون كاملة لفرط ما كان يلتصق بى من الخلف، أكره كثيرًا أن يلامسنى أحد من الخلف، أود لو لم يكن لى ظهر، لا أريد أن يفعل فى الناس شيئًا عندما لا أراهم، فبإمكانهم أن يحركوا أيديهم فوق ظهرك فلا تدرى إلى أية جهة ستنتقل الأيدى، وهم يتطلعون إليك بكل أعينهم بدون أن تراهم، وهنرى يحب هذا حتى العبادة، لم يفكر هنرى قط بذلك، لكنه لا يفكر سوى بالوقوف ورائى، وأنا واثقة من أنه يفعل هذا عمدًا، ويلامسنى من خلف، فأنا أخجل من مؤخرتى، وهو يعرف ذلك، لكن هذا يثيره، لكننى لا أريد أن أفكر فيه (كانت خائفة)، أريد أن أفكر بريرات. كانت تفكر بريرات فى جميع الأمسيات، وفى الساعة نفسها، فى اللحظة نفسها التى يبدأ فيها هنرى بالشخير، لكن المقاومة موجودة، فالآخر أراد أن يظهر نفسه، ورأت للحظة الشعر الأسود والمجعد، وارتعشت لأن المرء لا يدرى ماذا سيحصل له، فلو أنه الوجه لكانت الحال على ما يرام. لكنّ هناك ليال قضتها بدون أن تغمض عينيها بسبب الذكريات القذرة التى طغت عليها، فمن الأمور الرهيبة أن نعرف كل شىء عن إنسان ما وخاصة هذا. وهنرى لا يمثل الشىء ذاته، فبإمكانى أن أتصوره من

الرأس حتى القدمين ، فذلك يجعل قلبى رقيقًا، لأنه رخو، ولحمه رمادى إلا بطنه فهى وردية، ويقول إن الرجل الحسن القوام هو الذى إذا جلس تتجعد بطنه ثلاث تجعيدات، بينما هو تتجعد بطنه ست تجعيدات، إلا أنه يعدها اثنتين بعد اثنتين، ولا يريد أن يرى الآخرين، وأبدت امتعاضها وهى تفكر بريرات، "لولو، أنت لا تدركين كيف يكون جسم الرجل الجميل". هذا غريب بالطبع، نعم أنا أعرف ما الجسم الجميل، و هى تقصد جسدا صلبا مثل الحجارة، به عضلات، لا أحب ذلك. باترسون كان له جسم مشابه، وأنا كنت أشعر أنى رخوة كالدودة عندما كان يضمنى إليه، وتزوجت من هنرى لأنه رخو، ولأنه يشبه الكاهن. والكهنة كالنساء على جانب من العذوية بقلنسوتهم، كما يبدو أن لهم جوارب. فى الخامسة عشرة من عمرى كنت أحب أن أرفع أرديتهن برفق لأرى سيقان الرجال عندهن، وكذلك سروايلهن، كان يضحكنى أن يكون لهن شىء بين الساقين، كنت أريد أن أمسك الرداء بيد وأزحلق الأخرى على طول سيقانهن، صاعدة إلى حيث أفكر، وليس مرد ذلك إلى أنى أحب النساء إلى هذا الحد، لكنه ذلك الرجل عندما يكون تحت الفستان يصبح غضا كالوردة الكبيرة، إن ما هنالك أنه ليس بالإمكان أن يمسك هذا باليد فيظل ساكنا، الحب كم هو قذر. أنا كنت أحب هنرى لأن أيره الصغير لا ينتصب قط ولا يرفع رأسه، كنت أضحك، وأقبله أحيانًا، لم أعد أخشاه كثيرًا؛ فى المساء آخذ هذا الشىء الصغير العذب بين أصابعى، فكان يحمر ويدير رأسه جانبًا وهو يتنهد، وكان ينام. عندها أستلقى على ظهرى وأفكر بالكهنة، والأشياء الطاهرة، والنساء وأدغدغ بطنى أولاً بطنى الجميلة المسطحة، وأنزل يدى، أنزلها، وها هى اللذة ـ اللذة التى لا يستطيع أحد غيرى أن يجتلبها لى.

الشعر مجعد كشعر الزنجى، والقلق فى الحنجرة ككتلة مستديرة، لكنها ضغطت على جفنها بقوة، وأخيرًا ظهرت أذن ريرات، وهى أذن صغيرة محمرة ومذهبة كالسكر المذاب، وعندما رأتها لولو لم تشعر بمثل سرورها المعتاد لأنها تسمع صوت ريرات فى الوقت نفسه، وهو صوت حاد ودقيق لا تحبه لولو، "عليك أن تذهبى مع بيير يا لولو العزيزة، فهذا هو العمل الذكى الوحيد الذى بإمكانك

أن تقومى به "أشعر بكثير من العاطفة تجاه ريرات، لكنها تزعجنى قليلاً عندما تتظاهر بالأهمية وتفتخر بما تقوله، مساء أمس انحنت ريرات فى الكوبول وكانت عليها ملامح التعقل المصحوب بالخوف: "ليس بإمكانك أن تظلى مع هنرى، ما دمت لا تحبينه، فهذا عمل إجرامى". إنها لا تضيع أية فرصة دون أن تتناوله بسوء، أرى أن هذا ليس من اللياقة بشىء، فهو شديد المحبة لها، لم أعد أحبه، هذا أمر ممكن، ولكن ليس من واجب ريرات أن تقوله لى، إذ إنه يبدو معها كل شىء بسيطًا وسهلاً: فالمرء إما أن يحب، وإما لا يستمر فى هذا الحب، أما أنا فلست بسيطة، أولاً، إن لى عاداتى الخاصة، ومن ثم فإنى أحبه كثيرا، فهو زوجى، كنت أود أن أضربها، ولا زلت أرغب فى إيذائها لأنها وقحة. "ستصبح جريمة"، لقد رفعت ذراعها فرأيت ما تحت إبطها، لا أزال أحبها حين تكون ذراعاها عاريتين، تحت الإبط ينفتح نصف فتحة، فقد يتبادر إلى الذهن أنه فم، وترى لولو لحمًا بنفسجيًا، قليل التجاعيد، تحت شعيرات مجعدة، كأنها الشعر، يطلق بيير عليها اسم "مينرفا السمينة"، و هى لا تحب هذا الاسم إطلاقًا. وابتسمت لولو لأنها فكرت بأخيها روبير الذى قال لها ذات يوم وكانت ترتدى القميص الداخلى: "ولماذا لك شعر تحت الذراع ؟" وأجابته: "إنه مرض". كانت تحب كثيرًا أن ترتدى ثيابها أمام أخيها الصغير، لأنه كان لديه دائمًا ملاحظات غريبة، ويتساءل المرء أين يريد أن يبحث عن هذا، كان يلامس جميع أغراض" لولو" فيطوى الفساتين بعناية بيدين حاذقتين؛ سيصبح يومًا ما "خياطًا". إنها مهنة مغرية، وأنا سأرسم له على قطع القماش. إنه لغريب أن يحلم الصبى بأن يصبح خياطًا؛ يتهيأ لى لو كنت صبيًا، لتمنيت عندئذ أن أصبح مغامرًا أو ممثلا، وليس خياطًا؛ لكنه حالم طيلة الوقت، فهو لا يتكلم كثيرًا، ويتابع فكرته؛ وأنا كنت أريد أن أصبح أختًا صالحة للاستجداء، فى البنايات الكبرى. أحس بعذوبة عينى، عذبة وكأنهما اللحم البشرى، سأذهب لأنام. وجهى الجميل الشاحب تحت القبعة، كانت ملامحى مميزة. رأيت مئات من الردهات المعتمة. غير أن الخادمة أضاءت النور فى الحال، عندما أبصرت لوحات العائلة، وتماثيل البرونز على المنضدة. وكذلك

المشاجب. وتأتى السيدة بدفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكًا: "خذى يا أختى - شكرا يا سيدتى وليبارك الله، وإلى اللقاء فى المرة القادمة".

لكننى لم أكن أختًا حقيقية، فى السيارة أومأت بعينى لأحد الأشخاص، ففزع أولاً، ثم تبعنى وهو يحدثنى عن أشياء فسلمته للشرطى. دراهم الاستجداء كنت أحتفظ بها لنفسى.. ماذا أشترى لنفسى؟ .. أأشترى سمًا. يا للبلاهة. وارتخت عيناى، فهذا يعجبنى، إذ يقال إنهما قد تبللتا بالماء فجسمى مريح بمجمله. والتاج الأخضر الجميل المرصع بالزمرد، واللازورد، ثم دار التاج وذار فتحول لرأس ثور مخيف، لكن لولو لم تكن خائفة، وقالت: "يا لعصافير الكانتال". وجرى نهر أحمر عبر الحقول المجدبة، وفكرت لولو بفأسها الآلية، ثم فى دهان الشعر.

"إنها لجريمة!" وارتعدت فرائصها واستيقظت فى ذلك الليل بعينين قاسيتين، إنهم يعذبوننى، أفلا يشعرون بذلك؟ أنا أعرف ريرات تتحدث بنية حسنة، لكنها وهى العاقلة بالنسبة للآخرين، ينبغى أن تفهم أننى بحاجة للتفكير. قال لى: "ستأتين!"، وقد احمرت عيناه أشد الاحمرار. "ستأتين إلى بيتى أنا، أريدك أن تكونى لى". إنى أخشى عينيه حيث يريد أن يلعب دور المنوم المغناطيسى، كان يخدر ذراعى، فلا أرى عينيه على تلك الحال حتى أفكر بالشعر الذى على صدره. ستأتين، أريدك أن تكونى لى، كيف للمرء أن يقول أشياء كهذه؟ أنا لست كلبًا.

عندما جلست ابتسمت له، وغيرت المسحوق من أجله وكحلت عينى لأنه يحب ذلك، لكنه لم ير شيئًا، فهو لا ينظر إلى وجهى، كان يتطلع إلى نهدى، فوددت لو أنهما يجفان فوق صدرى لأزعجه، على كل حال فلست غنية بالنهود، فهما صغيران جدًا. ستأتين إلى فيلتى فى نيس. قال إنها بيضاء، درجها من المرمر، وهى مشرفة على البحر، وإننا سنعيش عاريين طيلة اليوم، سيكون الأمر غريبا عندما يصعد الإنسان الدرج بغير ثياب؛ سأرغمه على الصعود قبلى، حتى لا ينظر إلىّ، وإلا فلن أستطيع أن أحرك رجلى، بل سأظل مسمرة فى مكانى متمنية من كل قلبى أن يصبح أعمى، لكن هذا لن يبدلنى، إذ إنه عندما يكون موجودًا

أحس دائمًا بعريى. أخذنى بذراعى، يبدو أنه خبيث، وقال لى: "أنت فى جلدى!"، وأنا كنت خائفة فقلت: "نعم" أريد أن أصنع سعادتك، سنذهب للنزهة فى السيارة، وفى المركب، سنذهب إلى إيطاليا، وسأعطيك كل ما تريدين، لكن فيلته ليست غنية بالأثاث، فسننام على الأرض على مرتبة. يريدنى أن أنام بين ذراعيه، سأشم رائحته، أحب صدره كثيرًا لأنه صدر أسمر عريض، لكن هناك كثيرًا من الشعر يغطيه، كنت أريد أن يكون الرجال بدون شعر، شعره هو أسود ناعم كالزبد، فلطالما داعبته ولطالما فزعت منه، أتراجع قدر الإمكان لكنه، يشدنى إليه. يريد أن أنام بين ذراعيه، سيضمنى إلى ذراعيه وأشم رائحته، وعندما يأتى الليل، نسمع ضجيج البحر، وبإمكانه أن يوقظنى فى منتصف الليل إذا أراد أن يفعل هذا: لن أستطيع أن أنام مطمئنة ما لم تكن عندى الدورة، هذا شىء يدعو للاشمئزاز، لماذا ينبغى أن يكون لنا أجسام؟

وفتحت لولو عينيها، كانت الستائر ملونة بالأحمر، يلونها النور الآتى من الشارع، وفى المرآة، كان هناك خيال أحمر؛ كانت لولو تحب هذا النور الأحمر والكنبة انشطرت إلى ظل على الحائط، على ذراع الكنبة، كان هنرى قد ألقى سرواله، وحمالته تتدلى فى الفراغ. علىّ أن أشترى له حمالات، أوه! لا أريد، لا أريد أن أذهب. سيقبلنى طيلة اليوم، وسأكون له، أصنع لذته، وسينظر إلىّ، سيفكر "إنها لذتى" لامستها هنا وهناك، وبإمكانى أن أعيد الكرة عندما يروق الأمر لى. فى "بور روايال" رفست لولو الأغطية برجلها، كانت تمقت بيير عندما تتذكر ما جرى لها فى "بور روايال". كانت وراء السياج، تظن أن بيير لا يزال فى السيارة يتفحص الخريطة، وفجأة أبصرته، ركض وراءها بخطى الذئاب، كان ينظر إليها، رفست لولو هنرى سيستيقظ. لكن هنرى شخر "هومففف"، ولم يستيقظ. أريد أن أتعرف على شاب وسيم، طاهر كالفتاة، فلا يلامس أحدنا الآخر، ونتنزه على شاطئ البحر، أمسك بيده، ويمسك بيدى، وفى المساء ننام كل فى سرير منفصل، نظل كأخ وأخت غارقين فى حديث حتى الصباح. أو أننى أحب أن أعيش مع ريرات ، فما أحلى النساء فيما بينهن، كتفاها عريضتان وسمينتان، كنت تعيسة جدًا عندما كانت تحب فرسنيل، لكن فكرة مداعبته لها كانت تهزنى،

وكذلك يوترني عندما يمر بيديه على كتفيها وعلى خاصرتيها وهى تتنهد. أتساءل كيف يمكن لوجهها أن يكون عندما تكون ممددة على هذا الشكل، عارية تحت رجل تحس بيدين تتنقلان على لحمها، لن ألامسها مقابل ذهب العالم كله، فلن أعرف ما أفعله بها، حتى ولو رغبت فى ذلك وقالت لى: "حقًا إننى أريد".. فلن أعرف، لكننى لو كنت غير منظورة لأحببت أن أراه يفعل هكذا معها، ينظر إلى وجهها (يدهشنى أن تكون كمنيرفا)، ويلامس بيد رشيقة ساقيها المنفرجتين، وركبتيها الموردتين، ويسمعها تتنهد. وضحكت مينرفا ضحكة جافة سريعة إذ يعترى المرء أحيانًا مثل هذه الأفكار. ذات مرة ادعت بأن بيير يريد أن يغتصب ريرات. وساعدتها، أخذت ريرات بين ذراعى، أمس. كان خداها شديدى الاحمرار كنا جالستين على الأريكة، الواحدة قبالة الأخرى، كانت ساقاها مضمومتين، لكننا لم نقل شيئًا. ولن نقول شيئًا، بدأ هنرى بالشخير، وصفرت لولو، أنا هنا، ليس بإمكانى أن أنام، سأفسد دمى، وهو كان يشخر ذاك السمج، فلو أخذنى بين ذراعيه ولو رجانى، ولو قال لى: "أنت لى بأكملك لولو أنا أحبك، لا تذهبى!" سأقدم له هذه التضحية، سأبقى، نعم سأظل طيلة حياتى معه، طلبًا لرضاه.

- ٢ -

جلست ريرات فى شرفة مقهى "دوم"، وطلبت كأسًا من البورتو، كانت متعبة، غاضبة من لولو.

"... البورتو الذى قدموه فيه طعم الفلين، ولولو لا يهمها الأمر فهى تشرب القهوة، لكنه ليس من المناسب أن تشرب القهوة فى وقت تناول المقبلات، إنهم يشربون القهوة هنا طيلة اليوم، أو القهوة مع الكريمة، لأنهم مفلسون كم يزعجهم هذا الأمر، أما أنا فلا أستطيع، بل أخترق المحل كله فى مواجهة الزبائن، فهم أناس لا يريدون الاستمرار. لا أدرى لماذا تحدد لى المواعيد فى المونبارناس دائمًا، لاسيما وأنها لو حددت لى مواعيدها فى مقهى لابيه أو فى البام بام، لكان أقرب إليها، وأقل بعدا عن مكان عملى؛ لا أستطيع أن أقول كم يحزننى أن أرى دائمًا هذه الرءوس، ففى كل مرة يكون عندى أى فراغ حتى ولو دقيقة علىّ أن آتى إلى

هذا المكان، لو كنت فى الشرفة فلا بأس، ولكن فى الداخل تفوح رائحة الثياب القذرة فأنا لا أحب من يهملون فى أنفسهم. وحتى فى الشرفة أحس بأنى غريبة حيث إنى أهتم بنظافتى، وهذا ما يدهش من يرونى بين رجال لا يحلقون ذقونهم، ونساء لست أدرى كيف هن؟ قد يقول أحدهم" ما تراها تفعل هنا؟ أعرف أن الأمريكيات الثريات يؤمن المكان فى الصيف، ولكن يبدو أنهن قد توقفن الآن فى إنجلترا مع حكومتنا، لهذا فإن تجارة الكماليات ليست على ما يرام، فقد بعت حتى الآن نصف ما بعته فى السنة الماضية، وأتساءل ماذا يفعل الآخرون، لأننى أنا البائعة الفضلى، والسيدة دوباك هى التى قالت لى هذا، أنا ألوم على يونيل الصغيرة التى لا تملك القدرة على البيع، فهى لم تكسب درهمًا واحدًا، أكثر مما هو مقرر لها هذا الشهر؛ و عندما يقضى المرء نهاره واقفا على قدميه فإنه يشتهى أن يرتاح ولو قليلا فى مكان مقبول به مسحة من الفخامة، من الفن مزود بطاقم له شكل مميز. نريد أن نغلق أعيننا ونطلق العنان لأنفسنا، ونسمع الموسيقى سرا، وليس الأمر مكلفا: الذهاب من وقت لآخر إلى مرقص السفراء، ولكن الخدم وقحون، فهم يعاملون فئة خاصة فقط فيما عدا هذا الأسمر الصغير الذى يخدمنى، فهو لطيف؛ أظن أن لولو تسر عندما تحاط بمثل هذه النوعية من البشر، وقد يخيفها الذهاب إلى مكان راق، فهى فى الواقع ليست شديدة الثقة بنفسها ويخجلها كل رجل الآن ذى عادات جميلة لهذا لم تكن تحب لويس.

وأنا أعتقد أن باستطاعتها أن تأخذ راحتها هنا إذن، والرجال هنا فقراء يضعون غلايينهم فى أفواههم ولا يستطيعون إخفاء الشراهة التى تبدو فى عيونهم، وإن كان يبدو عليهم أنهم لا يستطيعون دفع أجرة النساء، فلم يكن هذا ما ينقص الحى، فالأمر جد مقزز: فهم يتطلعون بشراهة كأنهم يستعدون لالتهامهن، وليسوا قادرين على أن يقولوا للمرأة بأسلوب لطيف بأنهم يرغبون فيها، أو يقبلون الأمور بحيث يجعلونها تشعر بالسعادة.

واقترب الخادم:

ـ هل تريدين البورتو الخالص يا آنستى؟

ـ نعم، شكرًا.

ثم قال بأسلوب لطيف:

ـ يا له من وقت جميل.

ـ فقالت ريرات: ليس الوقت مبكرًا!

ـ حقًا، حتى إنه بإمكاننا أن نقول إن الشتاء لن ينتهى أبدا.

وذهب، فتتبعته ريرات بعينيها، وقالت فى نفسها "أحب هذا الصبى كثيرًا، إنه يحسن الوقوف فى مكانه، ولا يتعدى حدوده، لكن له دائمًا كلمة يقولها لى "ليعيرنى انتباها خاصًا".

كان رجلاً نحيلاً مقوس الظهر ينظر إليها بإمعان، فهزت ريرات كتفيها وأدارت ظهرها: "إذا أراد الرجل أن يغازل المرأة فعليه على الأقل أن ينظف ثيابه، سأجيبه بهذا إذا وجه لى الكلام، وأتساءل لماذا لا تذهب. إنها لا تريد أن تؤذى هنرى، هذا جميل جدًا: فليس للمرأة الحق بأن تفسد حياتها من أجل رجل عاجز" كانت ريرات تحتقر الرجال العاجزين، كان ذلك أمرا بدنيا، وقررت فى نفسها: "عليها أن تذهب، فإن مسألة سعادتها تتعرض للخطر، سأقول لها بأنه لا يجب أن تجازف بسعادتها.

" لولو، ليس لديك الحق فى أن تجازفى بسعادتك، لن أقول لها شيئًا، لقد انتهت القضية، وقلت لها مائة مرة إنه ليس بالإمكان إسعاد الآخرين، رغما عن إرادتهم."وأحست ريرات بفراغ كبير فى رأسها، كانت شديدة الإعياء، تنظر إلى شراب البورتو المائع فى كأسها، وكأنه نوع من الحلوى السائلة، ويتردد فى ذهنها صوت يقول: "السعادة، السعادة"، لقد كانت كلمة عذبة ورصينة وفكرت بأنه لو طلب إليها رأيها فى مسابقة باريس سوار، لقالت إن تلك الكلمة هى الأجمل فى اللغة الفرنسية. "فهل فكر فيها أحد؟ لقد قالوا:

الطاقة، والشجاعة، ذلك لأنهم رجال، كان ينبغى أن تكون هناك امرأة، فهى التى تستطيع أن تأتى بتلك الكلمة، كان من الواجب تخصيص جائزتين واحدة

للرجال، فتكون كلمة "شرف"، وأخرى للنساء فأربح إذ أقول "سعادة"؛ فالشرف والسعادة يتلاءمان، واسم كهذا ممتع. سأقول لها: "لولو لا يمكنك أن تتخلى عن سعادتك ـ سعادتك يا لولو، "سعادتك". أنا شخصيًا أجد بيير ممتازًا، فهو إنسان جاد أولاً ثم إنه ذكى، وهذا لا يفسد شيئًا، ولديه المال، وسيظل دائم الاهتمام بها. إنه من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يذللون صعوبات الحياة، وهذا ما يلائم المرأة؛ أحب حسن القيادة كثيرًا، لكنه يحسن الكلام مع الخدم وموظفى الفنادق، فهم يطيعونه وأنا أسمى ذلك قوة. ولعل هذا ما ينقص هنرى. ثم إن هناك اعتبارات صحية مع الأب الذى كان من نصيبها، فلولو عليها أن تنتبه، وجميل أن تظل المرأة رقيقة شفافة وألا تشعر بالجوع أو النعاس، وأن تنام أربع ساعات فى الليلة، وأن تتحرك فى باريس طوال النهار لتقديم عروض لأنسجة، لكن هذا أمر غير واقعى، إذ إنها بحاجة لاتباع نظام غذائى، فلا بأس إذا أكلت قليلاً فى المرة الواحدة ـ وأنا أريد ذلك ـ ولكن على فترات وفى مواعيد محددة. ولكن عليها أن تقوم بهذا عدة مرات ستتحسن صحتها لو أرسلت إلى مصحة طيلة عشر سنوات".

وثبتت نظرها حائرة على ساعة شارع مونبارناس الكبيرة، التى تشير عقاربها إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة.

" أنا لا أفهم لولو، فهى ذات مزاج غريب، لم أستطع أبدًا أن أعرف ما إذا كانت تحب الرجال، أو أنهم يثيرون اشمئزازها، ومن الواجب مع ذلك أن تكون على وفاق مع بيير، وهذا ما يغيرها قليلاً عما كانت عليه فى السنة الماضية"، من رابو وريبو كما كنت أطلق عليها.

لقد تمتعت بهذه الذكرى، لكنها كتمت ابتسامتها لأن الشاب النحيل كان لايزال ينظر إليها، وقد فاجأته، وهو ينظر إليها فأدارت رأسها.

كانت رابو ذات وجه مثقوب بنقط سوداء، وكانت لولو تعبث بهذه البثور، إذ تضغط على جلدها بالأظافر"هذا يثير الاشمئزاز" ولكن ليست هذه غلطتها،

فلولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل، أما أنا فأعبد الرجال المتحذلقين، وقضاياهم تبعث فى النفس السرور،

قمصانهم، أحذيتهم، ربطات أعناقهم البراقة، إنه شىء قاس، لكنه لذيذ وقوى، له قوة عذبة، كرائحة التبغ الإنجليزى الذى يدخنونه، وكرائحة العطر، ورائحة جلدهم عندما يحلقون ذقونهم، ليس... ليس جلدهم كجلد المرأة فكأنه جلد من قرطبة، وتنقض عليك أذرعهم القوية ونضع الرأس على صدورهم فنحس برائحتها، رائحة الرجولة، ويتمتمون بكلمات عذبة، لديهم أشياء جميلة أحذية قاسية من جلد البقر، ويهمسون فى أذنك، "يا عزيزتى، يا عزيزتى الرقيقة" فنحس بأجسامنا، وقد خارت قواها، وفكرت ريرات بلويس الذى هجرها فى العام الماضى، فانفطر قلبها "رجل يحب نفسه، ولديه الكثير من الشئون الصغيرة خاتم الشعارات، علبة سجائر من الذهب وبعض العادات الصغيرة فقط هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا أحيانا، سيئين، فهم فى ذلك أسوأ من المرأة. وأفضل من ذلك رجل فى الأربعين، رجل يعتنى بنفسه، رد إلى الوراء شعره الذى غزاه الشيب فى الصدغين، يكون عريض المنكبين، رياضيًا، لكنه يعرف الحياة حق المعرفة، وله قلب طيب لأنه عانى الألم، ليست لولو سوى صبية صغيرة، حالفها الحظ كانت لها صديقة مثلى، لأن بيار بدأ يمل. فلو أن واحدة كانت فى مكانها لعرفت كيف تستفيد، وعندما يكون رقيقًا معى أتظاهر بعدم الانتباه، وأبدأ بالحديث عن لولو، فأجد دائمًا كلامًا يرفع من شأنها، غير أنها لا تستحق ما لها من حظ، إنها لا تعى، أتمنى أن تعيش قليلاً بمفردها كما عشت منذ أن ذهب لويس، فسترى ما تعنى عودتها وحيدة إلى البيت فى المساء، بعد عناء اليوم، لترى الغرفة خاوية، فتموت من شدة الرغبة فى الارتماء على صدر رجل. ولعلنا نتساءل أين تجد المرأة الشجاعة على النهوض صبيحة اليوم التالى، بغية العودة إلى العمل، مع محافظتها على سعادتها وجذبها للأنظار، وأن تمنح الشجاعة لمن حولها، فى الوقت الذى تفضل فيه الموت على حياة كهذه ..."

ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف، كانت ريرات تفكر بالسعادة، بالعصفور الأزرق، بعصفورة السعادة بعصفور الحب الثائر. وقفزت من مكانها: تأخرت لولو

ثلاثين دقيقة، وهذا أمر عادى . فهى لن تهجر زوجها قط، وهى لا تملك إرادة الإقدام على عمل كهذا . فى الواقع أنها تبقى مع هنرى بدافع الاحترام، إنها تخدعه، ولكن لا يهم ما دام أن الناس ينادونها بقولهم "سيدتى"، وقد كالت له عبارات القدح والذم ولكن لا ينبغى أن نكرر له فى اليوم التالى ما سبق أن قالته، فستغضب و تحنق كثيرا . لقد فعلت كل شىء من أجلها، وقلت لها كل ما يجب أن أقوله، فتبًا لها".

وتوقفت سيارة أجرة أمام مقهى "الدوم"، وترجلت لولو منها، كانت تحمل حقيبة ضخمة، وعلى وجهها مسحة الوقار، وصاحت من بعيد:

- لقد هجرت هنرى.

واقتربت، مقوسة الظهر تحت عبء حقيبتها، وكانت تبتسم، فقالت ريرات مندهشة:

- كيف يا لولو؟ ألا تريدين أن تقولى...؟

فقالت لولو:

- نعم، انتهى كل شىء، لقد أنهيت هذا الأمر.

فقالت ريرات، وهى لا تزال على سذاجتها:

- وهل عرف هذا؟ هل قلت له؟

فبدا الغضب فى عينى لولو، وقالت :

- وكيف؟

- حسنًا: يا صغيرتى لولو!

لم تكن ريرات تدرك كيف تفكر فى ذلك إلا أنها على أى حال قد افترضت أن لولو كانت بحاجة للتشجيع، فقالت لها:

- يا له من فعل حسن لقد كنت فى غاية الشجاعة.

وأرادت أن تضيف قائلة: أرأيت أن هذا لم يكن صعبًا، لكنها تمالكت نفسها، بينما كانت لولو تتلقى الإعجاب، كان خداها محمرين، وعيناها متأججتين، جلست ووضعت حقيبتها إلى جانبها، كانت ترتدى معطفًا من الصوف الرمادى، يشده حزام جلدى، وبلوفر أصفر فاتح ذا عنق مقلوب. وكانت مكشوفة الرأس. لم تكن ريرات تحب أن تتنزه لولو ورأسها مكشوفة:

لقد أدركت فى الحال هذا المزيج من الملامة والتسلية الذى كانت مستغرقة فيه، كانت لولو توحى لها دائمًا بهذا الأثر. وصممت ريرات على القول: "إن ما أحبه فيها هى حيويتها".

وقالت لولو بسرعة: لقد قلت له كل ما شعرت به.

فقالت ريرات:

ـ لن أعود عنه، ولكن ما الذى حدث لك يا عزيزتى لولو؟ إنك تبدين نشاطا غير مألوف. مساء أمس، كنت مستعدة لأن أقطع رأسى لو لم تتركيه.

ـ ذلك بسبب أخى الصغير، أريد أن يكون علىّ رئيسًا، ولكننى لا أقبل أن يمس عائلتى أبدًا.

ـ ولكن كيف تم ذلك؟

فقالت لولو، وهى ترتعد فوق كرسيها:

ـ أين الجرسون؟ إن جرسونات مقهى "الدوم" ليسوا دائمًا حاضرين عندما نناديهم إنه الأسمر الصغير الذى يخدمنا؟

فقالت ريرات:

ـ نعم. هل تعرفين أننى سيطرت عليه؟

ـ كيف؟ عليك إذن أن تحذرى من امرأة المغاسل، فهو يعيش دائمًا إلى جانبها، يغازلها، ولكن أعتقد أن ذلك ليس إلا ذريعة ليرى النساء تدخل دورات المياه، وعندما يخرجن، ينظر إلى أعينهن حتى تحمر وجوههن. وبالمناسبة، سأتركك لمدة

دقيقة ينبغى أن أنزل وأتصل ببيير لأنه سيغضب! وإذا رأيت الجرسون، اطلبى لى فنجانًا من القهوة مع الكريمة، سأغيب دقيقة، ثم أعود وأخبرك بكل شىء.

ونهضت، ثم خطت عدة خطوات وعادت إلى ريرات:

- أنا سعيدة جدًا عزيزتى ريرات.

فقالت ريرات، وهى تمسك بيدها :

- يا لولو العزيزة

وأفلتت لولو يدها، واجتازت الشرفة بخطى وئيدة ونظرت إليها ريرات، وهى تبتعد، "لم أكن لأظن أنها قادرة على مثل هذه الأمور، وفكرت فى نفسها: كم هى سعيدة، وإن كانت تؤاخذ نفسها قليلاً، وهذا يساعدها فى أن تترك زوجها فى الحال. ولو سمعت منى لأقدمت على ذلك منذ مدة طويلة. على كل حال فإن لى فضلاً فى ذلك فى الواقع، إننى أؤثر عليها أشد التأثير".

وعادت لولو بعد لحظات وقالت :

- بيير كان جالسًا، يريد بعض تفاصيل، وسأعطيه إياها فى الحال، سأتناول طعام الغذاء معه. قال إنه بالإمكان أن نذهب غدًا فى المساء.

فقالت ريرات:

- كم أنا سعيدة يا لولو.. أخبرينى بسرعة: هل قررت ذلك

هذه الليلة بالذات؟

فقالت لولو بتواضع :

- أنا لم أقرر شيئًا، فالأمر تقرر تلقائيا، ونقرت على الطاولة بعصبية "يا جرسون! يا جرسون! إنه ليزعجنى هذا الجرسون، أريد فنجان قهوة مع الكريمة".

دهشت ريرات: فلو كانت مكانها، تواجه أشياء خطيرة إلى هذا الحد لما أضاعت وقتها فى الركض وراء القهوة مع الكريمة. لولو امرأة جذابة، ولكن كم هى تافهة فى بعض الأحيان، إنها عصفور.

وضحكت لولو:

ـ لو رأيت هيئة هنرى!

فقالت ريرات برصانة :

ـ أتساءل ما يمكن أن تقول والدتك.

فقالت لولو باطمئنان:

ـ أمى؟ ستكون سعيدة جدًا. كان سيئ الخلق معها، وقد ضاقت ذرعًا به حتى الآن، كانت تتهمه بأنه أساء تهذيبى، وأننى كنت كذا وكذا، وأننى تلقيت تعليما متخلفا، هل تدركين أن كل ما فعلته هو بسببها؟

ـ ولكن ـ ماذا جرى بالفعل؟

ـ لقد صفع روبير.

ـ إذا ـ فروبير أتى إلى بيتك.

ـ نعم، عندما مر بنا هذا الصباح، إذ إن والدتى تريده أن يتدرب عند غومبيز، أظن أننى أخبرتك بذلك، لذا فقد مر ببيتنا وكنا نتناول طعام الفطور، فصفعه هنرى.

وسألت ريرات بانزعاج، لأنها كانت تكره الطريقة التى كانت لولو تسرد بها قصتها:

ـ ولكن لماذا؟

فقالت لولو بغموض:

ـ تبادلا بعض الكلمات، ولم يسكت الصغير عنها. لقد قابله بعناد، وقال له فى وجهه "أيها الوسخ العجوز" وذلك لأن هنرى قد نعته بقلة الأدب، طبعًا فهو لا

يعرف سوى التفوه بهذه الكلمات وقد أساءنى ذلك، عندها نهض هنرى، وكنا نتناول طعام الفطور فى الشقة الصغيرة، وصفعه صفعة واحدة، فوددت لو أنى أقتله.

- عندها، ذهبت؟

فقالت لولو مندهشة:

- ذهبت؟ إلى أين؟

- ظننت بأنك تركته فى تلك اللحظة بالذات، أصغى يا صغيرتى لولو، عليك أن تخبرينى القصة بالتسلسل، وإلا فلن أفهم منها شيئًا وأضافت وقد ساورها الشك:

- قولى، لقد هجرته، هل هذا صحيح؟

- أجل - وها أنا أشرح لك القصة منذ ساعة.

- حسنًا: هل صفع هنرى روبير؟ وبعدها؟

فقالت لولو:

- وبعدها، احتجزته بداخل الشرفة، كان الأمر غريبا لأنه كان يرتدى ثياب النوم، وكان ينقر على الزجاج ولم يشأ أن يكسره فأنت تعلمين أنه شديد البخل. أما أنا فلو كنت مكانه لكسرت كل شىء حتى ولو تلطخت يداى بالدم.

ثم أقبل آل تكسييه. فابتسم لى عبر الشباك كما لو أن الأمر من بدايته كان عبارة عن مزحة.

ويمر الجرسون فتمسكه لولو من ذراعه:

- إذا، ها أنك أتيت أخيرًا أيها الجرسون - هلا سنزعجك بأن تحضر لنا فنجانًا من القهوة مع الكريمة؟

كانت ريرات منزعجة لكنها ابتسمت للجرسون ابتسامة مسايرة.

أما الصبى فظل مكفهر الوجه وانحنى انحناءة ملؤها اللوم، ريرات كرهت لولو بعض الشيء، لم تكن لتستطيع أبدًا أن تحسن لهجتها مع من هم دونها، فتارة ما تكون شديدة المسايرة، وتارة متشددة جدا وجافة جدًا.

وأخذت لولو تضحك .

ـ أضحك لأنى أرى هنرى بثياب النوم فى الشرفة، كان يرتجف من البرد. هل تدرين ماذا فعلت حتى أطبقت عليه ؟ كان فى نهاية الشقة، وروبير يبكى، ويقسم. وفتحت النافذة، وقلت:

"انظر يا هنرى! هناك سيارة صدمت بائعة الزهور"فجاء بالقرب منى، إنه يحب بائعة الزهور كثيرا لأنها قالت له إنها سويسرية، وهو يظن أنها تعشقه. "أين هذا؟ أين؟" وانسحبت على مهل، وعدت إلى الغرفة وأقفلت النافذة، وصحت فيه من وراء الزجاج. "ستتعلم ألا تكون فظًا مع أخى، تركته أكثر من ساعة فى الشرفة، كان ينظر إلينا بعينين غاضبتين، وقد ازرق لونه من الغضب. أما أنا فكنت أخرج له لسانى وأعطى روبير ملبسًا؛ وبعدها حملت أغراضى إلى الشقة، وارتديت ملابسى أمام روبير لأنى أعلم أن هنرى يكره ذلك، كان روبير يقبل ذراعى، وعنقى، وكأنه رجل صغير، إنه جذاب، كنا نتصرف كما لو أن هنرى كان غائبًا، ونسيت أن أغتسل.

فقالت ريرات، وقد انفجرت ضاحكة:

ـ هذا مضحك جدًا. والآخر الذى كان خلف النافذة.

وانقطعت لولو عن الضحك وقالت بجدية:

ـ أخشى أن يكون قد أصيب بالبرد؛ فالمرء لا ينتبه فى حالات غضبه. وتابعت بسرور، كان يمد لنا قبضة يده ويتكلم طيلة الوقت، لكننى لم أفهم نصف ما كان يقوله. ثم ذهب روبير .

وهنا دق آل تكسييه جرس الباب، فأدخلتهم. وما إن رآهم حتى أخذ يبتسم ويتملقنى، وهو فى الشرفة، فقلت لهم: "انظروا إلى زوجى، زوجى العزيز الغالى،

الا يشبه سمكة فى حوض سمك؟ فحياه هؤلاء من خلال الزجاج مندهشين، إلا أنهم تمالكوا أنفسهم.

فقالت ريرات ضاحكة:

- زوجك فى الشرفة والناس فى الشقة، وكررتها عدة مرات ... إذ أرادت أن تبحث عن كلمات غريبة ومثيرة لكى تشرح المشهد للولو، وفكرت بأن لولو لا تعرف معنى الضحك. ولكن الكلمات لم تأتها.

فقالت لولو:

- وفتحت النافذة فدخل هنرى، وقبلنى على مرأى من آل تكسييه، وأخذ يمازحنى وينادينى بالماكرة الصغيرة ويقول:

"الماكرة الصغيرة، كانت تريد أن تقوم معى بحيلة خبيثة". وابتسمت، وابتسم آل تكسييه بأدب، وابتسم الجميع، لكنهم عندما ذهبوا، لطمنى بقبضة يده على أذنى. عندها أتيت بفرشاة وألقيت بها على زاوية فمه فانشقت شفتاه.

فقالت ريرات بحنو:

- يا لولو المسكينة.

لكن لولو دفعت بحركتها كل عطف، وانتصبت واقفة، وهى تهز خصلات شعرها البنى بعصبية، ولاح على وجهها الغضب بينما راحت عيناها تشعان كالبرق:

- وهنا أفصحنا عن كل شىء غسلت شفتيه بمنشفة وقلت له إننى ضقت به ذرعًا، وبأننى لم أعد أحبه، وأريد الذهاب. فأجهش بالبكاء، وقال إنه سيقتل نفسه، لكن حيله لم تنطل علىّ: هل تذكرين يا ريرات، فى السنة الماضية، أثناء المناوشات مع الرينانى، كان يقول لى فى كل يوم: ستقع الحرب، لولو، سأذهب، وأموت، وستأسفين علىّ، وستندمين على كل ما أقدمت عليه تجاهى. فأجبته "حسنا إنك عاجز، وتلك حالة لها علاج". ومع ذلك هدأت من روعه، لأنه فكر بأن يغلق علىّ الباب فى الشقة، فأقسمت له بأننى لن أخرج قبل شهر، بعدها حضر

إلى مكتبه وكانت عيناه حمراوين، وقطعة شاش ملصقة على شفتيه، ولم يكن جميلا. أما أنا فقمت بأعمال البيت، وضعت العدس على النار وأحضرت حقيبتى. وتركت له خطابًا على طاولة المطبخ:

ـ ماذا كتبت له؟

فقالت لولو بفخر:

ـ كتبت قائلة: "العدس على النار، تناول طعامك وأطفئ الغاز. لحم الخنزير المجفف فى البراد، أما أنا فضقت ذرعا ـ الوداع".

وضحكت الاثنتان معًا بقوة حتى التفت صوبهما المارة، وفكرت ريرات بأن منظرهما كان جذابًا، وندمت على عدم جلوسها فى شرفة الفيال أو فى مقهى لابيه ولما فرغتا من الضحك، سكتتا، وأدركت ريرات أنه لم يبق شىء يستحق الذكر فأحست ببعض الخيبة.

فقالت لولو، وهى تنهض:

ـ علىّ أن أنصرف، سألاقى بيير ظهرا، ماذا ينبغى أن أفعل بحقيبتى؟

فقالت ريرات:

ـ اتركيها لى، سأسلمها فى الحال إلى امرأة المغاسل، متى أراك ثانية؟

ـ سآتى لآخذك من بيتك فى الساعة الثانية، فلدىّ الكثير من قضاء المهام بصحبتك: فأنا لم آخذ سوى نصف أغراضى، يجب على بيير أن يعطينى نقودًا.

وذهبت لولو، فنادت ريرات الجرسون، أحست بأنها شديدة الوقار والحزن، وأسرع الصبى، لاحظت ريرات بأنه يأتى مسرعًا عندما تناديه هى، وقال لها:

ـ خمسة فرنكات، وأضاف بهيئة جافة:

كنتما مسرورتين معًا: فقد سمع ضحككما من تحت.

وفكرت ريرات بتأن: "لعل لولو مست شعوره".

وقالت بعد أن احمر وجهها:

ـ صديقتى كانت عصبية المزاج هذا الصباح.

فقال الصبى بروح طيبة:

ـ إنها جذابة. أشكرك يا آنستى.

ووضع فى جيبه الفرنكات الستة وذهب. ودهشت ريرات بعض الشىء وفكرت بأن هنرى سيعود إلى بيته ويعثر على خطاب لولو: كانت لحظة مفعمة بالسعادة بالنسبة إليها.

قالت لولو لأمينة الصندوق:

ـ أريد أن يتم إرسال كل هذا قبل مساء الغد إلى فندق التياتر فى شارع فاندام، ثم اتجهت نحو ريرات:

ـ كفى يا ريرات فسنضعها هنا.

فقالت أمينة الصندوق:

ـ ما الاسم؟

ـ مدام لوسيان كرسبان.

وألقت لولو معطفها على ذراعها وراحت تركض؛ ونزلت راكضة درج محلات الساماريتان، كانت ريرات تتبعها، كادت تقع عدة مرات لأنها لم تكن تنظر إلى قدميها، لم تكن تنظر سوى للطيف الأزرق والأصفر الهادئ الذى كان يتراقص أمامها!" صحيح أن لها جسمًا بعيدًا عن الحشمة..." فى كل مرة كانت ريرات ترى فيها لولو من الخلف أو جانبيًا، تقف مشدوهة أمام جسمها غير المحتشم بدون أن تشرح لنفسها السبب، إنه انطباع. "إنها رقيقة لينة" لكن فيها شيئًا بذيئًا" فلن أتخلى عن هذه الفكرة، تقول إنها تخجل من مؤخرتها وهى ترتدى التنورة الضيقة التى تبرز تلك المؤخرة. إن مؤخرتها صغيرة، أصغر من مؤخرتى بكثير، لكنها بارزة أكثر فهى مستديرة من تحت كليتيها الهزيلتين، وهى تملأ التنورة تمامًا كما لو كانت صبت بداخلها ثم إنها تحسن الاهتزاز .

واستدارت لولو، وتبادلتا الابتسام، فكرت ريرات بجسم صديقتها الفاضح بنوع من عدم الرضى، والفتور والاستياء، "نهدان ناهضان" ولحم ناعم، أصفر - حين يلامس يظن أنه صنع من المطاط - وفخذان طويلتان، وقامة مديدة، وأطراف طويلة: وفكرت ريرات فى نفسها "إنه جسم زنجية" فهى تشبه زنجية ترقص الرمبا". قرب الباب لاحظت ريرات صورتها تنعكس فى مرآة، وفكرت فى نفسها وهى تمسك بذراع لولو: "أنا رياضية أكثر من لولو لكنها أبلغ أثرًا منى عندما نكون بملابسنا، ولكننى أجمل منها عارية".

وظلتا للحظة صامتتين، ثم قالت لولو:

- بيير كان جذابا، أنت أيضًا كنت جذابة يا ريرات، فأنا أشكركما أنتما الاثنين.

قالت بلهجة المتضايقة، لكن ريرات لم تنتبه لها، لم تعرف لولو قط أن تشكر، فقد كانت شديدة الخجل.

وأضافت لولو فجأة هذا يزعجنى: ولكن علىّ أن أشترى صدرية".

فقالت ريرات: من هنا؟ فقد كانتا تمران أمام محل لبيع الثياب الداخلية.

- كلا.. تذكرت لأننى رأيت، وبالنسبة للصدارى فأنا أقصد محل "فيشر".

وهتفت ريرات:

- من شارع مونبارناس؟ وتابعت كلامها بجدية: اصغى يا لولو، عليك ألا ترددى كثيرًا على شارع المونبارناس خصوصًا فى هذه الساعة، سيقع نظرنا على هنرى، وهذا أمر مزعج.

وقالت لولو، وهى تهز كتفيها:

- على هنرى، كلا، لماذا؟

واستبد الغضب بريرات فاحمر خداها وصدغاها:

ـ أنت لا تزالين على حالك يا صغيرتى لولو، فحين لا يروق الأمر لك تعمدين إلى نفيه بكل سهولة، أنت ترغبين فى الذهاب إلى محل فيشر فتؤكدين لى أن هنرى لا يمر فى شارع المونبارناس، وأنت تعرفين حق المعرفة أنه يمر من هناك كل يوم فى السادسة، فهذا هو طريقه، وأنت التى قلت لى ذلك بنفسك، فهو يسير بطول شارع الرين وينتظر فى زاوية شارع راسباى.

فقالت لولو:

ـ أولاً: الساعة لم تتجاوز الخامسة حتى الآن، ثم إنه قد يكون غائبا عن مكتبه، فبعد الكلمة التى وجهتها إليه لابد أن يعمد للراحة.

فقالت ريرات فجأة:

ـ ولكن يا لولو، هناك محل آخر لفيشر ليس بعيدًا عن الأوبرا فى شارع الرابع من سبتمبر.

فقالت لولو بوجه عديم الإرادة:

ـ نعم يا لولو، ولكن علينا أن نذهب إلى المحل الأول.

ـ آه! كم أحبك يا صغيرتى لولو؟ ينبغى أن نذهب إلى المحل الأول! لكن هذا المحل على بعد خطوتين، لهو أقرب بكثير من شارع المونبارناس.

ـ لا أحب ما يبيعونه هنا.

وفكرت ريرات فى نفسها بأن جميع محلات فيشر تبيع الأصناف نفسها. لكن لولو كانت تصر إصرارًا لا معنى له، فهنرى هو آخر من ترغب فى رؤيته فى هذا الوقت، ومع ذلك، فهى تتصرف وكأنها تريد أن ترتمى عند رجليه.

وقالت بإصرار:

حسنًا، فلنذهب إلى مونبارناس، وعلى كل حال فإن هنرى فارع الطول وسنراه قبل أن يرانا.

وتابعت لولو:

ـ ثم ماذا؟ إذا صادفناه، نكون قد صادفناه وكفى. فلن يأكلنا!

أصرت لولو على بلوغ مونبارناس سيرا على الأقدام، قالت إنها بحاجة لتستنشق الهواء. أخذتا طريق السين ثم شارع الأوديون، فشارع فوجيرار وامتدحت ريرات صفات بيير وبينت للولو كيف أنه كان رائعًا فى هذه الظروف.

فقالت لولو:

ـ كم أحب باريس، سآسف عليها كثيرًا.

ـ اسكتى يا لولو ـ سنحت لك الفرصة بالذهاب إلى نيس، وتندمين على أيام باريس. لم تجب لولو بشىء بل أخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة حزينة وكأنما تبحث عن شىء ما.

وعندما خرجتا من محل فيشر كانت الساعة تشير إلى السادسة. أخذت ريرات لولو بكتفيها وأرادت أن تسير بها بأقصى سرعة، لكن لولو توقفت أمام محل بومان بائع الورود.

ـ انظري إلى هذه النباتات الصحراوية يا صغيرتى ريرات، لو كانت عندى قاعة استقبال كبيرة، لوضعت هذه النباتات فى كل مكان فيها.

فقالت ريرات:

ـ أنا لا أحب الورود فى الإناء.

كانت ساخطة، وأدارت وجهها بعيدا عن شارع الرين، وبعد دقيقة رأت بالطبع طيف هنرى الطويل. كان مكشوف الرأس يرتدى سترة عادية بلون بنى، وريرات تكره هذا اللون.

وقالت على عجل:

ـ ها هو يا لولو ـ ها هو .

فقالت لولو:

ـ أين؟ أين هو؟

لم تكن أكثر هدوءًا من ريرات.

ـ إنه وراءنا على الرصيف الآخر، فلنذهب ولا تتطلعى إلى الوراء.

واستدارت لولو رغم ذلك إلى الوراء، وقالت:

ـ ها هو .. إننى أراه.

حاولت ريرات أن تجرها لكنها تجمدت، وأخذت تنظر بإمعان نحو هنرى وقالت أخيرًا:

ـ أظن أنه رآنا.

وظهر عليها الخوف فأطاعت ريرات وتابعت طريقها.

فقالت ريرات لاهثة:

والآن بحق السماء يا لولو لا تنظرى إلى الوراء. سنتجه فى الشارع التالى نحو اليمين، إنه شارع دلامبر.

كانتا تسيران على عجل وتدفعان المارة. كانت لولو تتباطأ حينًا، وتجر ريرات حينًا آخر، وما إن وصلتا إلى ناصية شارع دلامبر حتى أبصرت ريرات ظلاً أسمر طويل وراء لولو؛ ففهمت أنه هنرى، وبدأت ترتجف من الغضب. أما لولو فظل جفناها منخفضين، وبدا عليها مظهر المكر والعند "إنها تندم على تهورها لكن الوقت متأخر، إنها غلطتها، فلتتحمل النتائج".

وحثتا الخطى ـ فتبعهما هنرى بدون أن يقول كلمة واحدة، وقطعتا شارع دلامبر وتابعتا المسير فى اتجاه شارع الأوبسرفاتوار. كانت ريرات تسمع قرقعة حذاء هنرى، كما تسمع نوعا من الحشرجة الخفيفة المنتظمة تتوالى مع خطواتها: كان لهاث هنرى (هنرى لهاثه قوى منذ البداية ولكن ليس إلى هذا الحد: لابد أن يكون قد ركض حتى يلحق بهما أو أنه أثر الانفعال) .

وفكرت ريرات، "ينبغى أن تتصرف كما لو أنه ليس هنا، وأن تتجاهل وجوده". لكنها لم تستطع عدم النظر إليه بطرف عينها. كان أبيض كقطعة القماش البيضاء، يخفض حاجبيه إلى الأرض وكأنه يغمض عينيه، وفكرت ريرات فى نفسها بنوع من الخوف:

"كأنه يسير وهو نائم". كانت شفتا هنرى ترتجفان، وعلى شفته اليمنى قطعة من القماش الناعم غير ملتصقة تماما، ترتجف معه أيضًا. ولهاثه، لهاثه الذى ظل على حاله مبحوحًا بات ينتهى الآن بنوع من الموسيقى التى تنبعث من الأنف. أحست ريرات بالضيق: لم تكن لتخشى هنرى لكن المرض والعاطفة يخيفانها دائما إلى حد ما. وما هى إلا لحظة حتى قرب هنرى يده برفق وبدون أن يتطلع وأمسك بذراع لولو. أغلقت لولو فمها وكأنها تهم بالبكاء وأفلتت منه مرتعشة فقال هنرى:

- بوف هـ ه. ه.!

واعترت ريرات رغبة جامحة فى التوقف: كانت تشعر بطنين فى أذنيها لكن لولو كانت تركض؛ فهى أيضًا تبدو وكأنها تسير وهى نائمة. وفكرت ريرات أنها لو تركت ذراع لولو وتوقفت لاستمر الاثنان فى سيرهما جنبًا إلى جنب، صامتين، شاحبى اللون كأموات مغمضى الأعين.

بدأ هنرى بالكلام، قال بصوت مضحك مبحوح:

- عودى معى.

لم ترد لولو عليه، فتابع هنرى بالصوت المبحوح نفسه:

- أنت زوجتى. عودى معى.

فقالت ريرات: من بين أسنانها:

- أنت ترى تمامًا أنها لا تريد العودة فدعها وشأنها.

ولم يبد أنه سمعها بل أخذ يكرر:

ـ أنا زوجك، وأريد أن تعودى معى.

فقالت ريرات بصوت حاد:

ـ أرجوك أن تتركها وشأنها، فلن تكسب شيئًا بإزعاجها على هذه الصورة، اذهب من هنا.

فأدار نحو ريرات وجها مندهشا، وقال :

ـ إنها زوجتى، إنها لى، وأريدها أن تعود معى.

تمسك بذراع لولو، ولولو لم تفلت هذه المرة، فقالت ريرات:

ـ اذهب من هنا

ـ لن أذهب.. سأتبعها فى كل مكان، أريدها أن تعود إلى المنزل.

كان يتكلم بعناد، وفجأة كشر عن أسنانه وصرخ بكل قوة:

ـ إنك لى!

فاستدار بعض الناس نحوه ضاحكين. بينما كان هنرى يهز ذراع لولو مهمهما كحيوان، وهو يزم شفتيه. ومن حسن الحظ مرت سيارة أجرة فارغة. أشارت لها ريرات بالوقوف. فوقف هنرى أيضًا. وأرادت لولو أن تتابع مشيتها فشدها كل منهما من ذراع.

فقالت ريرات، وهى تجر لولو نحو الطريق:

ـ ينبغى أن تفهم أنه ليس بالإمكان أن تعود إليك بوسائل العنف هذه.

فقال هنرى وهو يجرها باتجاه معاكس:

ـ اتركيها! اتركى زوجتى.

كانت لولو رخوة كحزمة القماش وصاح السائق:

ـ هل تريدون الصعود أم لا؟

وتركت ريرات ذراع لولو وأمطرت يد هنرى بوابل من الضربات، غير أنه لم يكن يحس بها. وما هى إلا هنيهة حتى تركها، وراح ينظر نحو ريرات كالمعتوه. فنظرت إليه ريرات أيضًا. كانت تجد صعوبة فى استجماع أفكارها، كما اجتاحها شعور عميق بالاشمئزاز ، بقيا على هذه الحال لعدة ثوان ينظر أحدهما فى عينى الآخر، كان كلاهما يلهث. ثم عادت ريرات لتتمالك نفسها، فأمسكت لولو وجرتها إلى السيارة.

فسأل السائق:

- إلى أين نذهب؟

وتبعهما هنرى كان يريد أن يستقل السيارة معهما. لكن ريرات دفعته عنها بكل قواها وأغلقت الباب بعنف، وقالت للسائق:

- هيا اذهب - سندلك على العنوان فيما بعد.

وسارت السيارة، فتراخت ريرات فى وسطها وفكرت فى نفسها: "يا للسوقية"، كانت تكره لولو.

وسألت بعذوبة:

- إلى أين تريدين الذهاب، يا صغيرتى لولو؟

ولم تجب لولو فأحاطتها ريرات بذراعيها، وقالت بلهجة مقنعة:

- عليك أن تجيبينى. أتريدين أن أوصلك عند بيار؟

وقامت لولو بحركة اعتبرتها ريرات دالة على الإذعان وانحنت إلى الإمام:

- ١١ شارع الماسين.

ولما التفتت ريرات، كانت لولو تنظر إليها بوجه غريب وبدأت ريرات:

- ما الذى ...

فصاحت لولو:

ـ إننى أكرهك، وأكره بيير، وأكره هنرى، ماذا تريدون منى جميعًا؟ إنكم تعذبوننى.

وتوقفت على عجل واضطربت جميع ملامحها. فقالت ريرات بوقار هادئ:

ـ ابكى ـ ابكى فسينفعك البكاء.

وانطوت لولو على نفسها وأخذت تبكى. فأخذتها ريرات بذراعيها وضمتها إلى صدرها. كانت تداعب شعرها من وقت لآخر، لكنها كانت تحس فى داخلها بالبرود والاحتقار. ولما توقفت السيارة كانت لولو قد هدأت فمسحت عينيها ووضعت المسحوق على وجهها، وقالت بلطف:

ـ اعذرينى كنت متوترة الأعصاب. لم أكن أطيق رؤيته على تلك الحال، لقد كان يؤذينى.

فقالت ريرات، وقد عاودتها البشاشة:

ـ كان يشبه إنسان الغابة.

وابتسمت لولو، وسألتها ريرات:

ـ متى أراك ثانية؟

ـ أوه! ليس قبل الغد، هل تعرفين أن بيير لا يستطيع إيوائى بسبب أمه؟ فأنا أقيم فى فندق التياتر بإمكانك أن تأتى فى وقت مبكر، نحو الساعة التاسعة، إذا كان هذا لا يزعجك، لأننى ذاهبة لمقابلة أمى بعد ذلك.

كانت بيضاء شاحبة وفكرت ريرات بكآبة بالسهولة التى ترجع بها لولو إلى نفسها، وقالت:

ـ لا تشغلى بالك كثيرًا هذا المساء.

فقالت لولو:

ـ أنا متعبة جدا، وأتمنى أن يتركنى بيير لأعود فى ساعة مبكرة، لكنه لا يفهم هذه الأمور.

وأبقت ريرات السيارة بانتظارها لتقتادها إلى بيتها. وفكرت للحظة بأنها كانت ستذهب إلى السينما، لكنها لم تعد تتحمل ذلك. فألقت قبعتها على كرسى ومشت خطوة نحو النافذة، لكن السرير كان يجتذبها ببياضه وعذوبته وليونته. فهل تقفز فوقه لتستمتع بمداعبة الوسادة على خديها المحترقين "أنا قوية فأنا التى فعلت كل شىء من أجل لولو، والآن أرانى وحيدة وليس بوسع أحد أن يفعل شيئًا من أجلى". كانت تشفق على نفسها كثيرًا، ولشدة شفقتها تصاعدت إلى حنجرتها زحمة الدموع. "سيذهبان إلى نيس، ولن أراهما بعد الآن، فأنا التى صنعت سعادتهما، لكنهما لن يفكرا بى، وأنا سأظل هنا أعمل ثمانى ساعات فى اليوم، فى بيع اللآلئ المقلدة فى محل بورما". ولما بدأت الدموع تنحدرعلى خديها، ارتمت برفق فوق سريرها وكررت وهى تبكى بمرارة :

"إلى نيس .. إلى نيس .. إلى الشمس .. على الريفييرا ... "

- ٣ -

"بواه!"

ليل أسود، فكأن شخصا ما كان يمشى فى الغرفة: رجل يضع فى رجليه خفين. كان يقدم بعناية قدمه الأولى ويتبعها بالثانية، بدون أن يتمكن من تجنب القرقعة الخفيفة على الأرض. كان يتوقف، فيعم الصمت، ثم لا يلبث أن يتجه فجأة إلى جانب الغرفة الآخر متابعًا مشيته بدون هدف كالمعتوه. كانت لولو تشعر بالبرد، إذ إن الأغطية خفيفة جدًا. وقالت "بواه!" بصوت عال فخافت من صدى صوتها.

بواه! أنا متأكدة من أنه يتطلع الآن إلى السماء والنجوم، ويشعل سيجارة، وهو فى الخارج، وقال إنه يحب اللون البنفسجى فى سماء باريس. وبخطى وئيدة يعود إلى بيته، ويحس بأنه شاعرى عندما يقوم بهذا العمل، كما قال لى وبأنه رشيق كبقرة انتهوا للتو من حلبها، لم يعد يفكر بهذا وأنا أشعر أننى تلطخت. ولا يهمنى أن يكون طاهرًا فى هذه اللحظة، فقد ترك قذارته هنا فى الظلام، وهذه منشفة اتسخت، والغطاء رطب وسط السرير، فليس بإمكانى أن أمد رجلى لأننى سأشعر

بالرطوبة تحت جلدى، يا للقذارة، لكنه جاف هو، لقد سمعته يصفر تحت نافذتى عندما خرج؛ كان تحت النافذة، جافًا ونشيطًا فى ثيابه الزاهية، بسترته التى يرتديها فى الفصول المعتدلة، ينبغى أن نعترف أنه يحسن هندامه، ويمكن للمرأة أن تفخر بالخروج معه، كان تحت نافذتى، وأنا عارية فى الظلام، أشعر بالبرد، وأفرك بطنى بيدى لأننى كنت أحس بالرطوبة. وقال لى" سأصعد دقيقة فقط لأرى غرفتك". ظل ساعتين، والسرير يحدث صريرًا، يا له من سرير حديدى قذر، أتساءل فى نفسى ما الذى جعله يعثر على هذا الفندق، فقد قال لى إنه أمضى فيه خمسة عشر يومًا فى الماضى، وبأننى سأرتاح فيه، إنها غرف غريبة، رأيت منها اثنتين، لم أر قط غرفًا صغيرة كهذه، تعج بالأثاث، فيها وسائد صغيرة للجلوس عليها أرضا، وكنبات، وطاولات صغيرة، هذا يجعل الحب قذرا، لا أدرى إذا أمضى فيه خمسة عشر يومًا، لكنه بالتأكيد لم يمض هذه الأيام بمفرده، ينبغى أن يقدم لى الاحترام ما دام قد أنزلنى هذا المنزل. لقد كان يضحك الفتى الذى يعمل بالفندق ونحن نصعد إلى الغرفة، إنه جزائرى، إننى أكره هذا الشخص وأمثاله، وأخاف منهم، لقد نظر إلى ساقى، وبعدها عاد إلى المكتب، من المؤكد أنه قال فى نفسه: "حصل الأمر، إنهم يقومون بهذا "وتخيل أشياء قذرة، يبدو أن ما يفعلونه هناك مع النساء، مخيف، فإذا وقعت امرأة تحت أيديهم لابد أن تظل متعثرة طيلة حياتها.

وطوال الوقت الذى كان بيير يزعجنى فيه كنت أفكر بهذا الجزائرى الذى كان يفكر بما كنت أقوم به، وكان تصور قذارات تفوق القذارات التى حصلت فعلاً. هناك شخص ما فى الغرفة!

وحبست لولو أنفاسها، لكن القرقعة انقطعت بعد ذلك. أشعر بألم بين فخذى، يأكلنى، ويحرقنى، لدىّ رغبة بالبكاء، هكذا طوال الليل إلا فى الليلة القادمة لأننا سنكون آنئذ على متن القطار. وعضت لولو شفتها لأنها تذكرت أنها تتهدت. ليس صحيحًا، أنا لم أتنهد، بل تنفست بقوة، لأنه ثقيل الوزن بحيث إنه حين يكون فوقى يقطع لى نفسى، قال لى: "تتنهدين، تتلذذين!" أكره الكلام كثيرًا عند القيام بهذا العمل، أريد أن أنسى نفسى، لكنه لا ينفك عن سرد سفاهاته، أنا لم أتنهد

فى البدء، وإن كنت لا أستطيع أن أشعر باللذة، وهذا أمر واقع، فالطبيب هو الذى قال لى ذلك، إلا إذا اجتلبتها لنفسى، إنه لا يريد أن يصدق، وهم جميعًا لا يريدون أن يصدقوا، فجميعهم يقولون:

"ذلك لأن البداية كانت سيئة، أنا سأعلمك اللذة"، وكنت أسمح لهم بذلك، فأنا أعرف القصة حق المعرفة، وهذا سبب طبى، لكن هذا يثير أعصابهم.

كان أحدهم يصعد الدرج، ذاك الذى يهم بالدخول إلا إذا كان هو نفسه يا إلهى قد عاد. فهو مستعد لذلك إذا دفعته الرغبة. ليس هو، فهذه خطى ثقيلة، أو لعله - وهنا قفز قلب لولو فى صدرها - الجزائرى - فهو يعلم أننى وحدى، سيأتى ويدفع الباب، أنا لا أستطيع احتمال هذا، لا، إنه فى الطابق الأسفل، إنه شخص يعود إلى غرفته، يضع مفتاحه فى ثقب الباب، يلزمه بعض الوقت، إنه ثمل، أتساءل من يسكن هذا الفندق، فيه شىء خاص. صادفت بعد الظهر فتاة على الدرج، عيناها كعينى مدمن المخدرات. لم أتنهد! إلا أنه جعلنى أضطرب بأشيائه تلك، إنه يحسن العمل، وأنا أخاف الأشخاص الذين يحسنون العمل، فأنا أفضل أن أنام مع رجل طاهر. فاليدان اللتان تذهبان توًا إلى المكان المطلوب، اليدان اللتان تلامسان وتشدان قليلاً، وليس كثيرًا جدًا... إنهم يعتبرون أنك آلة يفخرون بأنهم يحسنون اللعب بها. أنا أكره أن يهزنى أحد، إن بلعومى قد جف، كما أننى خائفة، وفى فمى طعم، وأشعر بالذل لأنهم يعتقدون بأنهم يسيطرون على! "بيير" سأصفعه عندما يقول مفتخرًا: "عندى الأسلوب الفنى". رباه، أن نقول إن هذه هى الحياة، ومن أجل هذا نغتسل ونتجمل، وكل الروايات كتبت من أجل هذا، ويفكر الناس بهذا طيلة الوقت، وأخيرًا ليس هذا سوى أمر بسيط، أن نذهب مع شخص إلى غرفة، شخص يخنقك نصف اختناق، ويبلل جوفك فى النهاية. أريد أن أنام، آه! لو أستطيع فقط أن أنام قليلا، وغدًا سأسافر الليل بطوله، سأكون محطمة. أود مع ذلك أن أحافظ على بعض نشاطى لأتجول فى نيس، يبدو أنها جميلة، فيها شوارع إيطالية صغيرة وملابس ملونة تجف فى الشمس، سأستقر مع الحامل، وأبدأ فى الرسم، وستأتى فتيات صغيرات ليرين ما أصنعه.

يا للقذارة! (كانت قد تقدمت قليلاً فلامست خاصرتها بقعة الغطاء المبللة). من أجل هذا هو قد اصطحبني.

لا أحد، لا أحد يحبني. كان يسير بجواري، وكانت قواى خائرة، أنتظر كلمة من كلمات الحنان، كأن يقول :

"أحبك" لما عدت بالطبع إليه، غير أننى أقول له آنئذ قولاً لطيفًا، وهكذا نفترق كأصدقاء طيبين، وكنت أنتظر وأنتظر فأخذ ذراعى فتركتها له، فغضبت ريرات، إذ ليس صحيحًا أنه كان يشبه، إنسان الغابة، لكننى كنت أعرف أنها تفكر بشىء كهذا، إذ كانت تنظر إليه شذرًا بعينين قذرتين، إنه لمدهش جدًا أن تكون قادرة على الشر إلى هذا الحد ورغم هذا، حين أخذ ذراعى لم أقاوم، ولكن لست "أنا" التى كان يريد، فهو كان يريد "امرأته"، لأنه اقترن بى، وهو زوجى؛ كان ينقص دائمًا من قدرى ويقول إنه أكثر منى ذكاء، وكل ما حصل إنما حصل بسببه، فلو عاملنى من غير تكبر لبقيت معه حتى الآن. أنا متأكدة من أنه لا يأسف على فى هذه اللحظة، فهو لا يبكى بل يشخر، وهذا كل ما يعمله، إنه مسرور لأن السرير أصبح له وحده، وبإمكانه أن يمد عليه ساقيه الضخمتين. أريد أن أموت. أشعر بالخوف الشديد من أن يسىء الظن بى. لم يكن بوسعى أن أشرح له شيئًا لأن ريرات كانت بيننا، كانت تتحدث وتتحدث، وكأنها مصابة بالهستيرية، إنها مسرورة فى الوقت الحاضر، راضية عن نفسها لما أبدته من شجاعة، يا للخبث تجاه هنرى الوديع كالحمل. سأذهب. فليس بإمكانهم أن يرغموننى مع ذلك على هجره كالكلب. وقفزت خارج السرير وأدارت الزر، جواربى وردائى الداخلى هذا يكفى. ولم تكلف نفسها عناء تسريح شعرها، فهى على عجلة من أمرها، والناس الذين سيروننى لن يدركوا أننى عارية تحت معطفى الرمادى الذى ينزل حتى القدمين. والجزائرى ـ وهنا توقفت وقلبها يخفق بشدة ـ علىّ أن أوقظه ليفتح لى الباب. ونزلت بخطى حثيثة لكن الدرجات أخذت تقرقع واحدة تلو الأخرى؛ ونقرت على زجاج المكتب، فقال الجزائرى:

ـ ما هذا؟ كانت عيناه مائلتين للاحمرار وشعره مبعثرًا، ولم يكن يبدو عليه أى مظهر للرعب أو الخوف.

فقالت لولو بجفاء: افتح لى الباب.

وما هى إلا ربع ساعة حتى طرقت باب هنرى.

فسأل هنرى من الباب :

ـ من هنا؟

ـ أنا.

لم يجب بشىء فهو لا يريد أن يسمح لى بالدخول إلى بيتى. لكننى سأظل أضرب على الباب حتى يفتحه، سيعود عن إصراره بسبب الجيران. وما هى إلا لحظة حتى فتح الباب قليلاً، وبدا فيه هنرى شاحب اللون على أنفه نقطة احمرار بسيط، كان بلباس النوم.

وفكرت لولو بحنو: "إنه لم ينم"

ـ لم أكن أريد الذهاب على هذا الشكل، أردت أن أقابلك ثانية.

لم يقل هنرى شيئًا، فدخلت لولو بعد أن دفعته قليلاً. كم هو مرتبك إنه لايزال فى طريقها، ونظر إلىّ بعينين مستديرتين وذراعين خائرتين، وهو لا يدرى ما عليه أن يفعل بجسمه. أسكت، أذهب، أسكت، أرى تمامًا أنك متأثر وأنك لا تستطيع الكلام. وأجهد نفسه ليبلع لعابه، وأقفلت لولو الباب، وقالت:

ـ أريد أن نهجر بعضنا، ونظل أصدقاء.

وفتح فمه، وكأنه يريد الكلام، ودار فجأة حول نفسه، وهرب. ماذا يصنع؟ لم تجرؤ على اللحاق به، هل هو يبكى؟ سمعته فجأة يسعل: إنه فى المرحاض. وحين عاد تعلقت بعنقه وألصقت فمها بفمه، كانت تفوح منه رائحة القىء وأجهشت لولو بالبكاء وقال هنرى :

ـ إنى أشعر بالبرد.

فاقترحت عليه باكية:

ـ فلننم، بإمكانى أن أبقى إلى صبيحة الغد.

وناما، واهتزت لولو بالدموع المنهمرة، لأنها عادت إلى غرفتها وإلى سريرها الجميل النظيف، والضوء الأحمر فى الزجاج. وفكرت بأن هنرى سيأخذها بين ذراعيه، لكنه لم يفعل شيئا من هذا: كان ينام على طول السرير، وكأن فيه وتدًا، كما أنه جامد، وكأنه يتحدث إلى شخص سويسرى، أمسكت رأسه بكلتا يديها ونظرت إليه بإمعان، "أنت طاهر، أنت، أنت طاهر" فأخذ يبكى، وقال:

ـ كم أنا بائس ، لم أكن قط بائسًا إلى هذا الحد.

فقالت لولو:

ـ ولا أنا.

وبكيا طويلا، وما هى إلا هنيهة حتى أطفأت النور، ووضعت رأسها على كتفه. لو كان باستطاعتنا البقاء على هذا الحال إلى الأبد طاهرين كئيبين كالأيتام لكن هذا مستحيل، لأنه لا يجرى فى الحياة. كانت الحياة كموجة ضخمة تذوب فوق لولو وتنتزعها من بين ذراعى هنرى. يدك. يدك الكبيرة.. إنه فخور بيديه لأنهما كبيرتان، إنه يقول إن المنحدرين من الأسر العريقة لهم دائمًا أطراف كبيرة. لم يأخذ قامتى بين يديه ـ كان يدغدغنى قليلاً لكننى فخورة لأنه أصبح بإمكانه أن يضم أصابعه إلى بعضها. ليس صحيحًا أنه عاجز، إنه طاهر، طاهر ـ وخامل نوعًا ما، وابتسمت من خلال دموعها وقبلته على ذقنه. وقال هنرى:

ـ ما ينبغى أن أقول لأهلى ـ ستموت والدتى من هول الخبر.

لن تموت مدام كرسبان من الخبر، بل بالعكس ستنتصر. سيتحدثون عنى عندما يجلس الخمسة إلى المائدة وعلى وجوههم سيماء الملامة كالناس الذين يريدون أن يقولوا أشياء كثيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك، بسبب وجود تلك الفتاة الصغيرة، ذات الستة عشر ربيعا، الصغيرة جدا، لكى يتحدثوا أمامها عن بعض

الأمور. ستضحك فى داخلها لأنها ستعرف كل شىء، وهى تعرف دائمًا كل شىء، وتمقتنى، كل هذا الوحل! والمظاهر ليست إلى جانبى - ورجته لولو:

- لا تخبرهم فى الحال، قل إننى ذهبت إلى نيس من أجل صحتى.

- لن يصدقونى.

وقبلت هنرى قبلات صغيرة على طول وجهه.

- هنرى، أنت لم تكن لطيفًا ما فيه الكفاية معى.. فقال هنرى:

- هذا صحيح، لم أكن لطيفًا ما فيه الكفاية.

وأضاف معلقًا:

- ولا أنت، كنت لطيفة بما فيه الكفاية.

فقالت لولو:

- وأنا كذلك! هووه؟ يا لنا من تعيسين!

وبكت بقوة إلى حد أنها كادت تختنق: سويعات ويطلع النهار، وستذهب. ليس بالإمكان أن يفعل المرء ما يريد بل إنه مساق.

وقال هنرى:

- لم يكن ينبغى أن تذهبى وأنت على هذه الصورة.

وتنهدت لولو.

- كنت أحبك كثيرًا يا هنرى

- والآن: ألم تعودى تحبينى؟

- ليس كما فى السابق

- وبصحبة من ستذهبين؟

- مع أشخاص لا تعرفهم .

فقال هنرى بغضب:

ـ كيف أنك تعرفين أشخاصًا لا أعرفهم ـ فأين قابلتهم؟

ـ دع عنك هذا يا عزيزى، يا جلفر الصغير، هل ستقوم بدور الزوج فى هذه اللحظة؟

فقال هنرى باكيًا:

ـ تذهبين مع رجل!

ـ أصغ يا هنرى، أقسم لك أننى لا أذهب، أقسم لك على رأس أمى بأن الرجال يثيرون اشمئزازى كثيرًا هذه الأيام. فأنا أذهب مع أصدقاء ريرات وهم متقدمون فى السن. أريد أن أعيش وحيدة وسيجدون لى عملاً، أوه يا هنرى؟ لو تدرى كم أنا بحاجة للعيش بمفردى، ولكم يثير اشمئزازى كل هذا.

فقال هنرى:

ـ ماذا؟ ما الذى يثير اشمئزازك؟

ـ كل شىء!

وقبلته.

ـ أنت وحدك الذى لا تثير اشمئزازى يا عزيزى.

وأدخلت يدها تحت بيجامة هنرى، وداعبت جسمه بجميع أنحائه فارتعش تحت يديها الباردتين لكنه قبل بذلك، إلا أنه قال:

ـ سأصاب بأذى.

ـ كان فيه ولا شك شىء قد انكسر.

فى الساعة السابعة ـ نهضت لولو ـ وقد تورمت عيناها من شدة البكاء، وقالت بإعياء:

ـ علىّ أن أعود إلى هناك؟

- أين هناك؟

- أنا فى فندق التياتر فى شارع فاندام. إنه فندق قذر.

ابقى معى.

- كلا يا هنرى، أرجوك، لا تلح علىّ، قلت لك إن هذا مستحيل.

"إن الأمواج هى التى تحملك، إنها الحياة، وليس بإمكاننا أن نطلق الأحكام، ولا أن نفهم الأمور، وما علينا إلا أن ندع الأمور تجرى. وغدًا سأذهب إلى نيس". ودخلت إلى المغسلة لتغسل عينيها بالماء الفاتر، وارتدت معطفها وهى ترتجف. "لكأنه مصير محتوم. شريطة أن أتمكن من النوم فى القطار هذه الليلة، وإلا فستخور قواى حال وصولى إلى نيس. آمل أن يكون قد حجز فى الدرجة الأولى، ستكون المرة الأولى التى أسافر فيها بالدرجة الأولى، هكذا دائمًا تكون الأمور: ها قد مرت سنوات وأنا أرغب فى القيام برحلة طويلة بالدرجة الأولى، وما إن يتحقق هذا الحلم حتى لم أعد أجد لذة فيه". كانت تستعجل خروجها، فى الوقت الحاضر، لأن هذه اللحظات الأخيرة كانت من الأمور التى لا تطاق. وسألته:

- ماذا ستفعل مع هذا المدعو غالوا؟

كان غالوا قد طلب إعلانًا من هنرى، ولما قام هنرى بتنفيذ الطلب فى الوقت الحاضر، رفضه غالوا.

وقال هنرى:

- لا أدرى.

كان قد انطوى على نفسه تحت الأغطية ولم يعد يرى سوى شعره وطرف أذنه وقال بصوت بطىء رخو:

- أريد أن أنام طيلة ثمانية أيام.

فقالت لولو:

- وداعًا يا عزيزى.

ـ وداعًا.

وانحنت قليلاً فوقه، وأزاحت الأغطية، وقبلته فى جبينه، مكثت طويلاً على الدرج دون أن تقدم على إغلاق باب الشقة، وما هى إلا لحظة حتى أدارت عينيها وجرت القبضة بقوة، وسمعت ضجة جافة وكاد أن يغمى عليها: لقد اعتراها الانطباع نفسه الذى أحست به عندما ألقوا بجرافة من التراب فوق نعش أبيها.

"لم يكن هنرى لطيفًا، كان ينبغى أن يقف و يرافقنى حتى الباب، يبدو لى أن حزنى كان سيصير أقل لو كان أغلق الباب بنفسه".

ـ ٤ ـ

قالت ريرات، وهى تنظر إلى البعيد.

ـ لقد أقدمت على هذا العمل! أقدمت على هذا!

الوقت مساء، نحو الساعة السادسة كان بيير قد اتصل هاتفيا بريرات فجاءت لمقابلته فى مقهى الدوم.

وقال بيير:

ـ ولكن أنت، أما كان ينبغى ألا تذهبى لمقابلتها فى الساعة التاسعة؟

ـ لقد قابلتها.

ـ ألم تكن هيئتها غريبة؟

فقالت ريرات:

ـ كلا، لم ألاحظ شيئًا. كانت متعبة نوعًا ما، لكنها قالت لى إنها نامت نومًا سيئًا بعد ذهابك لأنها كانت شديدة التأثر أمام فكرة السفر إلى نيس، ولأنها كانت تخشى الفتى الجزائرى... كما أنها سألتنى إذا كنت أعرف إن كنت قد اخترت المكان فى الدرجة الأولى، إذ إن هذا كان حلم حياتها أن تسافر بالدرجة الأولى. وأضافت ريرات بتصميم: كلا أنا متأكدة من أن شيئًا من هذا القبيل لم يجل بخاطرها، طيلة وجودى معها على الأقل. لقد مكثت ساعتين معها، وإننى

شديدة الملاحظة لأشياء كهذه، ويدهشنى أن يفوتنى منها أمر ما. ستقول لى إنها كاتمة للأسرار، لكننى أعرفها منذ أربع سنوات، ورأيتها فى زحمة المناسبات، إننى أضع لولو على طرف إصبعى.

- إذن، إن هناك من دفعها إلى ذلك. إذن فهم آل تكسييه الذين قرروا ذلك. يا له من أمر غريب.

وحلم لبضع ثوان وأضاف فجأة:

- أود أن أعرف من الذى أعطاهم عنوان لولو، فأنا الذى اخترت الفندق ولم تكن قد سمعت به مسبقًا.

- كان يعبث برسالة لولو، وريرات يبدو عليها الانزعاج لأنها كانت تريد قراءة الرسالة، لكن بيير لم يقترح عليها ذلك، وسألت أخيرًا:

- متى تلقيتها؟

- الرسالة؟

فأعطاها إياها ببساطة:

- خذى، بإمكانك قراءتها لعلهم وضعوها عند الحارس نحو الساعة الواحدة. كانت ورقة بنفسجية رقيقة كالأوراق التى تباع فى مخازن التبغ:

- عزيزى الكبير:

"جاء آل تكسييه (لست أدرى من أرشدهم إلى العنوان) سأسبب لك كثيرا من الألم، ولكننى لن أذهب يا حبيبى، يا عزيزى بيير. سأظل مع هنرى لأنه تعيس جدا. فقد ذهبوا لزيارته هذا الصباح، لم يكن يريد أن يفتح، قالت السيدة تكسييه إن صورته لم تعد كصورة الإنسان. لقد كانوا لطفاء جدا وفهموا جميع مبرراتى. وقالت إنه مصدر الأخطاء كلها، وإنه دب، ولكنه ليس شريرا فى جوهره. وقالت إنه يستحق هذا التصرف ليدرك إلى أى حد يتمسك بى. لا أدرى من الذى أعطاهم عنوانى، لم يقولوا ذلك لى، لعلهم شاهدونى صدفة حين خرجت من الفندق بصحبة ريرات. وقالت لى السيدة تكسييه إنها تدرك تماما

قيمة التضحية التى تطلب إلى القيام بها، لكنها تدرك أننى لن أتخلف عن القيام بالتضحية. إننى آسف كثيرا على رحلتنا الجميلة إلى نيس، يا حبيبى ولكنى أعتقد أنك ستكون الأقل حزنا لأنك لى على الدوام. أنا لك من كل قلبى وبكل جسمى، وسنتقابل أكثر مما كنا نتقابل فى الماضى. لكن هنرى سينتحر بدونى، فأنا بالنسبة إليه لا يمكن الاستغناء عنى؛ وأؤكد لك بأننى لا أجد متعة فى تحمل مسئولية كهذه. وآمل ألا تغضب كثيرا كعادتك فتخيفنى فأنت لا تريد أن يعترينى عذاب الضمير. سأعود إلى بيت هنرى فى الحال. ولابد أن أكون مضطربة حين أفكر أننى سألاقيه على هذه الحال لكنه ستكون لدى الشجاعة حتى أفرض شروطى. أولا أريد مزيدا من الحرية لأننى أحبك، وأريد أن يترك روبير وشأنه، وألا يتفوه بكلمة بحق والدتى. عزيزى، أنا حزينة جدا، أريدك أن تبقى هنا، فأنا راغبة بك، وأضم صدرى إليك وأشعر بمداعبتك فى جميع أنحاء جسمى. سأكون غدا فى الخامسة فى مقهى الدوم.

لولو"

- يا لك من مسكين يا بيير.

أخذته ريرات بيده. فقال بيير:

- أقول لك إننى أندم من أجلها هى فقط! كانت بحاجة للهواء وللشمس. لكنها إذ تقدم على هذا القرار...

وأضاف:

- كانت أمى تسبب لى متاعب شديدة. فالفيلا هى ملكها، ولم تكن تريد أن أقود إليها أية امرأة.

فقالت ريرات بصوت شبه مقطوع:

- آه؟ آه؟ حسنا جدا، فإن الجميع مسرورون!

وتركت يد بيير وأحست دون أن تعرف السبب، بالأسف المرير يجتاحها.

طفولة قائد

"أنا رائع فى بذلة الملاك هذه" قالت السيدة بوتييه لأمي:

- "ولدك الصغير يلذ أكله. فهو رائع في بذلة الملاك". وجذب السيد بوفارديبه لوسيان إلى ما بين ساقيه وداعب ذراعه، وقال مبتسمًا:

"حقا إنه لفتاة صغيرة". ما اسمك؟ جاكلين، لوسيان، مارجو؟

واحمر وجه لوسيان خجلا، وقال "اسمى لوسيان". ولم يكن متأكدا تماما من أنه ليس فتاه صغيرة؛ فكثير من الناس كانوا يقبلونه وهم يدعونه بالآنسة، ووجده الجميع جذابا بجناحيه الملائكيين، وثوبه الأبيض الطويل، وذراعيه المكشوفتين وجدائله الشقراء. كان يخشى أن يقرر الناس فجأة أنه لم يعد صبيًا، ولطالما احتج، ولكن أحدًا لم يصغ إليه، ولم يسمح له بخلع فستانه إلا عند النوم، وفى الصباح عندما يستيقظ يجد الفستان على طرف السرير، وعندما يريد أن يبول أثناء النهار، كان عليه أن يشمر ثوبه مثل نانيت، وأن يجلس القرفصاء على رجليه، كان الجميع ينادونه: "يا عزيزتي الصغيرة"، لعل الأمر قد انتهى وأصبحت فتاة صغيرة، كان يحس بأنه شديد الرقة من الداخل، وأن ذلك أمر مقزز بعض الشيء كما أن صوته يخرج من بين شفتيه بمقدار، وهو يقدم الزهور لجميع الناس بحركات دائرية؛ شعر بأن لديه رغبة فى أن يعانق مفصده ثم فكر: ليس هذا حسنًا، كان بوده ألا يكون هذا حسنا، لكنه تسلى كثيرًا يوم الثلاثاء من أيام الفصح، ألبسته أمه ثيابا على طريقة بيارو، وركض وقفز وهو يضحك مع ريري،

وكانا يختبآن تحت الطاولة. وضربته أمه ضربة خفيفة وقالت:"أنا فخورة بولدى الصغير". كانت قوية الشخصية جميلة كما كانت أكثر النساء سمنة وطولا. وعندما مر أمام الطاولة الكبيرة المغطاة بغطاء أبيض رفعه أبوه وكان يحتسى قدح الشمبانيا وقال له: يا رجلي الطيب! وأراد لوسيان أن يبكي وأن يقول "نانا" وطلب عصير البرتقال المثلج، وكان قد منع عنه. لكنهم صبوا له قدر إصبعين في كأس صغير. كان طعمه كريهًا وليس شديد البرودة: أخذ لوسيان يفكر بالعصير الممزوج بالخروع الذى كان يشربه أثناء مرضه. وأجهش بالبكاء ووجد تعزية لنفسه في الجلوس بين أمه وأبيه في السيارة. كانت الوالدة تضم لوسيان إليها، وهي معطرة دافئة، ترتدي لباسًا حريريًا. وكان داخل السيارة يتحول من وقت لآخر إلى لون أبيض كالطباشير، فيحرك لوسيان عينيه، أما الزهور التي كانت موجودة على صدرية أمه، فكانت تخرج من الظل فيستنشق لوسيان رائحتها. وبكى قليلاً بعد ذلك لكنه أحس بأنه مبلل، وكريه ولزج نوعًا ما مثل عصير البرتقال. لطالما أحب أن يتخبط في المغطس وتغسله أمه بالإسفنج. كان يسمح له بأن ينام في غرفة أبيه وأمه كما لو كان صغيرًا، فصار يضحك ويحرك زنبرك السرير فيقول والده" هذا الولد شديد النشاط"، وشرب قليلاً من ماء الورد ورأى أباه بالقميص.

وفي صبيحة الغد كان لوسيان متأكدًا من أنه نسى شيئًا ما. إنه يتذكر تمامًا الحلم الذي رآه: فقد رأى أباه وأمه يرتدي كلاهما ثياب الملائكة، ولوسيان جالس بدون ثياب فوق مبولته، يضرب على الطبل وأبوه وأمه يدوران حوله. كان ذلك كابوسًا. ولكن هناك شيئًا ما حدث قبل الحلم فاضطر لأن يستيقظ. وكلما حاول أن يتذكر كان يرى نفقا أسود مضاء بمصباح أزرق شبيه بالمصباح الذي يضيئونه مساء في غرفة أبويه. ففي أعماق هذا الليل المعتم الأزرق، قد حدث شيء ما - شيء ما أبيض اللون. وجلس على الأرض عند قدمي أمه وأمسك طبلة، فقالت له أمه:

"لماذا تنظر بهاتين العينين يا جوهرتي؟" فأخفض عينيه وضرب على طبلة، وهو يصيح: "بوم، بوم، ترا را بوم" لكنها لما أشاحت بوجهها أخذ ينظر إليها بإمعان وكأنه يراها للمرة الأولى. الفستان الأزرق والوردة من النسيج كان يعرفه،

والوجه أيضا. إلا أنه بات مختلفًا، وظن فجأة بأن الأمر قد تم. فلو فكر قليلاً لتوصل إلى ما يريد. وأضيء النفق بنور داكن، كان شيء ما يتحرك فيه. أحس لوسيان بالخوف وأطلق صيحة: لقد اختفى النفق. وقالت أمه: "ما بك يا عزيزي الصغير؟" وركعت على مقربة منه وبدت عليها ملامح القلق. فقال لوسيان: "إنني أتسلى" كانت رائحة والدته لذيذة، لكنه خشي أن تمد يدها إليه. كانت تبدو غريبة وكذلك أبوه. وقرر ألا ينام بعد اليوم في غرفتها.

في الأيام التالية، لم تلحظ الوالدة شيئًا فهو دائمًا في حضنها كالمعتاد يحدثها كما لو كان رجلا صغيرا بحق. وطلب إليها أن تقص عليه قصة "ذات الرداء الأحمر" ووضعته والدته على ساقيها. وأخذت تحدثه عن الذئب وعن جدة الفتاة بإصبع مرفوع، وهى مبتسمة وإجادة ولوسيان ينظر إليها ويقول:

"وبعدها؟" وكان يداعب في بعض الأحيان خصلاتها المجعدة التي على عنقها، لكنه لم يكن يصغي إليها بل يتساءل إذا كانت هي أمه الحقيقية. وعندما تفرغ من قصتها يقول لها: "أمي، أخبريني عندما كنت فتاة صغيرة"، وأخبرته أمه: ولعلها كانت تكذب عليه. لعلها كانت في الماضي صبيًا صغيرًا ألبسوها فساتين ـ كما فعلوا مع لوسيان في تلك الأمسية ـ وأنها لا تزال ترتديها للتظاهر بأنها فتاة. وجس برفق ذراعيها الجميلتين اللتين كانتا ـ تحت لباس الحرير ـ ناعمتين كالزبد. ماذا يحدث لو خلعت أمه فستانها وارتدت سروال أبيه؟ لعل شاربا أسود ينبت في وجهها. وشد على ذراع أمه بكل قواه. وتهيأ له أنها ستتحول أمام عينيه إلى وحش رهيب ـ أو أن تصبح امرأة ذات لحية كامرأة المعرض. وضحكت فاتحة فمها الواسع، فأبصر لوسيان لسانها الوردي وآخر حلقها: كان قذرًا، واعترته رغبة في أن يبصق فيه. وتقول أمه، "ها ها ها! كم أنك تضمني يا رجلي الصغير!

ضمني بقوة. بقدر ما تحبني". وتناول لوسيان إحدى اليدين الجميلتين ذات الخواتم الفضية وأمعن فيها تقبيلاً. ولكن، في صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت تجلس بجواره تمسك بيديه بينما هو جالس فوق المبولة، تقول له: "اضغط يا لوسيان، اضغط، يا جوهرتي الصغيرة، أتوسل إليك". توقف فجأة عن الضغط

وسألها لاهثًا: "هل أنت أمي الحقيقية على الأقل؟" وقالت له "أيها المغفل الصغير" وسألته إذا كان سيتم الشيء بسرعة. منذ ذلك اليوم بات لوسيان مقتنعًا بأنها تقوم بالتمثيل أمام عينيه، وبأنه لن يقول لها إنه سيتزوجها عندما يصبح كبيرًا لكنه لم يكن يعرف كثيرًا ما هي تلك المهزلة: إذ من الممكن أن يكون اللصوص قد جاءوا في الليل فسرقوا أمي وأبي ووضعوا هذين في مكانهما. أو أنهما والدى بالفعل، لكنهما يلعبان دورًا في النهار، بينما هما يختلفان في الليل. اندهش لوسيان كثيرًا عشية عيد الميلاد حين استفاق مذعورًا ورآهما يضعان الألعاب في المدخنة. وفي الصباح يسمعهما يتحدثان عن بابا نويل، ويتظاهر لوسيان بأنه يصدقهما. كان يظن أن ذلك من ضمن أدوارهما. ولعلهما سرقا الألعاب. في شهر فبراير أصيب بالحمي القرمزية وتسلى كثيرًا.

ولما شفي، اعتاد على تمثيل دور اليتيم. كان يجلس وسط المرج، تحت شجرة الكستناء، يملأ يدية بالتراب ويفكر: "سأصبح يتيمًا وسأدعي لويس ولن أتناول طعامًا قبل ستة أيام. ونادته الخادمة جرمين ليتناول طعام الغداء، جلس إلى المائدة وتابع اللعبة. ولم يلاحظ أمه وأبوه شيئًا. لقد التقطه لصوص يريدون أن يجعلوا منه لصا. وحين ينتهي من تناول الطعام، سيهرب ليشكوهم. أكل وشرب قليلاً جدًا. كان قد قرأ كتاب فندق الملاك الحارس، إن الوجبة الأولى التي يتناولها الرجل الجائع تكون خفيفة. كان شيئًا ممتعًا لأن الجميع يلعبون. فأمة وأبوه يلعبان دور الأب والأم. والأم تلعب دور المعذبة لأن جوهرتها لا تأكل كفاية، وأبوه يلعب دور قارئ الجريدة ويهز من وقت لآخر إصبعه في وجه لوسيان قائلاً: "بدا بوم، أيها الرجل الطيب". ولوسيان كان يلعب أيضًا، إلا أنه انتهى إلى عدم تمييز الدور الذي كان يلعبه. أهو يلعب دور اليتيم؟ أم دور لوسيان؟ ونظر إلى القنينة. كان هناك ضوء أحمر خافت يتراقص في قعر المياه، ولعلنا كلنا نكاد أن نقسم بأن يد أبيه كانت في القنينة، وهي كبيرة مضيئة، على أصابعها شعيرات سوداء. وتهيأ للوسيان أن القنينة تلعب دور القنينة. وأخيرًا، لم يكن يمد يده إلى الأطباق وقت الطعام وبعد الظهر جاع كثيرًا مما اضطره إلى سرقة اثنتي عشرة خوخة، وكاد أن يصاب بعسر الهضم. وفكر بأنه اكتفى من لعب دور لوسيان.

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك وبدا له طيلة الوقت أنه يلعب كان بوده أن يكون مثل السيد بوناردييه الدميم الخلقة والرصين معًا. كان السيد بوناردييه حين يريد أن يأكل، ينحني على يد الوالدة قائلا لها: "تحياتي، يا سيدتي العزيزة". ويقف لوسيان وسط قاعة الاستقبال متطلعًا بإعجاب".

ولكن لم يكن يحصل للوسيان أي أمر مهم. فحين يقع ويتورم، يتوقف عن البكاء ويتساءل: "هل أنا تورمت؟"، عندها يشعر بأنه أكثر كآبة وتتهمر الدموع من عينيه. ولما قبل يدي الوالدة، وهو يقول لها: "تحياتي يا سيدتي العزيزة". وتبعثر الوالدة شعره قائلة له: "ليس هذا مناسبًا يا فأرتي الصغيرة، فلا ينبغي أن تهزأ من الأشخاص الكبار"، مما يجعله يشعر بأن همته قد ثبطت. ولم يكن يتوصل إلى إيجاد بعض الأهمية لنفسه إلا يومى الجمعة الأولى والثالثة من كل شهر. ففي هذين اليومين، كان كثير من النساء يأتين لزيارة أمه، من بينهن اثنتان أو ثلاثة في ثياب الحداد. كان لوسيان يحب النساء المتشحة بالسواد خصوصًا إذا كانت أرجلهن طويلة. كان يستمتع بوجود السيدات الكبار بصورة عامة، لأنهن كن شديدى الوقار، حتى إننا لا نعتقد أنهن يغفلن فوق الأسرة عن هذه الأشياء التى يأتى بها الصبية الصغار، ولا يمكن أن نتصور ما يوجد تحت ثيابهن لكثرة تلك الثياب وألوانها القاتمة. وعندما يجتمعن، فهن يأكلن من كل شيء وتتحدثن، حتى ضحكاتهن فهي رزينة، وجميلة كما فى القداس. كن يعاملن لوسيان وكأنه إحدى الشخصيات. كانت مدام كوفان تأخذ لوسيان على ركبتيها وتجس فخذيه قائلة: "إنه أجمل ظريف رأيته". عندها، تسألة عن أذواقه، وتقبله وتستفسر عما يريد أن يفعله في المستقبل. وتارة ما كان يجيب بأنه سيصبح قائدًا كبيرًا على غرار جان دارك وبأنه سيستعيد الألزاس ـ اللورين من الألمان، وتارة يفكر بأن يكون مبشرا. كان يصدق نفسه طيلة الوقت الذي يتكلم فيه. كانت السيدة بيس امرأة طويلة قوية ذات شارب صغير. تقلب لوسيان وتداعبه قائلة: "يا لعبتي الصغيرة". وكان لوسيان يشعر بلذة ويتلوى تحت يديها اللتين تداعبانه. وكان يرى فى نفسه أنه لعبة صغيرة، لعبة صغيرة جذابة للسيدات الكبار وتمنى لو أن السيدة بيس تنزع ثيابه، وتغسله وتضعه في سرير صغير لينام كعروسة لعبة من المطاط. وكانت

مدام بيس تقول أحيانًا: "هل تتكلم لعبتي؟" وتضغط على معدته فجأة. فيتظاهر لوسيان بأنه عروسة آلية ويقول:

"كويك" بصوت مخنوق، فيضحك الاثنان.

كان يسأله الكاهن الذي كان يأتي للغداء كل سبت إذا كان بالفعل يحب والدته. ولوسيان كان يحب والدته الجميلة حتى العبادة وكذلك أباه القوي الطيب. فيجيب: "نعم" وهو ينظر إلى الكاهن في عينيه، بهيئة تجعل الجميع يضحك معه. كان رأس الكاهن كثمرة التوت حمراء ومحببة مع نبت شعرة فى كل حبة. ويقول الكاهن للوسيان إن هذا حسن، وإن على المرء أن يحب أمه دائما، ثم يسأله إذا كان يفضل والدته على الله أو العكس. ولم يستطع لوسيان أن يعثر على الإجابة فى التو فراح يحرك خصلات شعره ويضرب الأرض صائحا: "بوم، ترارا، بوم". وتابع الأشخاص الكبار حديثهم وكأنه ليس موجوداً. وركض إلى الحديقة وتسلل إلى الخارج من البوابة الخلفية. وحمل عصاه الصغيرة المصنوعة من الخيزران. لم يكن ينبغى على لوسيان الخروج من الحديقة على الإطلاق، فقد كان ذلك ممنوعا. وكان لوسيان طفلا حكيما عاقلا، لكنه قرر هذه المرة أن يعمد إلى العصيان ونظر إلى الأشجار المتداخلة العالية التى تحيط بالحديقة نظرة ملؤها الريبة والحذر. من الواضح أنه مكان محظور عليه تخطيه. كان الجدار قاتما ضاريا إلى السواد، تحيط به نباتات شوكية خبيثة ضارة، وكان كلب قد قضى أسفل هذه النباتات. هناك كانت تفوح رائحة النباتات، وروث الكلب والنبيذ الساخن. وضرب لوسيان بعصاه صائحًا: "أنا أحب أمي، أنا أحب أمي". ورأى أغصان النباتات المتدلية بزغبها وألوانها الضاربة إلى البياض تتكسر ويسقط عنها رحيق أبيض اللون. وسمع صدى صغيرا منفردا يصيح: "أحب أمي. أحب أمي". وكانت هناك ذبابة زرقاء كبيرة تئز: كانت ذبابة من تلك التي تحوم على الأقذار، فزع لوسيان منها وملأت أنفه رائحة عفنة. فأخذ يكرر قوله: "أحب أمي "لكن صوته بدا غريبا، فاعتراه خوف شديد ففر لتوه إلى قاعة الاستقبال. منذ ذلك اليوم، فهم لوسيان أنه لا يحب أمه. ولم يكن يشعر بالذنب بسبب ذلك، لكنه ضاعف من دماثته لأنه فكر بأن من الواجب أن يتظاهر الإنسان طيلة حياته بأنه

يحب أهله وإلا سيكون ولدًا شريرًا. كانت السيدة فلورييه تجد لوسيان شديد الرقة. واندلعت الحرب في هذا الصيف، وذهب الأب إلى القتال، ورأت الأم نفسها سعيدة، وسط أحزانها، باهتمام لوسيان بها. ففي كل مرة تذهب فيها إلى الحديقة لتستريح من عنائها، يعمد لوسيان إلى حمل مخدة يضعها تحت رأسها أو يحمل غطاء ويضعه فوق ساقيها فتقول له: "لكن هذا سيجعلني أشعر بشدة الحر، كم أنت لطيف يا رجلي الصغير" وكان بدوره يقبلها بعنف قائلاً لها: "يا أمي أنا!". ويذهب ليجلس في ظل شجرة الكستناء.

ويقول "شجرة الكستناء" وينتظر. لكن شيئا ما لا يحدث.

كانت الوالدة مستلقية تحت الشرفة، وسط سكون خافت. وكانت تفوح رائحة العشب الساخن، والجو الملائم لتقليد المغامرين في الغابة العذراء. لكن لوسيان لم يعد يرغب في اللعب. كان الهواء يرتجف فوق قمة الجدارالحمراء، والشمس تترك بقعًا محرقة على الأرض وعلى يدي لوسيان. "شجرة الكستناء!" كان أمرًا مثيرًا حين يقول لوسيان لأمه "يا أمي الجميلة، يا أمي أنا". تضحك أمه، وحين ينادي جرمين بالبندقية القديمة، تبكي جرمين وتشكوه إلى الوالدة. ولكنهم حين يلفظون كلمة شجرة الكستناء، لم يكن يحصل أى شيء. وتمتم من بين أسنانه "يا لها من شجرة قذرة ". ولم يكن مطمئنا، ولكن بما أن الشجرة لا تتحرك، فقد كان يضيف بصوت أكثر ارتفاعا: "يا للشجرة القذرة، يا لشجرة الكستناء القذرة! انتظري وسترين، انتظري قليلاً!" وكان يرفسها برجله مرات عديدة. وتظل الشجرة هادئة، هادئة - كما لو أنها كانت من خشب. وفي المساء عند العشاء يقول لوسيان لأمه: "هل تدرين يا أمي، الأشجار هى من الخشب". يقول ذلك بوجه المندهش الذي تحبه الأم كثيرًا. غير أن السيدة فلورييه لم تتلق رسالة في بريد الظهر. فقالت بجفاف: "لا تكن سمجًا". صار لوسيان يكسر كل شيء. كان يكسر جميع لعبه ليري كيف صنعت، وقطع ذراع الكنب بماكينة حلاقة أبيه القديمة وأمسك بالتمثال الموجود فى قاعة الاستقبال وألقاه على الأرض ليتحطم فيعرف إن كان فارغا أم بداخله شيء. وعندما يتنزه كان يقطع النباتات والأزهار بعصاه: كما كان في كل مرة يصاب بخيبة أمل عميقة، فالأشياء تافهة، وهى لم

تكن موجودة فى الواقع . وغالبًا ما تسأله أمه وهي تدله على الأزهار أو الأشجار: "ما اسم هذه؟" كان لوسيان يهز رأسه ويقول: "ليس هذا شيئا على الإطلاق، وليس له اسم". كل هذا ليس جديرًا بأن يسترعي الانتباه، إذ كان من الأمور المسلية قطع رجل جرادة، لأنها تهتز بين الأصابع كالنحلة الخشبية وإذا ضغطنا على بطنها، خرج منها سائل أصفر. لكن مع هذا، فإن الجراد لم يكن يصرخ. كان بود لوسيان أن يؤذي واحدة من تلك الحيوانات التي تصرخ عند إيذائها كالدجاجة مثلا، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من تلك الحيوانات. وعاد السيد فلوريه في شهر مارس لأنه كان رب عمل، وقال له القائد بأن من الأفضل أن يظل في مصنعه على أن يمضي وقته في الخنادق كأي جندى صغير. ووجد لوسيان أنه قد أصيب بحالة من السير أثناء النوم: كان يجيب بفتور، ويضع إصبعه في أنفه أو ينفخ في يديه ثم يشمها، وكان لابد من التوسل إليه كى يقضي حاجته. أما الآن فهو يتجه بمفرده إلى بيت الخلاء. كل ما كان عليه هو أن يترك الباب مفتوحًا قليلا، ومن وقت آخر تأتي لتشجيعه أمه أو جرمين. كان يبقي ساعات عديدة على المقعدة، وذات مرة ضاق ذرعا حتى إنه نام على وضعه هذا. قال الطبيب إنه ينمو بسرعة ووصف له دواء يساعد على بناء الجسم. وأرادت الوالدة أن تعلم لوسيان ألعابا جديدة ، لكن لوسيان وجد أن ما يعرفه من ألعاب يكفيه وأن فى النهاية جميع الألعاب سواء. كان يبدي استياءه أكثر الأحيان، وهذا أيضا نوع من أنواع اللعب ولكنه أكثر تسلية. كان يسبب الحزن لوالدته، إذ يبدو حزينا ومغموما، ويصاب بالصمم بفمه المغلق وعيونه المعتمة. فى داخله كان دافئا ومرهفا كما لو كان فى فراشه تحت الغطاء يشم رائحة نفسه. كان يشعر بالوحدة فى هذا العالم. لم يعد لوسيان يستطيع تجنب إظهار استيائه، وعندما يسخر منه أبوه، ويقول له " أنت تقلد الخنزير" يرتمي لوسيان على الأرض وينهمر فى البكاء. كان لا يزال يذهب كثيرًا إلى قاعة الاستقبال حين تستقبل والدته السيدات الكبار، ولكن اهتمام الناس به قد تضاءل منذ أن قصوا له جدائله. أو إذا ما التفتوا إليه، لكي يشرحوا له درسًا في الأخلاق أو يقصوا عليه قصة إرشاده. عندما أتي ابن خالته ريري إلى فيرول، بسبب القصف وإلقاء القنابل، برفقة

الخالة برت أمه الجميلة، سر لوسيان كثيرًا وحاول أن يعلمه اللعب. لكن ريري كان يهتم أكثر بكره الألمان، ثم إنه كان يشعر بأنه طفل صغير برغم أنه يكبر لوسيان بستة أشهر. وكانت على وجهه بقع نمش، كما أنه لم يكن يدرك الأمور بشكل جيد. لكن لوسيان أفضي إليه بالسر، إنه يمشي وهو نائم. بعض الأشخاص يفيقون في الليل، فيتكلمون ويتنقلون وهم نيام: فقد قرأ لوسيان هذا في كتاب "المغامر الصغير" وفكر بأنه من الواجب أن يوجد شخص حقيقي اسمه لوسيان يمشي ويتحدث ويحب أبويه حبًا صادقًا في الليل. لكنه بمجيء النهار، كان ينسى كل شيء ويعود إلى التظاهر بأنه لوسيان. في البدء لم يكن لوسيان يؤمن كثيرًا بهذه القصة، لكنه ذهب في أحد الأيام مع ابن خالته إلى النباتات المحيطة بالحديقة، وأظهر ريري عضوه للوسيان وقال له: "انظر كم هو كبير، أنا صبي كبير. وعندما يصبح كبيرًا جدًا، عندها أصير رجلاً وأذهب لأقاتل الألمان في الخنادق". وجد لوسيان ريري غريبا جدًا وانتابته نوبة من الضحك وقال ريري: "أرني الذي لك". وأجريا المقابلة فكان عضو لوسيان أصغر، لكن ريري غشه: إذ شد على عضوه ليزيد في طوله وقال ريري: "أنا الذي أملك عضوا أكبر. فقال لوسيان بهدوء:

ـ نعم، ولكنني أنا الذى أسير أثناء نومى. لم يكن ريري يعرف من هو الذى يسير نائما، فاضطر لوسيان لأن يشرح له ذلك. وعندما انتهى فكر في نفسه: "إذا فصحيح أني أسير نائما"، واعترته رغبة شديدة في البكاء. وبما أنهما كانا ينامان في فراش واحد، فقد اتفقا على أن يبقي ريري مستيقظا طيلة الليل ويراقب لوسيان عندما ينهض، ويحفظ كل ما يتفوه به لوسيان. قال لوسيان:

ـ "ستوقظني بعد هنيهة، لأرى إذا كنت أتذكر ما فعلته". وفي المساء سمع لوسيان الذي ـ عجز عن النوم ـ الشخير الحاد واضطر لأن يوقظ ريري. وقال ريري: "زنجبار".

ـ "استيقظ يا ريري فعليك أن تراقبني حين أستيقظ .

فقال ريري بصوت رخو:

ـ دعني أنم".

فهزه لوسيان وقرصه تحت قميصه، فأخذ ريري يخبط برجليه وظل مستيقظا، مفتوح العينين، وعلى شفتيه ابتسامة طريفة. وفكر لوسيان بدراجة كان على أبيه أن يشتريها له، وسمع صفير القطار، وفجأة دخلت الخادمة وأزاحت الستار، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا. لم يدر لوسيان قط ما أقدم عليه طيلة الليل. أما الرب فكان يعلم، لأن الرب يرى كل شيء. كان لوسيان يركع على كرسي الصلاة ويحاول جاهدا أن يبقى عاقلا حتى تهنئه والدته عند انتهاء القداس، لكنه كان يمقت الرّب: لأن الرب يعرف عن لوسيان أكثر مما يعرف لوسيان عن نفسه. يعرف الرب أن لوسيان لا يحب أمه ولا أباه، وأنه يتظاهر بأنه عاقل، وأنه يلامس عضوه عند المساء في السرير ولحسن الحظ، ليس بإمكان الرب أن يتذكر كل شيء، لأن في العالم الكثير من الصبيان الصغار. فحين يضرب لوسيان على جبينه قائلا: "بيكوتان" كان الرب ينسى لتوه ما يراه. وألقى لوسيان على عاتقه مهمة إقناع الرب بحبه لأمه. فكان من وقت لأخر يقول في نفسه: "لكم أحب أمي العزيزة" لكن كانت هناك زاوية صغيرة لم تكن مقتنعة تماما بذلك، والرب بالطبع يرى هذه الزاوية الصغيرة. وفي هذه الحال يكون هو الرابح . لكن بإمكان المرء أحيانا أن يؤخذ تمامًا بكل ما يقوله. إذ يقول: "أوه! كم أحب والدتي"، وينطق الحروف جيدا، بلفظ جميل، ويرى وجه أمه، فيحس بأنه يرق، ويفكر تفكيرًا مبهمًا، بأن الرب ينظر إليه ثم لا يعود يفكر في ذلك، إذ يصبح مأخوذًا بالحنان. ثم إن هناك كلمات تتراقص في الأذن: "أمي، أمي، أمي" ولا يستمر هذا سوى لحظة بلا ريب، وكأن لوسيان يريد أن يوقف الكرسي متوازنا على رجلين اثنين.

ولكن إذا نطق في هذه اللحظة: "باكوتا": فإنه يخدع الرب: فهو لم ير سوى الخير، وما رآه الرب يعلق في ذاكرته إلى الأبد. بيد أن لوسيان قد سئم هذه اللعبة لأنها تستوجب جهودًا عنيفة، ولا ندري في النهاية إذا كان الرب قد ربح أم خسر. ولم يعد لوسيان يهتم بالرب. ولما تناول المرة الأولى، قال عنه الكاهن إنه أعقل وأتقى صبي في التعليم المسيحي. كان لوسيان يفهم بسرعة كما أن ذاكرته قوية، لكن رأسه مليء بالضباب.

يوم الأحد كان الجو صحوا. وانقشع الضباب، عندما كان لوسيان يتنزه برفقة والده على طريق باريس. كان يرتدي بذلته الصغيرة الزرقاء، بينما كان يصادف عمال أبيه الذين كانوا يقدمون التحية له ولأبيه. كان الأب يقترب منهم فيقولون: "مرحبا أيها السيد فلورييه" وأيضا "مرحبا سيدى الصغير". كان لوسيان يحب العمال كثيرًا فهم أشخاص كبار، لكنهم ليسوا كسائر الناس. فهم أولا كانوا ينادونه: سيدى. ثم إنهم كانوا يضعون القبعات وأيديهم الضخمة ذات الأظافر القصيرة يبدو عليها الألم، إنهم مسئولون محترمون. لا ينبغي أن يشد شارب الأب بوليجو: لأن والد لوسيان يزجره. لكن الأب بوليجو عندما يحدث أباه: يخلع قبعته، بينما يبقى كل من لوسيان وأبيه قبعتيهما على رأسيهما، وكان أبوه يتحدث بصوت باسم غليظ: "حسنًا أيها الأب بوليجو، إننا ننتظر ولده، فمتى يحين موعد فرصته!

- في آخر الشهر أيها السيد فلورييه، شكرا يا سيد فلورييه"

كان الأب بوليجو سعيدًا ولم يكن ليسمح لنفسه بأن يضرب على مؤخرة لوسيان ملقبًا إياه بالضفدع، كما يفعل السيد بوفاردييه، كان لوسيان يمقت السيد بوفاردييه لأنه كان دميمًا جدًا. لكنه حين يرى الأب بوليجو، يشعر بأنه أكثر رقة وتعتريه رغبة بأن يكون طيبا. ذات مرة، بعد العودة من النزهة، أخذ الأب لوسيان على ركبتيه وشرح له ماذا نعنى برب العمل. أراد لوسيان أن يعرف كيف كان أبوه يتحدث إلى العمال عندما يكون في المصنع، وبين له الوالد طريقته فى التعامل معهم وقد تبدل صوته تمامًا. فسأله لوسيان: "هل سأصبح رئيسًا بدوري؟"

- بكل تأكيد، يا رجلي الطيب، فلهذا صنعتك.

- ولمن سأعطي الأوامر؟

- حسنًا، عندما أموت ستصبح أنت رب العمل في المصنع وستعطى الأوامر للعمال.

- لكنهم سيموتون هم أيضًا.

- حسنًا ستعطى الأوامر لأبنائهم، وينبغي أن تعرف كيف يطيعونك ويحبونك.

- وكيف أفعل كي يحبونني يا أبي؟

فكر الأب قليلاً ثم قال:

- أولاً، عليك أن تتعرف عليهم، كلّ باسمه.

تأثر لوسيان كثيرًا، ولما أتى ابن موريل رئيس العمال إلى البيت ليعلن أن أباه فقد إصبعين، تحدث إليه لوسيان بجدية ورفق، ناظرًا إليه في وجهه وهو يناديه باسم موريل. وقالت الأم إنها فخورة بأن يكون لها ولد صغير طيب وحساس إلى هذا الحد. وبعد ذلك، جاءت الهدنة وصار الأب يقرأ الجريدة بصوت عال كل مساء. وكان الجميع يتحدثون عن الروس، وعن الحكومة الألمانية وعن الإصلاحات، وأخذ الأب يدل لوسيان على البلدان الواقعة على الخريطة، أمضى لوسيان أكثر سنواته ضجرًا، كان يفضل زمن الحرب. أما الآن فيبدو أن الجميع ليس لهم عمل، كما انطفأ البريق الذي كان يري في عيني السيدة كوفان. وفي أكتوبر ١٩١٩، وضعته السيدة فلورييه في مدرسة القديس يوسف كتلميذ في القسم الخارجي.

كان الطقس حارا في مكتب الأب جروميه. ووقف لوسيان قرب مقعد الأب واضعًا يديه خلف ظهره، متضجرًا أكثر ما يكون عليه الضجر. "ألا تريد أمي أن تذهب في الحال؟". لكن السيدة فلورييه لم تكن تفكر بالذهاب. بل إنها جلست على طرف الكنبة الخضراء وقد امتد صدرها الواسع نحو الأب. كانت تتكلم بسرعة فائقة، بصوت ذي جرس موسيقي مثلما كانت عليه عندما غضبت وأرادت ألا تظهر غضبها. أما الأب فكان يتكلم على مهل، وبدت الكلمات في فمه أطول مما كانت عليه عند سائر الأشخاص، حتى وكأنه يمتص الكلمات كالسكر قبل أن يدعها تمر. كان يشرح للوالدة أن لوسيان صبي صغير مهذب نشيط لكنه عديم المبالاة بشكل كبير، فتقول السيدة فلورييه إنها أصيبت بخيبة أمل لأنها ظنت أن تغيير المكان سيكون له أثره الحسن. وسألت عما إذا كان يلعب أثناء فترة الاستراحة على الأقل فأجاب الأب: "للأسف يا سيدتي. فحتى الألعاب يبدو أنها

لا تهمه كثيرا . فهو يكون مضطربا فى بعض الأحيان إلى حد العنف لكنه يتعب بسرعة. أظن أنه تنقصه المثابرة "، ففكر لوسيان: "إنهما يتحدثان عني". هما شخصان كبيران، يصنعان موضوع حديثهما، تماما وكأنهما يتحدثان عن الحرب أو عن الحكومة الألمانية أو السيد بوانكاريه. كانت تبدو عليهما مظاهر الرصانة وهما يفكران بحالته. لكن هذا التفكير لم يكن ليروق له. وقد امتلأت أذناه بكلمات أمه ذات الجرس، وبكلمات الأب اللزجة الذائبة، واعترته رغبة بالبكاء. ولحسن الحظ، دق الجرس، فأعطى حريته. ولكن في درس الجغرافيا ظل منفعلاً وطلب إلى الأب جاكين أن يسمح له بالذهاب إلى بيت الخلاء لأنه كان يريد أن يتحرك.

في البدء، هدأت من روعه برودة المكان والرائحة العطرة فى دورة المياه فضلاً عن العزلة. وجلس القرفصاء إرضاء لضميره لكنه لم تكن لديه الرغبة. ورفع رأسه وأخذ يقرأ ما كتب على الباب. فقد كتب بالقلم الأزرق: "باراتو بقة" . فابتسم لوسيان: كان هذا صحيحًا، فباراتو هو بقة، إذ إنه صغير الحجم، ولعله سيكبر قليلاً، ولكن لا، لأن أباه شديد القصر فهو أقرب إلى القزم . وتساءل لوسيان إذا كان باراتو قد قرأ هذه الكتابة وظن أنه لم يقرأها: وإلا لكانوا أزالوها . إذ إن باراتو لابد وأنه كان سيضع إصبعه في فمه ويمسح الحروف حتى تختفي. وسر لوسيان بعض الشيء عندما تصور أن باراتو سيذهب في الساعة الرابعة إلى بيت الخلاء وسينزل سرواله المخملي الصغير ويقرأ : "باراتو بقة". لعله لم يفكر قط بأنه شديد القصر. وعزم لوسيان على أن يدعوه بالبقة ابتداء من صباح الغد فى فترة الاستراحة. ثم نهض وقرأ على الجدار الأيمن خطأ مكتوبا بالقلم الأزرق أيضًا: "لوسيان فلوربيه هليونة كبيرة". فمحا الخط بعناية وعاد إلى الصف . وفكر في نفسه وهو ينظر إلى رفاقه: "حقًا إنهم جميعًا أقصر مني". وأحس بأنه غير مرتاح. "هليونة كبيرة" وجلس إلى مكتبه الصغير المصنوع من الخشب. كانت جرمين في المطبخ، ووالدته لم تعد بعد. وكتب "هليونة كبيرة" على ورقة بيضاء لأن رفاقه أخطأوا في كتابة الكلمة. لكن الكلمات لم تبد جديدة أمامه ولم تحدث فيه أي أثر. ونادى: جرمين، يا جرمين؟

فسألته جرمين :

ـ ماذا تريد أيضًا؟

ـ جرمين، أريد أن تكتبي على هذه الورقة "لوسيان فلورييه هليونة كبيرة".

ـ هل أنت مجنون يا سيد لوسيان؟

وأحاط عنقها بذراعيه: جرمين، يا صغيرتى جرمين كوني لطيفة.

أخذت جرمين تضحك ومسحت أصابعها فى مريلتها. وبينما كانت تكتب، لم يكن ينظر إليها، لكنه أخذ الورقة إلى غرفته ونظر إليها طويلاً. كان خط جرمين دقيقًا، وخيل إلى لوسيان أنه يسمع صوتًا جافًا يرن في أذنه: "أيتها الهيلونة الكبيرة" وفكر في نفسه:

"أنا كبير". لقد سحقه الخجل: كبير مثلما أن باراتو صغير، وكان الآخرون يضحكون من خلف ظهره. وبدا وكأنه قد رمى بمصيره رميًا: إن رؤية رفاقه من فوق تبدو له طبيعية إلى هذا الحد. ولكن في الوقت الحاضر، يبدو أنه حكم عليه فجأة بالبقاء كبيرًا طيلة حياته. وفي المساء سأل أباه إذا كان بإمكان المرء أن يعمل على تصغير نفسه بكل قوته.

وقال السيد فلورييه لا: إن جميع أفراد عائلة فلورييه كانوا طوالاً أقوياء، وسيكبر لوسيان أيضًا. فأحس لوسيان باليأس.

ولما أحاطته أمه نهض وذهب ليرى نفسه في المرآة. "أنا طويل" لكنه مهما تطلع، فلن يرى شيئًا، فلم يكن يبدو عليه أنه طويل أو قصير. وشمر قميصه قليلاً ونظر إلى ساقيه. عندها تصور أن كوستيل يقول لهبرار: انظر، انظر ساقي الهليونة الطويلتين، وكان هذا يضحكه. الطقس بارد. ارتجف لوسيان وقال أحدهم: "اقشعر بدن الهليونة". وشمر قميصه أيضًا ورأى الجميع سرته، ثم ركض إلى سريره وانزلق فيه. وعندما وضع يده تحت قميصه، فكر بأن كوستيل يراه ويقول:

- "انظروا قليلا ما تفعله الهليونة الكبيرة!" وارتعش ودار فى سريره وهو يلهث: "الهليونة الكبيرة! الهليونة الكبيرة!" حتى أحدث حكة تحت أصابعه.

في الأيام التالية، رغب في أن يطلب إلى الأب أن يسمح له بالجلوس في آخر الفصل. كان ذلك بسبب بواسيه وونكلمان وكوستيل الذين كانوا وراءه وبإمكانهم أن ينظروا إلى رقبته، كان لوسيان يحس برقبته، ولكن بدون أن يراها وغالبا ما كان ينساها. لكنه عندما كان يحسن الإجابة على سؤال الأب، ويقوم بتسميع مقطع شخصية دون دياج من إحدى المسرحيات، كان الآخرون وراءه ينظرون إلى رقبته وبإمكانهم أن يسخروا منه قائلين: "يا لها من نحيلة، ففي عنقه حبلان". ويجهد لوسيان نفسه لكي يضخم صوته ويعبر عن إهانة دون دياج. كان يستطيع أن يفعل بصوته ما يشاء لكن رقبتة لا تزال في مكانها، هادئة غير معبرة وكأنها شخص يرتاح، فيراها باسيه. ولم يجرؤ على تغيير مكانه، لأن المقعد الأخير كان مخصصا للكسالى، لكن رقبته وكتفيه كانتا تأكلانه طيلة الوقت فكان مرغما على حكها بلا انقطاع. واخترع لوسيان لعبة جديدة: أن يغتسل عند الصباح بمفرده كالأشخاص الكبار، كان يتصور أن أحداً يتطلع إليه من ثقب الباب. تارة ما يكون هذا الشخص كوستيل، وتارة الأب بوليجو، وتارة أخرى جرمين. وعندها دار في جميع الجهات حتى يراه الجميع من جميع وجوهه، وكان يدير مؤخرته أحيانا نحو الباب ويقف على أربع حتى يصبح محدبا فيضحك الناس. وهنا اختلس السيد بوفاردييه الخطى لكى يساعده فى الغسل.

فى أحد الأيام، وكان في بيت الخلاء، سمع بعض القرقعة، إنها جرترود التى كانت تمسح طاولة الممر بالورنيش. وتوقف قلبه عن الحركة، وفتح الباب بتؤدة وخرج، ولا يزال سرواله عند قدميه، وقميصه مشمرة عند خاصرتيه. كان مرغماً على القيام بقفزات صغيرة لكي يتقدم بدون أن يفقد توازنه. ونظرت جرمين إليه وتساءلت في نفسها "هل هو في حلبة السباق؟". ورفع بنطلونه بغضب وراح يرتمي فوق سريره. كانت السيدة فلورييه متأثرة وغالبًا ما كانت تقول لزوجها: "هو الذي كان رائعا في طفولته انظر كيف أصبح الآن، ويا للأسف!". وينظر السيد فلورييه نظرة ضائعة نحو لوسيان ويقول: "إنه عامل السن!" لم يكن لوسيان يدري ما يجب

أن يفعله بجسمه، وتهيأ له أن هذا الجسم يفرض وجوده من جميع النواحي دون أن يستشيره، ولذّ للوسيان أن يتصور أن لايراه أحد، ثم اتخذ لنفسه عادة النظر إلى الآخرين من خلال ثقوب الأبواب ليعرف كيف وجد الآخرين حين لا يشعرون به. رأى أمه و هى تغتسل. كانت جالسة على مقعد الحمام، وكان يبدو عليها النعاس، ولا شك أنها نسيت جسمها، وحتي وجهها لأنها لا تظن أن أحدًا يراها. والإسفنجة تروح وتجيء تلقائيا على هذا اللحم المهجور. وتقوم بحركات خاملة، الأمر الذي يبعث علي الظن بأنها ستتوقف في منتصف الطريق. وفركت الأم اللوفة بالصابون ثم اختفت يدها بين ساقيها. كان وجهها مرتاحًا، حزينا بعض الشيء، لاشك أنها تفكر في أمر آخر، فى تربية لوسيان أو فى السيد بوانكاريه. لكنها ليست، في هذا الوقت سوى هذا الجسم الوردي الضخم المسترخى على مقعد الحمام. ومرة أخرى، نزع لوسيان حذاءه وصعد حتى بلغ الغرفة ذات السقف المنحنى. فرأى جرمين بقميص أخضر طويل يصل إلى قدميها، كانت تسرح شعرها أمام مرآة صغيرة مستديرة وتبتسم لصورتها بفتور. واعترت لوسيان ضحكة مجنونة وما لبث أن هبط بسرعة. بعد ذلك أخذ يبتسم ويكشر أيضًا أمام المرآة في قاعة الاستقبال، وما هي إلا لحظة حتى اعتراه خوف شديد.

وما لبث لوسيان أن استسلم للنوم، ولكن لم يقع عليه نظر أحد سوى السيدة كوفان التى كانت تطلق عليه الجميل النائم. كانت كتلة من الهواء كبيرة تقف في حلقه فلا يستطيع أن يبتلعها أو أن يبصقها، فتترك فمه مفتوحا: تلك كانت طريقته فى التثاؤب. وعندما يكون وحده تكبر الكتلة كثيرا حتى تصل إلى أسفل حلقه. فيفتح فمه على أشده، وتتدحرج الدموع من عينيه: إنها لحظات عذبة. لم يكن يتسلى قدر تلك التسلية حينما يكون فى غرف الغسيل، لكنه فى المقابل كان يحب أن يعطس، وهذا ما يوقظه، فيتطلع حوله بنظرة سارة ثم يخلد إلى النوم من جديد. وتعرف على النوم بجميع أنواعه. فى الشتاء كان يجلس أمام المدفأة ويمد رأسه نحو النار. حين تكون النار شديدة الاحمرار، تحترق بسرعة. وهذا ما كان يسميه "النوم عن طريق الرأس".

صباح الأحد كان على العكس ينام عن طريق القدمين: كان يدخل الحمام، وينحنى قليلا فيصعد النعاس على طول ساقيه وخاصرتيه. ومن فوق جسمه النائم كان يظهر رأسه الأشقر زاخرا بالأفكار والكلمات التى يتلقاها معبد، زلزال، أعداء التقاليد. فى الفصل كان النعاس أبيض، تتخلله البروق: "ماذا تريد أن يفعل تجاه ثلاثة؟" الأول: لوسيان فلورييه. "ما هو الشعب: القوم من غير النبلاء ورجال الدين: لا شىء "الأول: لوسيان فلورييه، الثانى: وينكلمان. أما بليرو فكان الأول فى مادة الجبر. لم يكن لديه سوى خصية واحدة أما الثانية فلم تنزل.

كان يفرض فلسين اثنين للنظر، وعشرة فلسات للمس. ونقده لوسيان الفلسات العشرة وتردد ومد يده دون أن يلامس، لكنه ندم على عمله هذا إلى حد أنه ظل مستيقظا لأكثر من ساعة. لم يكن ماهرا فى علم الجيولوجيا بقدر ما كان عليه فى التاريخ. الأول ونكلمان، الثانى فلورييه. يوم الأحد كان يذهب للنزهة على الدراجة، برفقة كوستيل وونكلمان. كانت الدراجات تجوب الحقول فوق الغبار الناعم فى طقس شديد الحرارة. كانت ساقا لوسيان مفعمتين بالحيوية، مليئتين بالعضلات لكن رائحة الطرقات كانت تصعد إلى رأسه فينحنى فوق مقوده، وتحمر عيناه، ويغمضها شبه إغماضة. حصل ثلاث مرات متتالية على جائزة التميز. فحصل على جوائز من الكتب. فقدموا له "فابيولا أو سراديب الأموات" و"عبقرية المسيحية" وحياة "الكاردينال لافيجرى". وعند عودتهم من عطلة نهاية العام علمهم كوستيل "الدى بروفوندس موربيونيبوس"، و"جندى متز".

وقرر لوسيان أن يقوم بأفضل منه فبحث فى قاموس أبيه الطبى عن الفصل المتعلق "بالرحم". ثم شرح لهم كيف تكون النساء. حتى إنه رسم لهم صورة على السبورة، مما جعل كوستيل يدلى بأن ذلك مقزز، وبعد ذلك لم يعد بإمكانهم أن يستمعوا لأحد يتحدث عن الأقنية دون أن ينفجروا بالضحك، وفكر لوسيان بأنه ما من طالب فى الصف الثانى الثانوى أو حتى فى الصف الأول يتقن معرفة أعضاء المرأة كما يتقنها هو.

ولما أقامت عائلة فلورييه فى باريس، كان ذلك بمثابة بريق من الماغنيزيوم، لم يعد بوسع لوسيان أن ينام بسبب صالات السينما والسيارات والشوارع. وتعلم كيف يميز بين سيارة الفوازين والبكار، وبين الأسبانو سويزا والرولز. منذ أكثر من سنة بات يرتدى السروال الطويل. وأرسله أبوه إلى إنجلترا مكافأة له على نجاحه فى المرحلة الأولى من شهادة البكالوريا. ورأى لوسيان مروجًا تزخر بالمياه، ومنحدرات بيضاء، وتعلم الملاكمة عند جون لاتيمر، ولكنه فى صباح أحد الأيام استيقظ من نومه، لقد عاود السير أثناء النوم فعاد سائرا وهو نائم إلى باريس: كان صف الرياضيات الأولية فى مدرسة الليسيه كوندورسيه يضم سبعة وثلاثين طالبًا، ثمانية من هؤلاء الطلبة يقولون إنهم يخففون من حماقتهم ويعاملون الآخرين على أنهم صبيان بكر. هؤلاء الثمانية يحتقرون لوسيان، وظلوا يحتقرونه حتى أول شهر نوفمبر، بل فى عيد جميع القديسين. وذهب لوسيان للنزهة مع صديقه جارى، وأبدى له معلوماته فى التشريح، الأمر الذى بهر الرفيق. ولم ينضم لوسيان لتلك الجماعة من الطلاب لأن أهله منعوه من الخروج ليلا. إلا أنه أبقى معهم على علاقات الند للند.

يوم الخميس جاءت الخالة برت، لتتناول طعام الغداء مع ريرى فى شارع رينوار. لقد أصبحت ضخمة الجثة حزينة، أمضت وقتها فى التنهد. ولكن بما أن جسمها ظل لينا ناعمًا، فقد تمنى لوسيان أن يراها عارية. كان يفكر فيها مساء فى سريره، سيكون ذلك فى يوم من أيام الشتاء، سيعثر عليها عارية فى وسط أشجار غابة بولونيا، تضع يديها فوق صدرها وقد اقشعر جسدها. وتصور أن أحد المارة، وهو قصير النظر، لامسها بعصاه قائلاً:

ـ ولكن ما هذا؟

لم يكن لوسيان يتفق كثيرًا مع ابن خالته: أصبح ريرى شابًا جميلاً شديد الأناقة، كان يدرس الفلسفة فى لاكانال ولا يفقه شيئًا عن الرياضيات. ولم يكن لوسيان ليستطيع أن يمنع نفسه من التفكير فى أن ريرى كان منذ سبع سنوات

يتبرز فى سرواله، فيمشى بعدها منفرج الساقين كالبطة، وينظر إلى أمه بنظرة خائفة قائلاً:

- "كلا يا أمى، لم أفعل هذا. وأعدك بذلك". كان يشعر ببعض الاشمئزاز عندما يلامس يد ريرى. لكنه، رغم ذلك، كان لطيفًا جدًا معه وهو يشرح له دروس الرياضيات. وكان عليه أن يبذل مجهودًا قويًا حتى لا ينفد صبره لأن ريرى لم يكن ذكيًا. غير أنه لم يثر قط، بل إنه حافظ على صوته الهادئ. ووجدت السيدة فلورييه أن لوسيان كان على جانب كبير من الدماثة، لكن الخالة برت لم تجد له أية حسنة. ولما كان لوسيان يقترح على ريرى أن يعطيه درسا، تحمر السيدة برت وتهتز فوق كرسيها وتقول:

- "كلا، أنت لطيف جدًا يا صغيرى لوسيان، لكن ريرى صبى كبير. فبإمكانه أن يتعلم لو أراد، فلا ينبغى أن نعوده الاعتماد على الآخرين". وذات مساء قالت السيدة فلورييه فجأة للوسيان: - "أو تظن أن ريرى شاكر لك صنيعك معه؟ كلا عد عن خطئك يا ولدى العزيز. إنه يدعى أنك تختال بنفسك. إن خالتك برت هى التى قالت لى ذلك".

تكلمت بصوتها ذى الجرس وبسيماء حسنة. وفهم لوسيان أنها تستشيط غيظًا. وأحس بانزعاجه ولم يجد شيئًا للإجابة. وفى الغد واليوم التالى، كان لديه مشاغل كثيرة فخرجت هذه القصة من ذهنه.

وفى صباح الأحد، ألقى ريشته فجأة وتساءل: "أصحيح أننى أختال بنفسى".

كانت الساعة الحادية عشرة. ولوسيان جالس إلى مكتبه ينظر إلى صور الشخصيات الوردية المطبوعة على قماش الكريتون والمعلقة على الجدار. وأحس خده الأيسر بحرارة شمس شهر إبريل الجافة الغبراء، وعلى خده الأيمن الحرارة الخانقة التى تنبعث من جهاز التدفئة.

- "أصحيح أننى أختال بنفسى؟ كانت الإجابة عسيرة. وحاول لوسيان أن يتذكر محادثته الأولى مع ريرى وأن يحكم على موقفه بلا تحيز. كان قد انحنى فوق ريرى وسأله باسمًا:

- أنت تفعل ذلك؟ إن كنت لا تفعل يا عزيزى فاعترف بذلك؟

وبعدها بقليل ارتكب خطأ فى تحليل دقيق فردد تعبيرًا أخذه عن السيد فلورييه وكان يعجبه. ولكن لم يكن هناك داع لضرب القطة. ولكن هل كنت أختال بنفسى عندما قلت هذا؟" ولشدة ما بحث توصل إلى معرفة شىء غامض فى ذهنه يشبه قطعة الغمام: إنها فكرته فى ذلك اليوم؛ قال: هل تفهم؟ كان ذلك يدور فى رأسه، لكنه لم يكن ليوصف. وبذل لوسيان جهودا "يائسة" لينظر إلى هذه الغمامة، وأحس فجأة بأنه وقع فيها، ابتداء من الرأس. وقد تحول هو نفسه إلى غبار، ولم يعد بعد الآن سوى حرارة بيضاء رطبة، تفوح منها رائحة الغسيل. وأراد أن يتجنب هذا الغبار بتراجعه قليلا، لكن الغبار كان يتقدم معه. وفكر فى نفسه "أنا لوسيان فلورييه، أجلس فى غرفتى، أحل مسألة فى الفيزياء، واليوم يوم أحد". لكن أفكاره تحولت إلى ضباب، بياض على بياض. وارتعش قليلاً وجعل يحلل شخصيات اللوحات الموجودة على الجدار، راعيان وراعيتان والحب. "ثم قال فى نفسه فجأة: أنا، إننى..." .

وحدثت ضجة خفيفة: فاستيقظ من سيره أثناء نومه الطويل.

لم يكن هذا ظريفا إذ قفز الراعيان إلى الوراء، وبدا للوسيان أنه ينظر إليهما من خلف نظارة. وحل مكان الدهشة التى استبدت به نوع من الحيرة، اليقظة وتساءل:

- "من أنا؟"

- "من أنا؟" أنا أنظر إلى المكتب، أنظر إلى الدفتر. اسمى لوسيان فلورييه وليس هذا سوى اسم. إننى أختال بنفسى، أو لا أختال بنفسى. لست أدرى. فليس لهذا أى معنى.

"أنا تلميذ نشيط. لا. هذه خدعة: فالتلميذ النشيط يحب العمل - وأنا لا أحب العمل، إننى أحصل على درجات عالية، لكنى لا أحب العمل. كما أننى لا أكره العمل، إنه لا يهمنى. لا شىء يهمنى. لن أصبح قط رئيسًا". وفكر بنفسه قلقًا: "ولكن ماذا سأصبح يومًا ما؟" ومرت هنيهة. وحك خده وغمز بعينه اليسرى لأن الشمس بهرته: "من أكون، أنا ؟". كانت هناك غمامة غامضة ملتفة حول نفسها:

"أنا!". ونظر إلى البعيد. فرنت الكلمة فى رأسه، ثم أخذ يتخيل شيئا مثل رأس مظلمة لهرم تختفى جوانبه، هناك فى الضباب. وارتعش لوسيان وارتجفت يداه وفكر فى نفسه:

- ها قد توصلت. أجل توصلت! وأنا متأكد من ذلك:

"أنا لست موجودًا".

طيلة الأشهر التالية، حاول لوسيان أن ينام ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. كان ينام بانتظام تسع ساعات فى اليوم أما باقى اليوم فكان يمضيه فى النشاط الكامل والحيرة التى تزداد يومًا بعد يوم! كان أبواه يقولان بأنه لم يحدث أن كان على أحسن حال كما هو الآن. وعندما كان يحدث له أن يفكر، فكر بأنه لن يكون له كفايات الرئيس، كان حينئذ يشعر بأنه رومنطيقى. تعتريه رغبة بالمسير ساعات فى ضوء القمر. لكن أبويه لايسمحان له بالخروج مساء. فكان فى أغلب الأحيان يتمدد فوق سريره ويقيس حرارته: فيسجل الميزان ٣٧,٥ أو ٣٧,٦، ويفكر لوسيان بلذة مريرة كيف أن أبويه يجدانه بصحة جيدة."أنا لست موجودًا" ويغمض عينيه ويستسلم لأفكاره: الوجود ما هو إلا وهم؛ وبما أنني أعرف أنني لست موجودًا، فعلى إذا أن أسد أذنى ولا أفكر بشىء، وسوف أنعدم. لكن الوهم قاس. لعله يعرف على الأقل سرًا لا يدركه الآخرون وهو نوع من التفوق: جارى، مثلا، ليس موجودًا ومثله مثل لوسيان ولكن ما إن يرى بين معجبيه حتى يقال بأنه يؤمن إيمانًا راسخًا بوجوده. والسيد فلورييه هو أيضًا غير موجود. وكذلك ريرى ولا أى إنسان آخر - والعالم مهزلة بلا ممثلين. ولوسيان الذى حاز على ١٥ درجة فى موضوع "الأخلاق والعلم"، فكر بأن يكتب "موضوعا عن العدم" وتصور أن الناس عند قراءته سيختفون الواحد تلو الآخر، كالأفاعى عند صياح الديك. وقبل أن يبدأ بكتابة موضوعه، أراد أن يأخذ رأى بابوان أستاذ الفلسفة. فسأله فى نهاية الدرس:

- أرجوك يا أستاذ، هل بإمكاننا أن ندافع عن فكرة عدم وجودنا؟

فأجاب بادوان بالنفى وقال:

"أنت موجود لأنك تشك بوجودك". ولم يقتنع لوسيان لكنه عدل عن كتابة موضوعه. في شهر يوليو، نجح بغير ضجة في امتحان البكالوريا، فرع الرياضيات، وذهب إلى فيرول برفقة أبويه. ولم تتبدد الحيرة فيه، كان ذلك كالرغبة في العطش.

ومات الأب بوليجو، وتغير أسلوب العمال، عمال السيد فلورييه. فهم يحصلون الآن على مرتبات ضخمة، وصارت زوجاتهن يشترين جوارب الحرير. وسردت السيدة بوفارديه وقائع رهيبة على مسمع السيدة فلورييه، فتقول:

"أخبرتني الخادمة بأنها رأت عند بائع الشواء أمس، الصغيرة أوزيوم، وهى ابنة أحد العمال النشيطين عند زوجك، تلك التى أوليناها عنايتنا بعد وفاة أمها. لقد تزوجت من عامل فنى من بوبرتوى. فقد طلبت فروجًا سعره عشرون فرنكًا! وبكل عجرفة! لم يعدن يكتفين بأى شيء؛ إنهن يردن أن يكون لهن ما لنا".

فى الوقت الحاضر، عندما يذهب لوسيان برفقة أبيه للتنزه، لم يعد العمال يكنون لهما نفس الاحترام الذى كان فى السابق ، فهم لا يكادون يلامسون قبعاتهم لتحية الرئيس، بل إن بعضهم قد يعبر الشارع حتى لا يضطر إلى تحيتهما. ذات يوم، التقى لوسيان بابن بوليجو الذى تظاهر بأنه لم يعرفه. وتأثر لوسيان من ذلك: كانت تلك إذن فرصة ليثبت أنه رئيس. فحدج جول بوليجو بنظرة كاسرة وتقدم نحوه واضعًا يديه وراء ظهره. لكن بوليجو لم يشعر بأى خوف: إذ نظر إلى لوسيان بعينين فارغتين وتقاطع معه فى الطريق وراح يصفر. وقال لوسيان فى نفسه: "لم يعرفنى". لكنه شعر فى قرارة نفسه بخيبة الأمل، وبات يفكر أكثر من أى وقت مضى بأن العالم ليس موجودًا.

كان مسدس السيدة فلورييه الصغير موضوعًا فى درج الخزانة. وكان زوجها قد أهداها إياه لها فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ قبل أن يذهب إلى الجبهة. فأخذه لوسيان وقلبه بين يديه: إنه جوهرة صغيرة ذات فوهة مذهبة، وقبضة مطعمة بالصدف. ليس بالإمكان الاعتماد على موضوع فلسفى لإقناع الناس بأنهم ليسوا موجودين. أما ما يجب عمله فهو فعل، فعل يائس، يبدد الظواهر

ويبين العدم فى العالم بشكل جلى. هى إشارة، كالجسد الدامى فوق السجادة والكلمات المكتوبة على الورق:

- سأقتل نفسى لأننى لست موجوداً. وأنتم كذلك يا إخوتى، إنكم عدم!"

ويطالع الناس جريدة الصباح ويقرأون: "مراهق تجرأ" ويشعر كل واحد منهم بالاضطراب فيتسأل:

- "وأنا؟ هل أنا موجود؟"

لقد شاهدنا عبر التاريخ ، لاسيما عند نشر فرتير، أوبئة مشابهة من عمليات الانتحار. وفكر لوسيان بأن كلمة "شهيد" تعنى باليونانية " الشاهد"، كان شديد الإحساس كى يصبح رئيساً وليس شاهداً. وبعدها كان يكرر الدخول إلى مخدع أمه، وينظر إلى المسدس، ويدخل فى النزاع الأخير. وكان يحدث له أحياناً أن يعض الفوهة المذهبة ويضغط بأصابعه بقوة على القبضة.

ثم يعتريه شعور بالفرح إذ يفكر بأن جميع القادة الكبار حاولوا الانتحار. كنابليون مثلا، ولم يخف لوسيان على نفسه ما كان يشعر به من يأس إلا أنه كان يأمل فى أن يخرج من هذه الأزمة بروح نبيلة قوية، فقرأ باهتمام "مذكرات السانت هيلين".

كان عليه مع ذلك أن يتخذ قراراً: فقد حدد لوسيان يوم ٣٠ سبتمبر كحد أخير لتردده. وكانت أيامه الأخيرة صعبة جداً: كانت الأزمة تدفع بلوسيان إلى التوتر الشديد، إلى حد أنه بات يخشى أن يتحطم ذات يوم كالزجاج. ولم يعد يتجرأ على ملامسة المسدس، بل بات يكتفى بفتح الدرج، ثم إنه يرفع قليلا قمصان أمه الداخلية ويتمتع بمرأى الوحش الصغير البارد الذى يرقد فى ثوب الحرير الوردى. غير أنه حين قرر أن يعيش، أحس بإخفاق شديد، وبأنه عاطل عن العمل. ولحسن الحظ فقد شغلته هموم المدرسة: إذ أرسله أبواه إلى الليسه سان - لويس ليتابع الدروس الإعدادية لدخول المدرسة المركزية. وكان يرتدى قبعة جميلة بشريط أحمر الجميل وعليها الشارة وراح يغنى:

"إنه المكبس الذى يدير الآلات"

"إنه المكبس الذى يدير القاطرات.."

كانت مقدرة "المكبس" الجديدة تبعث على الفخر فى نفس لوسيان. ثم إن صفه لا يشبه الصفوف الأخرى: إذ كانت له تقاليده واحتفالاته الخاصة. كان نوعًا من القوة. فقد أضحى من المألوف أن يقوم الطلاب قبل انتهاء درس اللغة الفرنسية بربع ساعة ويصيح أحدهم: "ما موضوع البحث، فيجيب الجميع:

"إنه عضو المرأة!" فيردد الصوت من جديد: "وما موضوع البحث؟" فيجيبون بقوة أكثر: "إنه عضو المرأة". عندها يقول المعلم باتون الذى كان كفيف البصر نوعًا ما ويضع نظارة سوداء، يقول بإعياء: - "أرجوكم أيها السادة!". ومرت لحظات من الصمت المطبق، كان التلامذة خلالها ينظرون إلى بعضهم بعضًا وعلى وجوههم ابتسامات تنم عن الذكاء، ثم يصيح أحدهم: "ما المكبس!" فيزأرون معًا:

- "إنه شخص ضخم!" فى هذه اللحظة يشعر لوسيان بأنه قد احترق. فى المساء، كان يقص على أبويه بدقة ما جرى له فى النهار، وعندما يقول: "وعندئذ أخذ الفصل كله ينطلق فى النكات..." أو"الصف بأكمله قرر أن يعزل ميرينه فى الحجر الصحى". كانت الكلمات عند مرورها تسخن فمه كجرعة من الكحول. كانت الأشهر الأولى مع ذلك، قاسية جدًا : كان لوسيان يتخلف عن تقديم مسابقات الرياضيات والفيزياء، ثم إن رفاقه لم يكونوا حسنى العشرة: كل على حدة: كانوا يحصلون على المنح الدراسية وكان معظمهم طلبة مجتهدين إلا أنهم قذرون ولهم عادات سيئة. ويقول لوسيان لأبيه: "ما من أحد منهم يمكن أن يكون لى صديقا - وهنا يقول السيد فلورييه! أصحاب المنح الدراسية هم عادة من الصفوة المثقفين لكنهم لايصبحون فى المستقبل قادة من ذوى الكفاءة: إذ إنهم يسرعون فى تدرجهم".

وعندما سمع لوسيان عن "القادة الفاسدين"، أحس بأن شيئًا ما يؤلمه فى قلبه، وفكر من جديد بالانتحار، طيلة الأسابيع التالية. لكنه لم يعد يشعر بالحماس نفسه الذى كان عليه أثناء العطلة. فى شهر يناير فضح أحد الطلبة واسمه

برلياك الصف بأسره: كان يرتدى سترة خضراء أو بنفسجية على آخر طراز، ذات ياقة مستديرة فوق سروال كالسراويل التى فى كتب الخياطين، ضيق جدًا إلى حد يثير التساؤل: كيف استطاع أن يرتدى هذا السروال. وإجمالا فقد كان ترتيبه الأخير على الفصل فى الرياضيات وقد صرح بقوله:

- "لا يهمنى الأمر، فأنا من القسم الأدبى، وأدرس الرياضيات للتقوية ليس إلا". وما هو إلا شهر حتى سحر الجميع: كان يوزع السجائر المهربة ويقول لرفاقه بأن لديه نساء، ويبدى لهم الرسائل التى بعثن بها إليه. وقرر جميع من في الصف اعتباره شابًا أنيقًا، وبأن عليهم أن يدعوه وشأنه. كان لوسيان معجبًا بأناقته وبأساليبه، لكن برلياك كان يعامله بعجرفة ويلقبه "بصبى الأغنياء" وقال لوسيان فى أحد الأيام : "بعد هذا، ذاك أفضل من لو كنت صبى الفقراء "وابتسم برلياك وقال له: " أنت وقح صغير!". وفى اليوم التالى أطلعه على إحدى قصائده: "كان كاريزو يختال بعينيه الغاضبتين كل مساء وما عدا ذلك فهو صبور كالجمل. صنعت امرأة باقة من أعين عائلتها وألقت بها على المسرح. وانحنى الجميع أمام هذا التصرف النموذجى. ولكن لا تنسوا أن ساعة مجده سوف تدوم سبعًا وثلاثين دقيقة: تمامًا منذ الهتاف الأول وحتى انطفاء أضواء الأوبرا (وبعدها كان ينبغى أن تقود زوجها، وهو الحائز على عدة جوائز، وكان يسد بصليبين اثنين الفتحات الوردية لأفلاكه التى تقع فيهما عيناه)، وانتبه إلى هذا، أن جميع الذين يفرطون فى أكل اللحم البشرى المحفوظ، سوف يموتون بمرض يفسد الدم".

فقال لوسيان باضطراب :

- حسنًا حسنًا.

وقال برلياك بفتور: - "سأحوز عليها، بطريقة فنية جديدة، فهذا ما يسمى بالكتابة الآلية". ولم يمض وقت طويل حتى شعر لوسيان برغبة عنيفة فى الانتحار وصمم على استشارة برلياك، وسأله بعد أن عرض عليه الأمر:

- ماذا ينبغى أن أفعل؟

وأصغى إليه برلياك باهتمام. وكان قد تعود على أن يمص أصابعه، وأن يمسح بريقه البثور الموجودة على وجهه، فيبدو جلده مبتلا ولامعا فى بعض الأجزاء، وكأنه طريق تبللت بالمياه بعد سقوط الأمطار. وخلص إلى القول :

ـ اصنع ما شئت فليس لهذا أية أهمية.

وفكر قليلاً ثم أضاف وهو يؤكد على الكلمات:

ـ "ما من شىء له أهمية".

وأصيب لوسيان بخيبة أمل، لكنه فهم أن برلياك قد تأثر كثيراً حين دعاه للعشاء فى بيت والدته. كانت السيدة برلياك لطيفة جداً. وعلى وجهها بعض الخراريج وبقعة خمرية، على خدها الأيسر. وقال برلياك للوسيان:

ـ هل ترى، إنما نحن ضحايا الحرب الحقيقيين.

كان هذا رأى لوسيان أيضًا وقد اتفق الاثنان على أنهما ينتميان للجيل الضحية. وطلع النهار، وبرلياك لا يزال ممدًا فوق سريره، وقد اشتبكت يداه تحت رقبته. كانا يدخنان اللفائف الإنجليزية، ويصغيان إلى الأسطوانات فى جهاز الجراموفون، التى تأتى للوسيان بصوت صوفيا توكر وآل جونسون. واعتراهما نوع من الكآبة، وفكر لوسيان بأن برلياك هو خير أصدقائه. وسأله برلياك عما إذا كان يعرف فى التحليل النفسى. كان صوته جادًا، وهو ينظر إلى لوسيان باتزان. وأسر إليه قائلاً:

ـ لقد اشتهيت أمى حتى سن الخامسة عشرة. وشعر لوسيان بالاضطراب، وخشى أن يحمر وجهه وتذكر الخراريج التى فى وجه السيدة برلياك، ولم يفهم أنه من الممكن أيضا أن يشتهيها. لكنها حين دخلت لتقدم لهما بعض السندوتشات، بدا عليه الاضطراب وحاول أن يتخيل صدرها من خلال الثوب الذى كانت ترتديه، وما إن خرجت حتى قال له برلياك بصوت يقينى:

ـ أنت أيضًا بالطبع، كنت ترغب فى أن تضاجع أمك.

لم يكن يسأل بل كان يؤكد. فهز لوسيان كتفيه وقال:

- بالطبع.

فى صبيحة اليوم التالي كان شديد الاضطراب وخشى أن يعمد برلياك إلى تكرار الحديث الذى دار بينهما. لكنه اطمأن بسرعة وقال:

- على كل حال، إن الأمر قد أصابه أكثر مما أصابنى.

سر لوسيان كثيرًا للطابع الشخصى الذى اتخذته محادثتهم السرية، وفى يوم الخميس التالي، قرأ كتابًا من كتب فرويد حول الأحلام فى مكتبة سانت جنفياف. كان بمثابة وحي. وكرر لوسيان وهو يجوب الشوارع:

- إنه هذا إذًا، هو ذا!

ثم اشترى بعد ذلك "مقدمة التحليل النفسي" و "علم النفس المرضى فى الحياة اليومية"، فقد أضحى كل شىء واضحًا لديه. ذلك الشعور الغريب باللاوجود، وذاك الفراغ الذى عاناه فى وعيه، وتلك المسيرة أثناء النوم، وهاتيك الحيرة، وتلك الجهود الخائبة فى سبيل التعرف على الذات، تلك الاشياء التى لم تصادف سوى ستار من الضباب.

وفكر فى نفسه:

"لابد وأن لدىّ عقدة نفسية". وشرح لبرلياك كيف أنه فى صغره، تصور نفسه سائرا وهو نائم، وكيف أن الأشياء لم تكن تبدو له وكأنها واقعية، وخلص إلى القول: "لابد وأن أكون مصابًا بعقدة نفسية". فقال برلياك: "مثلى أنا أيضا، فنحن الاثنان مصابان بعقدة فى منازلنا". واعتادا معًا على تفسير أحلامهما وأقل حركة من حركاتهما حتى البسيطة منها. وكانت لدى برلياك قصص كثيرة، ظن لوسيان لوفرتها بأن صديقه يخترعها أو على الأقل هو يجملها. لكنهما كانا متفاهمين تماما، وكانا يتناولان أشد الموضوعات حساسيةً بطريقة موضوعية. واعترف كلاهما بأن مسحة السرور التى تكتنفهما ما هى إلا قناع لخداع الآخرين. بينما هما فى الواقع معذبان. وتخلص لوسيان من هواجسه. وانكب بشغف على دراسة التحليل النفسي لأنه وجده ملائمًا له، وأحس أنه أكثر اطمئنانًا، ولم يعد فى

حاجة لأن يضطرب وأن يظل يبحث فى داخله عن الظواهر الملموسة لطبيعته. بل إن لوسيان الحقيقي إنما هو غارق فى اللاوعى. وينبغى أن يحلم به دون أن يراه كمن يحلم بعزيز غائب. وصار لوسيان يفكر طيلة اليوم فى عقده النفسية ويتصور بنوع من الفخار، العالم المظلم، العالم القاسى العنيف الذى يختبئ فى أبخرة وعيه. وقال لبرلياك:

ـ هل تدري ! لقد كنت فى الظاهر صبيًا نائمًا غير آبه لشيء، كنت شخصًا لا أهمية له. وحتى من داخلى كنت شديد التأثر بهذا الاعتقاد حتى كدت أن أتمسك به. لكنني كنت أعرف بأن هناك شيئًا آخر.

فأجاب برلياك:

ـ هناك دائمًا شيء آخر.

وتبادلا الابتسام بكل فخار. ونظم لوسيان قصيدة بعنوان "عندما يتمزق الغمام" فوجدها برلياك رائعة، لكنه أخذ على لوسيان طريقته فى نظمها حسب الأوزان المعتادة. وحفظاها مع ذلك غيبًا، وكانا يقولان بكل طيب خاطر عندما يريدان الكلام عن نوازعهما الجنسية:

"السرطانات الكبيرة المكدسة تحت معطف الغمام".

أو يختصران بقولهما: "السرطانات" وهما يغمزان بأعينهما. ولم يمض بعض الوقت حتى بات لوسيان يجد هذا رهيبًا، عندما يخلو لنفسه. ولم يعد يتجرأ على النظر إلى أمه فى وجهها، وكان يخشى، حين يقبلها قبل النوم، أن تحول القوة غير المنظورة قبلته نحو فم السيدة فلورييه، كان كمن ينطوى على بركان. وتعهد لوسيان نفسه بعناية فائقة حتى لا يضطر إلى إكراه تلك النفس المتعاظمة المشئومة التي اكتشفها فى داخله. إنه بات يعرف ثمنها حق المعرفة ويخشى صحواتها العنيفة. ويقول فى نفسه: "أنا أخاف من نفسى". لقد انقطع منذ ستة أشهر عن ممارسة العادة السرية لأنها كانت تقلقه وكان لديه الكثير من المشاغل، لكنه عاد إليها: على المرء أن يتابع خطته، وكتب فرويد مليئة بقصص الكثيرين من الشباب التعساء ممن أصيبوا بنوبات العصاب لأنهم انقطعوا فجأة عن ممارسة عاداتهم. كان يسأل برلياك:

ـ أفلن نصبح مجانين؟ لذا كانا في بعض أيام الخميس يحسان بغرابتهما. تسلل الظل بهدوء إلى غرفة برلياك، وكان قد أحرقا عدة علب من السجائر التى تحتوى الأفيون كما كانت يداهما ترتجفان. عندها قام أحدهما بصمت، ومشى بلا ضجة نحو الباب وأدار الزر. وعمّ النور فى الغرفة، ونظر أحدهما للآخر نظرة ملؤها الريبة والحذر.

ولم يلبث لوسيان أن يلاحظ أن صداقته مع برلياك إنما هى قائمة على سوء تفاهم: ما من أحد بلا ريب، كان أكثر حساسيةً منه للجمال المؤثر لعقدة أوديب، لكنه كان يرى فيها دلالة على قوة العاطفة التى كان يأمل أن يحولها فيما بعد نحو غايات أخرى .

أما برلياك، فكان على العكس سعيدًا بحالته ولم يكن يريد الخروج منها . وكان يقول بكبرياء: "نحن أشخاص مارقون ، فاشلون". لن نفعل شيئا على الإطلاق فيجيبه لوسيان وكأنه صداه: "على الإطلاق". عند عودته من عطلة عيد الفصح أخبره برلياك بأنه اقتسم مع أمه غرفة واحدة فى أحد فنادق ديجون. واستيقظ فى الصباح الباكر، واقترب من السرير حيث كانت أمه لا تزال نائمة ورفع الغطاء برفق. وقال ضاحكًا:

"كان قميصها مشمرًا". ولم يسع لوسيان حين سمع تلك الكلمات إلا أن يحتقر برلياك بعض الشىء ويحس بعزلته الشديدة. جميل أن يكون لدى المرء عقد نفسية شريطة أن يحسن تصريفها فى الوقت المناسب: إذ كيف يمكن للرجل أن يتحمل مسئولياته ويتولى زمام الأمور، إذا احتفظ بنوازع الطفولة الجنسية؟ وبدأ لوسيان يقلق جديا: كان بوده أن يستشير شخصا مسئولا ولكنه لم يكن يعرف إلى من يتوجه. غالبًا ما كان برلياك يحدثه عن رجل سريالى يدعى برجير، متعمق فى التحليل النفسى وهو يفوقه معرفة لكنه لم يقترح قط على لوسيان التعرف عليه. كما شعر لوسيان بالخيبة الشديدة لأنه اعتمد على برلياك فى تدبير النساء له. وفكر بأن وجود عشيقة جميلة من شأنه أن يغير بالطبع مجرى أفكاره. لكن برلياك انقطع عن الحديث عن عشيقاته الجميلات. كانا يذهبان فى بعض الأحيان ناحية الشوارع العريضة يلاحقان الفتيات بدون أن يتجرأ على محادثتهن. ويقول برلياك:

- "ماذا تريد أيها المسكين، لسنا من الجنس الذى يعجب النساء.

فالنساء تحس فينا شيئًا يرعبهن". ولم يجبه لوسيان؛ إذ إن برلياك بات يزعجه. غالبًا ما كان يبدى ملاحظات عديمة اللياقة بشأن والدى لوسيان، إذ كان يسميهما السيد دى مولليه وزوجته. كان لوسيان يدرك بأن الشخص السريالى يكره البرجوازية على العموم، لكن برلياك قد تلقى مرارًا دعوة السيدة فلورييه، وقد عاملته على صعيد الصداقة والثقة. فليس من اللياقة إذا أن يتناولها بهذه اللهجة. ثم إن برلياك كان رهيبًا بعادته المستحكمة: الا وهى استدانة الأموال بدون إرجاعها: فى الأوتوبيس ليس من المعتاد أن تجد معه عملة، وعلى رفيقه أن يدفع عنه الأجرة. وفى المقاهى لم يكن ليقترح سوى مرة واحدة من خمس دفع حساب المشروبات. وقال له لوسيان فى إحدى المرات صراحة، إنه لا يفهم تصرفه هذا وإن على الأصدقاء أن يقتسموا نفقات نزهاتهم فيما بينهم. فنظر إليه برلياك بعمق وقال: "كنت أشك فى ذلك فأنت ذو نزعة شرجية" وشرح له الصلة التى أعطاها فرويد: الغائط = الذهب كما شرح له نظريته حول البخل.

وقال له: "أود أن أعرف كم من العمر ظلت أمك تنظف قذارتك؟"

وكادا أن يتخاصما.

منذ بداية شهر مايو، أخذ برلياك يتغيب عن الدراسة: وكان لوسيان يذهب للحاق به بعد انتهاء الدرس، فى أحد البارات فى شارع البتى شان حيث كانا يشربان الفرموث. وبعد ظهر أحد أيام الثلاثاء وجد لوسيان صديقه برلياك جالسا أمام كأس فارغ.

فقال برلياك: "ها أنت أتيت. أصغ أنا ذاهب إلى عيادة طبيب الأسنان فموعدى فى الساعة الخامسة، انتظرنى نصف ساعة لأن الطبيب يقيم فى المكان المجاور".

وأجابه لوسيان وهو يجلس متهالكًا على الكرسى:

- حسنًا. يا فرانسوا أعطنى كأسًا من الفرموث الأبيض.

وفى تلك اللحظة دخل البار أحد الرجال وابتسم بدهشة حين وقع نظره عليهما. فاحمر وجه برلياك ونهض بسرعة فتساءل لوسيان فى نفسه: "من تراه يكون؟" أما برلياك فقد وقف حين مد يده ليصافح الغريب بطريقة تحول دون رؤية لوسيان له. وكان يتكلم بصوت خافت سريع، بينما يجيبه الآخر بصوت واضح :

"لا. لا يا صديقى. لن تكون سوى مهرج، وراح فى الوقت نفسه، يقف على رءوس أصابعه ليرى لوسيان من فوق رأس برلياك، باطمئنان هادئ. هو يبلغ حوالى الخامسة والثلاثين من عمره. له وجه شاحب وشعر أبيض بديع. وفكر لوسيان وقلبه يخفق: "إنه برجير بكل تأكيد، كم هو جميل!".

أمسك برلياك الرجل ذا الشعر الأبيض من مرفقه بحركة متسلطة إلى حد ما وقال له:

- تعال معى أنا ذاهب إلى عيادة طبيب الأسنان، على بعد خطوتين من هنا.

فأجاب دون أن يزيح نظره عن لوسيان:

- لكنك كنت مع صديقك. وعليك أن تجرى التعارف بيننا.

ونهض لوسيان باسمًا. وفكر فى نفسه: "خدعة!" وتورد خداه. وغار عنق برلياك بين كتفيه، وظن لوسيان للحظة بأنه سيرفض. وقال بصوت ملؤه السرور "حسنًا ، قدمنى له إذن". لكنه ما كاد يتكلم حتى بان الدم فى صدغيه. وتمنى لو أن الأرض تنشق فتبتلعه. وغير برلياك رأيه وتمتم دون أن ينظر إلى أحد:

- لوسيان فلورييه، رفيقى فى الدراسة، السيد أشيل برجير.

فقال لوسيان بصوت ضعيف:

- سيدى، إننى معجب بكتاباتك.

وأمسك برجير يده بين أنامله الطويلة وحمله على الجلوس. ومرت هنيهة من الصمت. كان برجير يغمر لوسيان بنظرة ملؤها الحنان، وهو لايزال يمسك بيده، وسأله بعذوبة:

- هل أنت قلق؟

فقال لوسيان بصوت أوضح بعد أن رمق برجير بنظرة جادة:

"إننى قلق!" وبدا له وكأنه يسمع أحد دروسه. وتردد برجير لحظة ثم عاد بغضب ليأخذ مكانه وهو يلقى قبعته على الطاولة. كان لوسيان يحترق لشدة رغبته فى أن يحدث برجير عن محاولته الانتحار. إنه شخص بالإمكان أن نحدثه بلا مقدمات ولا تحضير. ولم يجرؤ على أن يقول شيئًا بسبب برلياك. كان يكره برلياك. وسأل برجير الجرسون:

- هل عندكم عرق؟

فقال برلياك متسرعًا:

- كلا، ليس عندهم عرق؛ إنها حانة جميلة ولكن ليس فيها سوى الفرموث.

فسأل برجير بسهولة ولين:

- ما هذا الشىء الأصفر المعبأ فى القنينة؟

فأجابه الصبى:

- إنها ماركة المصلب الأبيض.

- حسنًا، أعطنى منه.

وتململ برلياك على كرسيه. وحار بين رغبته فى تعظيم أصدقائه وخشيته من جعل لوسيان يتألق على حسابه. وانتهى إلى القول بصوت متجهم فخور:

- أراد أن ينتحر.

فيقول برجير:

- أقسم بأنى أفكر بذلك.

وتمر هنيهة صمت: كان لوسيان قد أخفض عينيه بهيئة متواضعة، ولكنه تساءل ما إذا كان برلياك سيترك المكان ويذهب. ونظر برجير فجأة إلى ساعته.

وسأل:

ـ وطبيب الأسنان؟

فنهض برلياك على مضض ورجاه:

ـ رافقنى يا برجير، إنه على بعد خطوتين.

ـ لا أرافقك لأنك ستعود. سأبقى برفقة صديقك.

ومكث برلياك لحظة وراح يقفز بقدم على الأخرى، فقال برجير بصوت جليل:

ـ هيا اذهب، ستعود للقائنا هنا.

وما إن ذهب برلياك حتى قام برجير وجلس بغير تكلف إلى جانب لوسيان. وسرد له لوسيان قصة انتحاره بالتفصيل. وشرح له بأنه اشتهى أمه، وبأنه سادى شرجى، وبأنه لا يحب شيئًا فى جوهره، وبأن كل شىء عنده مهزلة. كان برجير يصغى إليه دون أن يتكلم، بينما لوسيان مسرور جدًا لأنه وجد من يفهمه. وما إن انتهى، حتى أحاط برجير كتفه بذراعه فشم لوسيان رائحة الكولونيا والتبغ الإنجليزى.

ـ أتدرى يا لوسيان ماذا أسمى حالتك؟

فنظر إليه لوسيان بأمل وبغير خيبة.

قال برجير:

ـ أسميه القلق.

القلق: بدأت الكلمة عذبة بيضاء لكن آخرها رنّ كصوت النفير، وقال لوسيان: "القلق..." وأحس بأنه قد أصابه قلق بالغ مثلما كان عليه الحال حين قال لريرى إنه يسير وهو نائم. كان البار معتمًا، لكن بابه فتح على مصراعيه لجهة الشارع، حيث غمام الربيع الساطع. وعبر رائحة العطر التى كانت تنبعث من برجير، أدرك لوسيان الرائحة الكثيفة التى تنبعث من الحانة المعتمة، وهى رائحة النبيذ الأحمر والخشب الرطب. وفكر فى نفسه: "القلق... إلام سيقودنى هذا!" فلم يكن يعرف

ما إذا كان قد اكتشف فيه جدارة أم مرضًا جديدًا. وأبصر قرب عينيه شفتى برجير الرشيقتين، اللتين كانتا تبديان بريق سن ذهبية ثم تحجبانه. وقال برجير:

ـ أحب الأشخاص الذين يعانون القلق، وأرى أن لك حظًا خارقًا للعادة. لأن هذا فى النهاية إنما هو هبة. هل ترى كل هذه الخنازير؟؟ إنهم قوم قاعدون. ينبغى أن نقدمهم طعمة للنمل الأحمر ليعبث بهم قليلاً. أو تدرى ما تفعل هذه الحيوانات الواعية؟

فقال لوسيان:

ـ إنها تأكل البشر .

ـ نعم، إنها تخلص الهياكل العظمية من اللحم الإنسانى الذى يكسوها.

فقال لوسيان:

ـ إننى الاحظ ذلك.

وأضاف:

ـ وأنا؟ ماذا ينبغى أن أفعل؟

فقال برجير بنوع من الذعر الهزلى:

ـ لا شىء بحق الله. وعليك خاصة ألا تقعد مثلهم، ـ ثم قال ضاحكا ـ إلا إذا كان على وتد. هل قرأت رانبو؟

فقال لوسيان:

ـ كـ ـ لـ ـ لـ ـ لا .

ـ سأعيرك ديوان "التجليات". اصغ، ينبغى أن نلتقى مرة أخرى فى وقت آخر. فإذا كان لديك بعض الفراغ يوم الخميس، مر ببيتى فى الساعة الثالثة فأنا أقيم فى رقم ٩، شارع الكامبانيه برميير، فى منطقة المونبارناس.

يوم الخميس التالى، ذهب لوسيان إلى بيت برجير، وصار يتردد عليه طيلة شهر مايو. واتفقا على أن يقولا لبرلياك إنهما يلتقيان مرة واحدة فى الأسبوع،

لأنهما كانا يريدان أن يكونا صريحين معه بدون أن يسببا له أى عناء. وأبدى برلياك امتعَاضه؛ فقد قال للوسيان ساخرًا: "إنه إذن الغرام العابر؟ شرح لك القلق، وشرحت له الانتحار: يا للعبة الكبرى، أليس كذلك!" واحتج لوسيان، وقال له بعد أن احمر وجهه:

ـ سأبرهن لك بأنك أنت الذى تكلمت أولاً عن عملية انتحارى.

فقال برلياك:

ـ أوه! حدث ذلك، لأجنبك الخجل من أن ترويها بنفسك. وأبعدا ما بين أوقات لقائهما. ذات يوم قال لوسيان لبرجير:

ـ إن كل ما يعجبنى فيه، أخذه عنك، لقد أدركت هذا فى الوقت الحاضر.

فقال برجير ضاحكًا:

ـ برلياك قرد، وهذا ما جعلنى أنجذب إليه دائما. أتدرى بأن جدته لأمه يهودية؟ وهذا ما يفسر أشياء كثيرة.

فأجاب لوسيان: "فى الواقع" وأضاف بعد لحظة: "إنه شخص جذاب على كل حال". كان منزل برجير يعج بالأشياء الغريبة المضحكة: كنبات ترتكز مقاعدها المخملية على سيقان نساء صنعت من الخشب المدهون، وتماثيل لزنجيات، وحزام للعفاف صنع من حديد ذى أشواك، وأثداء من الجبس غرست فيها ملاعق صغيرة. وعلى المنضدة، قملة هائلة من البرونز وجمجمة كاهن مسروقة من مجموعة عظام ميسترا، تستعملان لتثبيت الأوراق. أما الجدران فكانت مغطاة ببطاقات الدعوة التى تعلن عن موت برجير السريالى. الشقة رغم كل شىء توحى بنوع من الترف الذكى، وكان لوسيان يحب أن يستلقى على الديوان الوثير فى غرفة التدخين. وإن ما أثار دهشته بصورة خاصة، تلك الأشياء التى رصها برجير على الرف: من مسحوق العطس، إلى ريشة للحك، إلى الوسخ الشيطانى إلى رباط الساق الخاص بالعروس. كان برجير وهو يتكلم يتناول قليلاً من الوسخ الشيطانى بين أصابعه وينظر إليه باهتمام قائلاً:

- إن لهذه الأشياء قيمة ثورية، إنها تثير القلق. إن فيها قوة مدمرة تفوق القوة التى تضمها جميع مؤلفات لينين. كان لوسيان، وقد دهش وانبهر، يتطلع تارة إلى هذا الوجه المعذب ذى العينين الغائرتين، وتارة إلى تلك الأصابع الدقيقة التى تحمل برفق تلك القذارة المقلدة بحكام. كان برجير يحدثه أكثر الأحيان عن رامبو وعن "الخلل القياسى فى جميع الحواس". حين يصبح بإمكانك وأنت تمر فى ساحة الكونكورد، أن ترى بوضح عندما تشاء، زنجية راكعة تلحس المسلة المصرية، عندها تستطيع أن تقول إنك خرقت النظام وأنقذت نفسك. وأعاره ديوان "التجليات"

و"أناشيد المالدورو"، ومؤلفات الماركيز دى ساد. وكان لوسيان يسعى إلى الفهم بإخلاص، لكن كثيراً من الأمور كانت تفوته، كما تعجب لأن رامبو كان لواطياً . وذكر ذلك لبرجير الذى راح يضحك: "ولكن، لماذا يا صغيرى؟" وبدا لوسيان شديد الانزعاج. واحمر وجهه وكره برجير لمدة دقيقة من كل قلبه؛ غير أنه سيطر على نفسه ورفع رأسه وقال بصراحة بسيطة:

"قلت إنها شىء مقزز". فداعب برجير شعره: وبدا أنه قد رق كثيراً وقال:

"هاتان العينان المفعمتان بالاضطراب، عينا الغزالة... أجل يا لوسيان. قلت إنها شىء مقزز. إن شذوذ رامبو الجنسى هو الخلل الأول والنابغ فى حساسيته. وإنما كل قصائده ترجع إلى ذلك الشذوذ الجنسى. فالاعتقاد بأن هناك أغراضاً مميزة خاصة بالرغبة الجنسية، وبأن هذه الأغراض هى النساء، ذلك هو الاعتقاد البغيض الخاطئ لدى القاعدين. انظر!" وأخرج من مكتبه حوالى اثنتى عشرة صورة وقد اصفر لونها ورماها على ركبتى لوسيان. ورأى لوسيان صوراً كريهة للبغايا العاريات، ضاحكات بأفواههن الخالية من الأسنان، وقد باعدن ما بين سيقانهن كما تتباعد الشفاه، وغرسن بين أفخاذهن شيئاً كاللسان المكسو بالريق. وقال برجير: "اشتريت المجموعة بثلاثة فرنكات من أبى سعدة، إنك إن قبلت مؤخرة هؤلاء النسوة تكن كريم الأصل، وسيقول الناس إنك مجنون. لأنهن نساء، هل تفهم؟ وأنا أقول لك بأن أول ما يجب أن تفعله هو أن تقتنع بأن "كل شىء" يمكن أن يشكل غرضاً للرغبة الجنسية، من ماكينة الخياطة إلى أنبوبة الاختبار، وكذلك الحصان أو الحذاء". وقال ضاحكاً:

- أنا نكحت الذباب، وأعرف جنديًا بحريًا كان يضاجع البط. كان يضع رءوسها في درج الطاولة، ويمسكها بقوة من ساقيها، وينطلق! وقرص برجير أذن لوسيان وختم حديثه: "كانت البطة تموت على أثر ذلك، فيأكلها الجندي".

كان لوسيان يخرج من تلك المحادثات ملتهب الرأس، يفكر بأن برجير عبقري، لكنه في بعض الأحيان كان يستفيق من نومه ليلا وقد تبلل جسمه بالعرق، وتتكدس في رأسه من جديد رؤى رهيبة بذيئة، ويتساءل ما إذا كان برجير يؤثر عليه تأثيرا حسنًا، وتنهد وهو يلوي يديه: "أن أكون وحيدًا! ما من أحد ينصحني ويقول لي إذا كنت على الصراط المستقيم!" فلو ذهب إلى آخر الشوط، ومارس جديا جميع أنواع الخلل في حواسه، ألن تزل قدمه ويغرق! وذات يوم، بينما كان برجير يحدثه مطولاً عن أندريه بريتون، تمتم لوسيان وكأنه في حلم: "نعم، ولكن إذا كنت، بعد هذا، لا أستطيع الرجوع إلى الوراء؟ " عندها انتفض برجير وقال: "تعود إلى الوراء؟ من يتحدث عن الرجوع إلى الوراء؟ " لو تصبح مجنونًا فنعما ذلك. وبعدها، على حد قول رامبو: سيأتي عمال بغيضون آخرون"، فقال لوسيان بأسى: "هذا ما فكرت فيه" ولاحظ أن هذه المحادثات الطويلة كانت تصل إلى نتيجة معاكسة لتلك التي يبغيها برجير! ما إن يفاجأ لوسيان بأنه يعاني حسًا دقيقا نوعًا ما، أو انطباعا خاصا، حتى يبدأ بالارتجاف وفكر في نفسه: "إن الأمر قد بدأ، وتمنى لو أنه لا يشعر بعد الآن سوى بتلك الأنواع السخيفة والكثيفة من الإدراك الحسي. ولم يعد يشعر بالطمأنينة إلا عند المساء، حين يكون مع أبويه: هناك كان ملاذه. كانا يتحدثان عن بريان وعن سوء نية الألمان، وعن ولادة قريبتهما جان، وعن غلاء المعيشة، وكان لوسيان يبادلهم تلك الآراء بلذة، وبنوع خشن وغير متقن من أنواع الحس السليم. ذات يوم عند عودته من بيت برجير، أغلق الباب بالمفتاح آليا وضغط على المزلاج ولما أدرك حركته تلك، أجهد نفسه بالضحك، لكنه لم يستطع النوم طيلة الليل: وأدرك أنه يشعر بالخوف.

مع ذلك، لم يكن أي شيء في العالم يجعله يتخلى عن التردد على برجير، وكان يقول لنفسه "إنه يسحرني". ثم إنه كان يقدر هذا النوع المميز من أنواع الصداقة

الذى أحسن برجير عقده بينهما. فبدون أن تفارقه نبرة الرجولة، كان لدى برجير القدرة على أن يجعل لوسيان يشعر بحنانه واهتمامه به: إذ كان مثلا يعيد ترتيب رابطة عنقه، ويزجره لأنه لا يحسن هندامه، ويمشط له شعره بمشط ذهبى من صنع كمبوديا. كما حدث أن كشف للوسيان عن خفايا جسده وشرح له حلاوة الشباب القاسية المفعمة بالعاطفة، كان يقول له: "إنك أنت رامبو، كانت له يداك الكبيرتان حين قدم إلى باريس لمقابلة فرلين، كان له هذا الوجه الوردى، وجه الفلاح الشاب الرافل بالصحة، وهذا الجسد الطويل الناحل كجسد فتاة شقراء" وكان يرغم لوسيان على فك ياقته وفتح قميصه، ثم يقوده مرتبكا، إلى المرآة، ليمعن النظر ويتمتع بهذا الانسجام الجذاب بين خديه الأحمرين ورقبته البيضاء، وعندها يلامس برفق ردفى لوسيان ويضيف بحزن:

"على المرء أن ينتحر فى سن العشرين". فى الوقت الحاضر، أصبح لوسيان كثير التطلع فى المرآة، لقد تعلم كيف يستمتع بشبابه الغض، وفكر وهو يخلع ثيابه بحركات ملؤها العذوبة قائلا: "أنا رامبو"، وبات يعتقد بأن حياته ستكون قصيرة مؤلمة كحياة زهرية رائعة الجمال. فى تلك اللحظات، يتبادر إلى ذهنه، بأنه رأى فى السابق انطباعات وصورا كهذه: وكان يرى نفسه من جديد بفستانه الطويل الأزرق وجناحى الملاك، يوزع الزهور فى عملية بيع خيرية، ويتطلع إلى ساقيه الطويلتين، ويقول فى نفسه بارتياح: "هل صحيح أن جلدى ناعم إلى هذا الحد؟" وراح يمر بشفتيه فوق ذراعه، من القبضة حتى المرفق، على طول وريد صغير أزرق جميل.

ذات يوم وهو يدخل بيت برجير، حصلت له مفاجأة غير سارة: كان برلياك هناك يقطع بالسكين قطعا من مادة مائلة للسواد تشبه قطعة أرض طينية. لم يكن الشابان قد التقيا منذ عشرة أيام: وتصافحا ببرود، وقال برلياك: "هل ترى هذه، إنها قطعة حشيش، سنضع قليلا منها فى الغليون بين طبقتين من التبغ الأشقر، وستحدث مفعولا مدهشا". وأضاف: "ولك أنت أيضا نصيب منها" فقال لوسيان: "شكرا، أنا لا أتحملها" وراح الآخران يضحكان بينما كان برلياك يلح عليه بعين غاضبة: "إنما أنت مغفل، ستأخذ قليلا منها: فليس بإمكانك أن تتصور

كم هى لذيذة " فقال لوسيان: "قلت لك لا !" ولم يجب برلياك بشىء وأخذ يبتسم ابتسامة تكبر، ورأى لوسيان أن برجير يبتسم هو الآخر فضرب برجله وقال: "لا أريد، لا أريد أن أتهالك تعبا، وأرى من الحمق أن نتناول هذه الأشياء التى تذهب العقل "وتركها على الرغم منه، ولما أدرك مآل كلامه وتصور ما يمكن لبرجير أن يعتقده فيه، اعترته رغبة فى قتل برلياك، وتصاعدت الدموع إلى عينيه، وقال برلياك وهو يهز كتفيه:

"أنت برجوازى، تتظاهر بأنك تسبح، لكنك تخاف أن تزل قدمك". فقال لوسيان بصوت أكثر هدوءا: "لا أريد أن أدمن المخدرات، إنها عبودية كسائر الأنواع الأخرى وأريد أن أبقى حرا"، فأجاب برلياك بحدة: قل إنك تخاف أن تلتزم". وهم لوسيان بصفعه ضربتين لما سمع صوت برجير الجليل يقول لبرلياك: "دعه يا شارل ، فالحق إلى جانبه. وخوفه من الالتزام هو أيضا نوع من القلق". وأخذا الاثنان يدخنان وهما مستلقيان على الأريكة، وتصاعدت فى الحجرة رائحة ورق أرمينيا. أما لوسيان فقد جلس على كنبة من المخمل الأحمر يتأملهما فى صمت. وما هى إلا لحظة حتى أرخى برلياك رأسه إلى الوراء وخفق جفنيه بنوع مع ابتسامة هادئة. وكان لوسيان ينظر إليه بحقد وقد انتابه شعور بالمهانة. ثم نهض برلياك وغادر الحجرة بخطى مترددة: فقد حافظ حتى النهاية على تلك الابتسامة الناعسة اللذيذة فوق شفتيه، وقال لوسيان بصوت مبحوح: "أعطنى غليونا "، فأخذ برجير يضحك وقال: "لا داعى لذلك. ولا تقلق من برلياك، فأنت لا تعرف ما يفعله فى هذه اللحظة. "فقال لوسيان: "هذا لا يهمنى" فقال برجير بهدوء: "حسنا، اعلم مع ذلك أنه يتقيأ. هذا هو المفعول الوحيد الذى يحدثه الحشيش فيه، أما الباقى فليس سوى مهزلة، لكننى أعطيه ليدخن فى بعض الأحيان فهو يريد أن يلفت نظرى إليه، وهذا ما يسلينى" وفى صبيحة اليوم التالى جاء برلياك إلى الكلية وأراد أن يعامل لوسيان بتعجرف، وقال له: "أنت تستقل القطارات، لكنك تحسن اختيار الذين يظلون فى المحطة". ووجد لقوله صدى - أجابه لوسيان: "أنت مخادع لعلك لا تدرى أننى أعرف ما كنت تفعله أمس فى الحمام؟ كنت تتقيأ، يا صاحبى!" فاصفر وجه برلياك: هل أن برجير هو الذى أخبرك بذلك؟"

ـ من تريد أن يكون؟

فتمتم برلياك :

حسنا، ولكننى لم أكن لأظن أن برجير من هذا النوع الذى يهزأ من أصحابه القدامى مع أصحابه الجدد. كان لوسيان مضطربا نوعا ما فقد وعد برجير بأنه لن يتكلم عن شيء، وقال: "حسنا إنه لم يسخر منك، بل أراد أن يبرهن لى على أن الأمر لم يكن خطيرا". لكن برلياك أدار ظهره له وخرج دون أن يشد على يده.

ولم يكن لوسيان فخورا جدا حين صادف برجير فى المرة الثانية، سأله برجير بهيئة لا تنم عن شيء:

ـ ماذا قلت لبرلياك؟

وأخفض لوسيان رأسه دون أن يجيب. كانت متضايقا جدا، وفجأة أحس بيد برجير فوق رقبته: "لا بأس عليك يا صغيرى، على كل حال يجب أن ينتهى الأمر: فالمثلون الكوميديون لا يضحكونى لفترة طويلة". واستعاد لوسيان بعض شجاعته ورفع رأسه وابتسم، وقال وهو يخفق جفنيه:

ـ "لكننى أنا أيضا ممثل".

فأجابه برجير وهو يضمه إليه:

ـ نعم، ولكن أنت، أنتِ جميل.

استسلم لوسيان وأحس بأنه رقيق كالفتاة وتصاعدت الدموع إلى عينيه وقبله برجير على خده، وعض له أذنه برفق وهو يناديه تارة "بالنذل الصغير"، وتارة "بأخى الصغير" وفكر لوسيان بأن من حسن الحظ أن يكون للمرء أخ أكبر كهذا الأخ، على درجة عالية من التسامح والتفاهم.

أراد السيد فلورييه وزوجته أن يتعرفا على برجير الذى كان لوسيان يتحدث عنه كثيرا ودعياه لتناول طعام العشاء. لقد وجده الجميع جذابا، حتى جرمين، التى لم تر فى حياتها رجلا جميلا إلى هذا الحد. وكان السيد فلورييه قد تعرف فى السابق على عمه الجنرال نيزان وتحدث عنه مطولا، لذا كانت السيدة فلورييه سعيدة بأن تولى برجير أمر مرافقة ولدها فى عطلة عيد العنصرة.

وقصدا روان، بالسيارة، كان لوسيان يريد زيارة الكاتدرائية ودار البلدية، لكن برجير رفض ذلك رفضا قاطعا، وسأله بوقاحة:

"هل تريد زيارة هذه القاذورات؟" وأخيرا ذهبا ليقضيا ساعتين فى بيت بغاء فى شارع الكورد لييه، وكان برجير مضحكا: إذ كان ينادى جميع الفتيات العاهرات "آنستى" وهو يرفس لوسيان برجله من تحت الطاولة ثم رضى بالصعود مع إحداهن، لكنه ما لبث أن عاد بعد خمس دقائق وقال: "فلنذهب من هنا، وإلا سيكون الأمر خطيرا". ودفعا الثمن على عجل وذهبا. فى الشارع أخبره برجير عما حدث، فقد اغتنم الفرصة عندما أدارت المرأة ظهرها ليرمى على السرير قبضة من الشعر، ثم أعلن لها أنه عاجز وأسرع بالنزول. كان لوسيان قد احتسى كأسين من الويسكى، وقد شعر بدوار خفيف: فغنى نشيد المدفع والدى بروفوندس موربيونيبوس، ورأى أنه من الأمور الرائعة أن يكون برجير يجمع بين عمق التفكير والصبيانية.

وما إن وصلا إلى الفندق حتى قال برجير: "لم أحجز سوى غرفة واحدة لكن فيها حماما كبيرا". ولم يندهش لوسيان إذ كان يتوقع بصورة مبهمة إنه سيقتسم مع برجير غرفة واحدة، ولكن دون أن يتوقف كثيرا عند هذه الفكرة، أما الآن ولم يعد بوسعه أن يتراجع فقد بدت له الفكرة غير سارة، لا سيما وأن قدميه لم تكونا نظيفتين. وتصور، بينما كان الخدم يصعدون الحقائب، بأن برجير سيقول له: "كم أنت قذر، ستوسخ الغطاء"، وسيجيبه لوسيان بوقاحة: "لديك أفكار برجوازية عن النظافة"، لكن برجير دفعه إلى غرفة الحمام مع حقيبته قائلا له:

- "تدبر أمرك فى الداخل، وأنا سأخلع ثيابى فى الغرفة".

وغسل لوسيان قدميه وبعض جسمه، وكان يشعر بحاجة الذهاب إلى المرحاض، لكنه لم يجرؤ على ذلك، واكتفى بأن يبول فى المغسلة ثم ارتدى ملابس النوم، وانتعل الخف الذى أعارته أمه إياه (فخفه هو، كان مثقوبا) وضرب على الباب سائلا:

- هل أنت مستعد؟

ـ نعم، نعم ادخل.

كان برجير وقد ارتدى روب النوم الأسود فوق بيجاما زرقاء بلون فاتح، وكانت رائحة العطر تفوح فى الغرفة، وسأل لوسيان:

"ألا يوجد سوى سرير واحد؟" ولم يجب برجير: بل كان ينظر إلى لوسيان مشدوها وانتهت دهشته بضحكة قوية وقال له:

ـ "إنك بثياب الزينة، ماذا فعلت بقبعة النوم؟! كلا، أنت غريب جدا أريدك أن ترى نفسك".

فقال لوسيان بانزعاج:

ـ ها قد مرت سنتان وأنا أطلب إلى أمى أن تشترى لى بيجاما، واقترب منه برجير، وقال له بلهجة لا تحتمل جوابا:

هيا، اخلع هذا، سأعطيك إحدى بيجاماتى، ستكون كبيرة عليك بعض الشىء، لكنها ستوافقك أكثر من هذا الثوب.

وظل لوسيان مسمرا فى وسط الغرفة، عيناه مركزتان على الأشكال الهندسية الحمراء والخضراء المرسومة على السجادة، كان بوده أن يعود إلى الحمام لكنه خشى من أن يعتبر مغفلا، وبحركة عاجلة شمر قميصه إلى ما فوق رأسه. ومرت هنيهة صمت، كان برجير يتطلع مبتسما إلى لوسيان، وأدرك لوسيان أنه عار وسط الغرفة ينتعل فى رجليه خفى أمه، ونظر إلى يديه ـ يدى رامبو الكبيرتين ـ وأراد أن يضعهما فوق بطنه ليخبئها على الأقل، لكنه تنبه ووضع يديه خلف ظهره. على الجدران، وبين صفين من المربعات، كان يبدو من بعيد مربع بنفسجى اللون. وقال برجير: "أقسم بأنه لأطهر من فتاة: لوسيان، انظر إلى نفسك فى المرآه فقد احمر لونك حتى الصدر، غير أنك أفضل على هذا الشكل، مما كنت عليه بتلك الثياب" فقال لوسيان بجهد:

"نعم و لكن لا يمكن للإنسان أن يكون ظريفا وهو متجرد من ثيابه. أعطنى البيجاما بسرعة". فرمى له برجير بيجاما من الحرير تفوح منها رائحة العطر،

وذهبا إلى السرير، ومر وقت من الصمت ثقيل، فقال لوسيان: "صحتى سيئة، أريد أن أتقيأ". ولم يجب برجير وتجشأ لوسيان الويسكى، وقال فى نفسه:

"سينام معى"، وراحت مربعات السجادة تدور، بينما كانت رائحة العطر الخانقة عالقة فى حلقه.

"لم يكن ينبغى أن أقوم بهذه الرحلة"، ليس له حظ. لعشرين مرة خلال هذه الأيام، أصبح على قاب قوسين أو أدنى من معرفة الشىء الذى يريده برجير منه، ولكن فى كل مرة، كانت تمر حادثة فتحوله عن تفكيره. والآن، إنه هنا موجود، فى سرير ذلك الرجل، ينتظر متعته اللذيذة". سأخذ وسادتى وأذهب إلى الحمام لأنام فيه "لكنه لم يتجرأ، إذ فكر بنظرات برجير الساخرة، وراح يضحك وقال: "أفكر بتلك البغى، لا بد وأنها تفرك نفسها الآن". ولم يجب برجير فنظر إليه لوسيان بطرف عينيه: كان مستلقيا على ظهره ، عليه سيماء البراءة، ويداه تحت عنقه. عندما اعترى لوسيان غيظ شديد، فانتصب على أحد مرفقيه وقال له: "حسنًا ماذا تنظر؟ هل اصطحبتنى إلى هذا المكان ليضيع وقتى سدى؟".

كان الوقت قد فات حتى يندم على عبارته: واتجه برجير إليه ونظر إليه نظرة ملؤها السرور: "يا لك من آلة ذات وجه ملائكى وأخيرا يا طفلى الصغير، أنا لم أدفعك لتقول هذا: ستعتمد علىّ لكى يدب الخلل فى حواسك الصغيرة" ونظر إليه لحظة أخرى، وكاد وجهاهما أن يتلامسا، ثم أخذ لوسيان بين ذراعيه وداعب صدره من تحت سترة البيجاما، لم يكن هذا كريها، بل هو عذب إلى حد ما، إلا أن برجير كان مخيفا: إذ بدت عليه سيماء البلاهة، وراح يردد بقوة: "ألا تخجل أيها الخنزير الصغير، ألا تخجل!" وكأنه أسطوانة الفونوغراف تعلن عن مواعيد تحرك القطارات، أما يد برجير فكانت بالعكس حية رشيقة وكأنها إنسان، وود لوسيان لو أنه يملك تلك اليد، ويزيحها عنه ويلويها، لكن برجير سيسخر منه ولا شك، وتزحلقت اليد على طول بطنه وتوقفت قليلا لتفك عقدة الحزام الذى يشد السروال، وترك اليد تتزحلق: كان ثقيلا مائعا كالإسفنجة المبللة وهو فى ذروة الفزع وأزاح برجير الغطاء، ووضع رأسه على صدر لوسيان وكأنه يجسه، وتجشأ لوسيان مرتين وخشى أن يتقيأ على شعر برجير الفضى الجميل

وقال له: "إنك تضغط على معدتى"، فارتفع برجير قليلا ووضع إحدى يديه على جسد لوسيان، أما اليد الأخرى فلم تعد تداعبه بل راحت تشد عليه، لكن برجير تركه فجأة ورفع رأسه على عجل، وقال بغضب: "يا لك من مغفل لعين، ها قد مضت ساعة، وهو يريد أن يلعب دور رامبو، ولم أستطع حتى الآن أن أثيره" وتصاعدت إلى عينى لوسيان دموع الغيظ ودفع برجير عنه بكل قواه، وقال بصوت دقيق "إنها ليست غلطتى، فقد قدمت لى كثيرا من الشراب وأريد الآن أن أتقيأ"

فقال برجير:"حسنا اذهب، اذهب، واملأ وقتك" وأضاف من بين أسنانه: "يا لها من أمسية عذبة"، ورفع لوسيان سرواله، وارتدى روب النوم الأسود وخرج، ولما أقفل باب المرحاض من جديد أحس بالوحشة والفراغ اللذين يعانيهما، إلى حد أن الدموع انهمرت من عينيه، لم يكن فى جيب روب النوم منديل فمسح عينيه وأنفه بالورق الصحى، وأدخل إصبعيه مرارا فى حلقومه ولكن عبثا، لم يستطع أن يتقيأ، عندها أنزل سرواله آليا وجلس على المقعد وهو يرتجف، وفكر فى نفسه:

"يا له من قذر! يا له من قذر!" أحس بأنه مهان إلى حد بعيد، لكنه لا يعرف إذا كان خجلا من مداعبات برجير أو من عدم اضطرابه، كانت تأتيه من الممر قرقعة ترتعد فرائصه عند سماعها، لكنه لم يكن بوسعه أن يقرر دخول الغرفة وفكر فى نفسه: "ينبغى على كل حال أن أعود إليها وإلا فسيسخر منى - مع برلياك!" وهم بالوقوف، لكنه رأى فجأة برجير بوجهه الحيوانى وكان يسمعه يقول: "ألا تخجل أيها الخنزير الصغير ألا تخجل" ، فعاد إلى الجلوس يائسا كل اليأس! وما هى إلا لحظة حتى أصيب بإسهال قوى" فارتاح قليلاً وفكر فى نفسه: "ما إن الأمر ينتهى من أسفل، وأنا أفضل هذا". فى الواقع، إنه لم يعد يرغب فى التقيؤ. وفكر فى نفسه فجأة: "سيؤذينى" وظن بأنه سيغمى عليه. وأخيرًا شعر لوسيان بالبرد الشديد وأخذت أسنانه تصطك؛ وفكر بأنه سيصاب بالمرض فى الحال. ولما عاد، نظر إليه برجير متضايقًا؛ كان يدخن سيجارة، وبيجامته مفتوحة، يبدو من تحتها صدره الضعيف. وخلع لوسيان بتؤدة خفه وروب النوم،

وانزلق تحت الغطاء دون أن ينبس بكلمة. فسأله برجير: "كيف أنت؟" فهز لوسيان كتفيه: "أشعر بالبرد! "

ـ هل تريد أن أدفئك؟

فقال لوسيان:

ـ حاول دائمًا.

فى هذه اللحظة أحس بأنه ينسحق تحت عبء ثقيل. لم يعد لوسيان يفقه شيء، ولم يعد يدرى أين هو وكاد أن يختنق، لكنه سر لأنه شعر بالدفء. وفكر بمدام بيس التى كانت تضع يدها على بطنه وهى تناديه "يا لعبتى الصغيرة". وفكر أيضًا بهبرار الذى كان يسميه "الهليونة الكبيرة". وفى الحمام الذى كان يأخذه فى الصباح وهو يتخيل أن السيد بوفاردييه سيدخل عليه ليغسله، ويقول فى نفسه: "أنا لعبته الصغيرة!" فى تلك اللحظة أرسل برجير صيحة الانتصار وقال: "وأخيرًا ها أنك قد عزمت". وأضاف وهو يلهث: "هيا، سنصنع منك شيئًا" وحرص لوسيان على أن يخلع بيجامته بنفسه.

فى اليوم التالى، استيقظا عند الظهر. وأتى الخادم بطعامهما إلى السرير، ووجد لوسيان أنه غريب الهيئة. وفكر فى نفسه بارتعاشة تنم عن الاشمئزاز: "إنه يعتبرنى مغفلاً". أما برجير فكان فى منتهى الدماثة، ارتدى ثيابه قبل لوسيان وراح يدخن سيجارته فى محلة الفيورمارشيه، بينما كان لوسيان يستحم وفكر لوسيان وهو يفرك جسمه بعناية: "كل ما هنالك، أن العملية مقلقة". ما إن مضت لحظة الذعر، وأحس بأنها ليست أليمة بقدر ما توقع، اجتاحه قلق قاتم. كان يأمل دائمًا أن ينتهى ذلك وأن يستطيع أن ينام، لكن برجير لم يتركه وشأنه قبل الرابعة صباحًا وقال فى نفسه: "ينبغى أن أنهى مسألة التريفونومترى مهما يكن من أمر". وحاول أن يحصر تفكيره بعمله. كان النهار طويلاً. سرد له برجير قصة لوتريامون، لكن لوسيان لم يصغ إليها بانتباه. إذ إن برجير بات يزعجه قليلاً. وفى المساء ناما فى كودبيك، وبالطبع أزعج برجير لوسيان لوقت لا بأس به ولكن نحو الساعة الواحدة، قال له لوسيان بصراحة إنه يشعر بالنعاس، فتركه برجير

وشأنه بدون أن يغضب. وعاد إلى باريس فى نهاية بعد الظهر. ولم يكن لوسيان راضيًا عن نفسه.

واستقبله أبواه استقبالاً حسنًا. وسألت أمه: "هل شكرت السيد برجير على الأقل". وتحدث معهما قليلاً عن الريف النورماندى وآوى إلى فراشه فى ساعة مبكرة. ونام كالملاك، لكنه فى صبيحة اليوم التالى ، شعر عندما استيقظ بأنه يرتجف فى داخله فنهض ونظر إلى نفسه مليًا فى المرآة. وقال فى نفسه :

"أنا لواطى". وخارت قواه. وصاحت أمه من خلف الباب:

" انهض يا لوسيان عليك أن تذهب إلى الكلية هذا الصباح" فأجابها لوسيان بليونة: "نعم يا أمى". لكنه استلقى على سريره وراح ينظر إلى أصابع قدميه. "ليس هذا صوابًا، لم أكن أعى ذلك؛ أنا؛ ليست لدى أية تجربة". تلك الأصابع، قد مصها أحد الرجال الواحدة تلو الأخرى. وأشاح لوسيان بوجهه بعنف: "كان هو يعرف ذلك أن الفعل الذى جعلنى أقدم عليه يحمل اسمًا، إنه يسمى مضاجعة رجل لرجل، وهو يعرف ذلك "إنه أمر مضحك - وابتسم لوسيان بمرارة -بوسع الجميع أن يتساءلوا أيامًا طوالاً: هل أنا ذكى، هل أنا ساذج، وليس بالإمكان التوصل إلى نتيجة. إلى جانب هذا، هناك أمور تتعلق بك يومًا من الأيام، وينبغى تحملها طيلة الحياة. كان لوسيان، على سبيل المثال، طويلاً أشقر، يشبه أباه، وهو ابن وحيد، وهو لواطى ابتداء من يوم أمس سيقال عنه: "فلورييه. أنت تعرف حق المعرفة، هذا الطويل الأشقر الذى يحب الرجال !" وسيجيب الناس: "آه! نعم. الرجل الطويل؟ حسنًا، أعرف من هو".

وارتدى ثيابه وخرج، لكنه لم ينو الذهاب إلى مدرسته. ونزل إلى جادة لا مبال حتى وصل إلى السين. وسار بمحاذاة الأرصفة. كانت السماء صافية، والشوارع تفوح برائحة الورق الأخضر والقطران والتبغ الإنجليزى. وقت يحلم المرء به ليرتدى أحلى ثيابه على جسده النظيف وبروح جديدة. كان الجميع يتمتعون بمعنوياتهم؛ أما لوسيان فظل وحده محتارًا وغريبًا فى هذا الربيع. وفكر فى نفسه: "إنه الانحدار الحتمى: بَدأت بعقدة أوديب، ثم أصبحت ساديًا شرجيًا،

والآن جمعت كل شيء إذ أصبحت لوطيًا. فأين ينبغي أن أقف؟" لا شك أن حالته لم تكن شديدة الخطورة فلم يستمتع كثيرًا بمداعبات برجير. ولكنه فكر بقلق: "ولكن إذا اعتدت على ذلك؟ لا يعود بإمكاني الاستغناء عنه، إذ يصبح كالمورفين!" سيصبح رجلاً ذا عاهة، ما من أحد يقبل أن يستقبله، وسيسخر منه عمال أبيه عندما يصدر إليهم أمره. وتصور لوسيان مصيره الرهيب. ورأى نفسه في الخامسة والثلاثين رقيقًا متبرجًا، ورجلاً له شاربان يحمل وسام جوقة الشرف، يرفع عصاه بهيئة تبعث على الرهبة "إن وجودك هنا أيها السيد إهانة لبناتي" وفجأة تأرجح ذات اليمين وذات اليسار فقد تذكر عبارة من عبارات برجير كان ذلك في كودبيك أثناء الليل. قال له برجير: "حسنًا قل لي. هل أصبحت تستسيغ ذلك!" ما كان يعنيه! بالطبع، لم يكن لوسيان من خشب. وقال في نفسه قلقًا: "هذا لا يدل على شيء "لكن هناك من يعتقد بأن هؤلاء الأشخاص كانوا مدهشين في التعرف على أشباههم، كانت لديهم حاسة سادسة. نظر لوسيان مطولا إلى رقيب المدينة الذي كان ينظم السير أمام جسر الايانا "هل بإمكان هذا الشرطي أن يهيجني؟" وثبت نظره على سروال الشرطي الأزرق، وتصور فخذيه الزاخرين بالعضلات، المكسوين بالشعر: "هل هذا يحرك في شيئًا؟" وذهب بعد أن وجد لنفسه تعزية. وفكر في نفسه: "ليس الأمر خطيرًا جدًا، إذ إن بإمكاني أن أنقذ نفسي. لقد أفرط في استغلال تشوشي لكنني لست لوطيًا حقيقيًا "وعاود، التجربة مع جميع الرجال الذين صادفهم، وفي كل مرة كانت النتيجة سلبية. وفكر في نفسه:

"أف، إنني أشعر بشدة الحر". أن هذا تحذير، ذلك كل شيء ليس عليه أن يعيد الكرة، لأن العادة السيئة يمكن تلقنها بسرعة ثم إن عليه أن يشفى دون أن يعلم أبويه بذلك. وبعدها، يتخذ لنفسه عشيقة ويصبح رجلاً كسائر الرجال.

وبدأ لوسيان يطمئن حين يفكر ببرجير: في اللحظة نفسها، كان برجير في باريس شديد الرضى عن نفسه يعيش مع ذكرياته الجميلة: "إنه يعرف تكويني، ويعرف فمي، لقد قال لي: "لك رائحة لن أنساها قط". سيذهب إلى أصدقائه ليفتخر أمامهم ويقول: "لقد نلته". في هذه اللحظة يمكن أن يكون منهمكًا بسرد

أخبار لياليه إلى... - وتوقف قلب لوسيان عن الخفقان إلى برلياك! لو فعل هذا، لقتلته. إن برلياك يكرهنى، وسيخبر بذلك جميع من فى الصف، فأصبح رفيقًا مارقًا، ويرفض رفاقى أن يمدوا أيديهم لمصافحتى. وقال لوسيان فى نفسه أيضًا:

"سأقول إن ذلك غير صحيح، وسأقيم دعوى، وأقول إنه اغتصبنى! "كان لوسيان يكره برجير بكل ما أوتى من قوة: فبدونه، بدون هذا الضمير الفاضح الذى ليس له دواء، كان بالإمكان تسوية كل شىء، إذ لا أحد يدرى بذلك ثم إن لوسيان نفسه سينسى الأمر. "لو كان بالإمكان أن يموت بسرعة! يا رب، أتوسل إليك، اجعله يموت هذه الليلة قبل أن يخبر أحدًا بذلك. يا رب، اجعل هذه القصة منسية، فأنت لا تقبل بأن أكون لوطيًا!" وفكر لوسيان بغيظ: "إنه يمسكنى على كل حال سينبغى أن أعود إلى بيته وأفعل كل ما يريده منى وأن أقول بأننى أحب تلك العادة، وإلا لفقدت نفسى!" ومشى خطوات أخرى وأضاف كأنه يقدم على تدبير احترازى: "يا رب، واجعل برلياك يموت أيضًا".

لم يعد بوسع لوسيان أن يعود إلى بيت برجير. وفى الأسابيع التى تلت، كان يظن بأنه يلاقيه عند كل خطوة، وعندما يعمل فى غرفته، ترتعد فرائصه لدى سماعه الجرس. فى الليل رأى كوابيس رهيبة: برجير يأخذه بالقوة فى باحة كلية سان لويس أمام أنظار جميع الرفاق الذين ينظرون ساخرين. لكن برجير لم يقم بأية حركة لمقابلته ولم تصدر عنه أيه إشارة تدل على أنه حى. وفكر لوسيان منزعجًا: "لم يكن يحقد سوى على جلدى". واختفى برلياك أيضًا، حتى إن جيجار، الذى كان يذهب معه أحيانًا إلى ميدان السباق يوم الأحد، قد أكد بأنه غادر باريس على إثر انهيار عصبى. وهدأت أعصاب لوسيان شيئًا فشيئًا: إن رحلته إلى روان أحدثت فى نفسه أثر حلم غامض فظ لا يرتبط بشىء. لقد نسى جميع تفاصيله، ولم يعد يتذكر سوى رائحة اللحم البشرى الكئيبة، ورائحة العطر وكذلك القلق الذى لا يرحم. وسأل السيد فلورييه مرارًا عما حدث للصديق برجير: "ينبغى أن ندعوه إلى فيرول لنشكره". فأجاب لوسيان:

- لقد ذهب إلى نيويورك.

وذهب لوسيان مرات عديدة وتمرن على شاطئ المارن على قيادة القوارب برفقة جيجار وشقيقته، وعلمه جيجار الرقص. وفكر فى نفسه: "ها أننى أستيقظ، وأحيا من جديد". لكنه لايزال يحس فى بعض الأحيان بعبء يرزح على كاهله: تلك هى عقده النفسية؛ وتساءل إذا كان يجب أن يذهب لمقابلة فرويد فى فيينا: "سأذهب دون نقود، مشيًا على الأقدام إذا اقتضى الأمر، سأقول له: أنا مفلس لكننى أمثل حالة معينة". وفى أصيل يوم حار من شهر يونيو التقى فى شارع سان ـ ميشال إل بابوان، أستاذه السابق فى الفلسفة. فسأله البابوان: "ماذا يا فلورييه، هل تعد المدرسة المركزية؟"

فقال لوسيان: "نعم يا أستاذ". فقال إل بابوان: "كان بإمكانك أن تتجه نحو الدراسات الأدبية. فقد كنت من الطلبة الماهرين فى مادة الفلسفة". فقال لوسيان: "لم أتخل عن الفلسفة. وقد طالعت كثيرًا هذه السنة. طالعت فرويد مثلا". وأضاف وكأن وحيًا قد أتاه: "كان بودى أن أسألك يا أستاذ: ما رأيك بالتحليل النفسى؟" فأجابه إل بابوان ضاحكًا: "إنها تقليعة وتمر. وإن ما تجده حسنًا عند فرويد، تجده أيضا عند أفلاطون". وأضاف بلهجة لا تحتمل المناقشة: "على أنى لا أحسم فى مثل هذه الأمور، ولكن عليك أن تقرأ سبينوزا". وأحس لوسيان بأنه قد يرتاح من عبء ثقيل، وعاد إلى بيته وهو يصفر وفكر فى نفسه:

"كان كابوسًا، ولم يبق منه شىء!" كانت الشمس محرقة فى ذلك النهار، لكن لوسيان رفع رأسه ونظر إليها دون أن يغمض عينيه: إنها شمس العالم كله، وبوسع لوسيان أن يواجه هذا النهار؛ لقد أنقذ! وفكر فى نفسه؛ "إنه هراء. إنه هراء. لقد حاولوا أن يجعلونى مجنونًا لكنهم لم يفلحوا". فى الواقع إنه لا زال يقاوم: صحيح أن برجير قد أثر عليه فى تحليلاته، لكن لوسيان أحس مثلاً بأن لواطة رامبو هى عيب متأصل فيه، وتذكر حين أراد هذا البرلياك أن يدخن له الحشيش قاومه لوسيان بشدة. وفكر: "كدت أن أفقد نفسى، لكن الذى أنقذنى إنما هى صحتى المعنوية". وفى المساء عند العشاء نظر إلى أبيه والعائلة جالسة إلى مائدة الطعام، نظرة ملؤها العطف. كان السيد فلورييه مربع الكتفين، ثقيل الحركات وبطيئها مثل الفلاحين، أغبر العينين، يتمتع بالأصالة نحاسى النظرات كالرؤساء. وفكر لوسيان:

" إننى أشبهه". وتذكر بأن أفراد عائلة فلورييه أبًا عن جد، كانوا من أرباب الأعمال فى الصناعة، منذ أربعة أجيال، "ومهما قيل، فإن العائلة موجودة!" ثم فكر باعتزاز بصحة آل فلورييه المعنوية.

لم يتقدم لوسيان هذه السنة لامتحان المدرسة المركزية، وذهبت عائلة فلورييه إلى فيرول فى وقت مبكر جدًا. وسر لوسيان برؤية بيته من جديد وكذلك البستان والمصنع، والمدينة الهادئة المتزنة. إنه عالم آخر: وقرر أن ينهض فى الصباح الباكر ليقوم بنزهات كثيرة فى المنطقة. وقال لأبيه: "أريد أن أملأ رئتى بالهواء النقى لأتزود بالصحة استعدادًا للعام القادم وذلك قبل استئناف العمل". ورافق أمه فى زيارتها لعائلتى بوفاردييه وبيس، ووجد الجميع أنه أصبح شابا عاقلا ومتزنًا. كان هبرار وونكلمن اللذان يدرسان الحقوق فى باريس قد عادا إلى فيرول لقضاء العطلة. وخرج لوسيان مرات عديدة برفقتهم، وتحدثوا عن الألاعيب التى قاموا بها مع الكاهن جاكمار، وعن أغنيتهم فوق الدراجة وأنشدوا نشيد مدفع متز، بأصواتهم الثلاثة. كان لوسيان يقدر صراحة أصحابه القدامى وصلابتهم وأنحى باللائحة على نفسه لأنه تخلى عنهم. واعترف لهبرار بأنه لا يحب باريس ولم يكن بوسع هبرار أن يفهمه: فقد عهد به أبواه إلى أحد الكهنة وكان منظما جدا؛ وقد ظل مبهورًا بزيارته بمتحف اللوفر وبالأمسية التى قضاها فى الأوبرا. ورق لوسيان لهذه البساطة. وشعر بأنه شقيق هبرار وونكلمن الأكبر، وبات يشعر بأنه لا يأسف على تلك الحياة المعذبة التى قضاها: فقد أكسبته التجربة. وحدثهما عن فرويد وعن التحليل النفسى، وتسلى قليلاً بإثارة استنكارهما. فقد انتقدا بعنف نظرية العقد النفسية لكن آراءهما كانت ساذجة كما بين لهما لوسيان، ثم أضاف بأننا إذا اتخذنا موقفا من وجهة النظر الفلسفية، فإننا نستطيع بسهولة دحض نظريات فرويد. وكانا شديدى الإعجاب به، فيتظاهر لوسيان بأنه لا ينتبه لذلك.

وشرح السيد فلورييه للوسيان كيفية العمل فى المصنع. كما اصطحبه لزيارة الأبنية المركزية، وراقب لوسيان مطولاً شغل العمال. وقال السيد فلورييه: "إذا مت ينبغى أن تتمكن بين يوم وآخر من السيطرة على زمام المصنع. وزجره لوسيان قائلاً:

"ألا تريد يا أبتاه، أن تكف عن هذا الحديث!" لكنه فكر فى الأيام التالية بالمسئولية الكبرى التى ستلقى على عاتقه إن عاجلا أم آجلا. وتبادلا الآراء حول واجبات رب العمل، وشرح له السيد فلورييه بأن الملكية ليست حقًا بل هى واجب. وأضاف:

"يريدون أن يزعجونا بصراع الطبقات، كما لو أن مصلحة أرباب العمل ومصلحة العمال متعارضة! خذ مثلا حالتى يا لوسيان أنا رب عمل صغير، وهذا ما يسمونه بالمضارب بلغة باريس العامية. حسنًا، إننى، مسئول عن مائة عامل مع عائلاتهم. فإذا قمت بصفقات كبيرة، فهم أول من يستفيد منها. لكننى إذا أرغمت على إغلاق المصنع، فسوف يتشردون فى الشارع. وقال مشددًا على كلامه: "وليس لى الحق" أن أقوم بصفقات ضارة. وهذا ما أسميه أنا تضامن الطبقات".

وجرى كل شىء على ما يرام طيلة ثلاثة أسابيع. ولم يعد يفكر أبدًا ببرجير. فقد سامحه: و كان كل ما يتمناه على الأقل هو ألا يعود إلى رؤيته مدى الحياة. وأحيانًا حين يبدل قميصه، كان يقف أمام المرآة وينظر إلى نفسه بدهشة، ويفكر: "لقد اشتهى رجل هذا الجسد". ويمر بيديه على ساقيه مفكرًا: "هناك رجل اضطرب من هذه السيقان". ويمد يده إلى مكان كليته ويأسف على أنه ليس رجلاً آخر ليداعب جسده كما يداعب قطعة الحرير. وكان يأسف أحيانًا على عقده: فهى صلبة، شديدة، ترهقه بعبئها الثقيل على كاهله. أما الآن، فقد انتهى كل شىء، ولم يعد لوسيان يؤمن بها وأحس بخفته الفائقة. لم يكن ذلك من الأشياء غير السارة ، بل هو نوع من خيبة الأمل التى يستطيع تحملها، والمؤلمة إلى حد ما، والتى يمكن اعتبارها نوعًا من القلق. وفكر فى نفسه: "أنا لا شىء، وذاك لأننى لم أتلطخ بشىء. أما برلياك فهو متورط إلى حد الدنس. وبإمكانى أن أتحمل القليل من التردد والشك، فذلك هو ثمن النقاء".

وفكر فى إحدى رحلاته بعد أن جلس على منحدر: "لقد نمت ست سنوات، ثم أفقت ذات يوم وخرجت من شرنقتى". كان مفعمًا بالحيوية وهو يتطلع ببشاشة إلى المناظر المحيطة. وقال فى نفسه: "لقد خلقت من أجل العمل!". لكن أفكاره عن المجد فقدت رونقها. وقال بصوت خافت: "فلينتظروا قليلاً حتى يروا ما

أساوى". وتكلم بقوة لكن الكلمات تدحرجت من فمه كالأصداف الفارغة: "ما بى؟". ذلك القلق الغريب الذى لم يرض بالاعتراف به، سبب له فيما مضى أذى كبيرًا. وفكر فى الماضى: "إنه هذا السكون.. هذه البلاد .."

ما من كائن حى سوى صراصير الليل تجرّ أجسادها الصفراء والسوداء وسط الغبار بصعوبة. كان لوسيان يكره صراصير الليل لأنها تبدو أقرب إلى الموت. وفى الجهة الثانية رأى الأرض الرمادية المتعبة المتصدعة تنزلق لتصل إلى حافة النهر. ما من أحد يرى لوسيان، ما من أحد يسمعه. وقفز فى الفضاء وتهيأ له بأن حركاته لا تصادف أية مقاومة، ولا حتى مقاومة الجاذبية. وهو الآن واقف وراء ستار من الغمام الأغبر. لكأنه موجود فى الفراغ. وفكر فى نفسه: "هذا السكون..." كان شيئًا يفوق السكون، إنه العدم. وحول لوسيان بدا السهل ساكنًا رخوًا عديم الحياة بشكل عجيب: وبدا له أن السهل يتقلص كثيرًا قاطعًا تنفسه كيلا يزعجه "عندما عاد جندى المدفعية فى ميتز إلى كتيبته..." وانطفأ الصوت على شفتيه كلهيب فى فراغ: كان لوسيان وحده، بلا ظل، ولا صدى، وسط هذه الطبيعة الرزينة، التى لا تزعج بثقلها. وارتعش قليلا وحاول أن يعيد وصل حبل أفكاره:

"لقد خلقت من أجل العمل. بداية، أنا لى دائرة اختصاصى، قد أرتكب الحماقات، لكن هذا لن يبلغ مدى بعيدًا لأننى سأعود إلى رشدى". وفكر: "لدىّ حجة معنوية". لكنه توقف بعد أن كشر عن أسنانه مشمئزا، كم بدت له غريبة فكرة الكلام عن "الصحة المعنوية "، على تلك الطريق البيضاء التى تسير كانت تعبرها الحيوانات فى نزاعها الأخير. ولشدة غيظه داس لوسيان أثناء سيره على صرصار؛ وشعر تحت قدمه بكرة صغيرة من المطاط ولما رفع رجله كان الصرصار لايزال على قيد الحياة، فبصق لوسيان عليه. "إنى حائر، إنى حائر، كما فى العام الماضى".

وراح يفكر بونكلمن الذى كان يلقبه"ببطل الأبطال"، وفى السيد فلوريبه الذى كان يعامله كرجل، وفى السيدة بيس التى قالت له:

"هذا الصبى الذى كنت أناديه بلعبتى الصغيرة، لم أعد أجرؤ على مخاطبته بصيغة المفرد كطفل صغير، إنه يخجلنى". لكنهم كانوا بعيدين، بعيدين جدا، وبدا

له أن لوسيان الحقيقى قد فقد، وليس سوى يرقة بيضاء متحيرة". ما أنا؟ " كيلومترات وكيلومترات تمتد على مداها الأراضى البور، بلا عشب ولا رائحة، إلا الهليونة التى، تخرج منتصبة فجأة من هذه الأرض الرمادية، والتى لشدة غرابتها، ليس لها أى ظل. "من أكون؟" لم يتغير السؤال منذ العطلة السابقة، وكأنه ينتظر لوسيان حيث تركه ليرد عليه، أو بالأحرى ليس سؤالاً، بل هو حالة من الحالات.

وهز لوسيان كتفيه وفكر: "إننى شديد الوسوسة" وأحلل نفسى كثيرًا".

فى الأيام التالية، حاول جهده ألا يعود إلى تحليل نفسه: بل أراد أن يجعل الأشياء تسحره، ونظر مطولاً إلى الأشجار والواجهات، وامتدح أمه كثيرًا وهو يرجوها أن تريه الطقم الفضى.

لكنه بينما كان ينظر إلى الطقم الفضى، فكر بأن وراء نظرته غمامة صغيرة تتراقص. وعبثًا حاول لوسيان أن يركز انتباهه على حديثه مع السيد فلورييه، لكن الغمامة ـ التى فى كثافتها تشبه الضوء زيفا ـ قد تسللت إلى ما وراء الانتباه الذى كان يبديه لكلمات أبيه: تلك الغمامة ، هو نفسه. من وقت لآخر، كان لوسيان لشدة ضيقه يتغاضى عن الإصغاء، ويستدير إلى الوراء، يحاول أن يمسك بالغمامة وينظر إليها مواجهة: ولم يصادف سوى الفراغ، والغمامة لا تزال وراءه.

وجاءت جرمين باكية أمام السيد فلورييه، تقول إن أخاها أصيب بالتهاب رئوى. فقالت السيدة فلورييه:

ـ مسكينة يا جرمين، هذا الذى كنت تقولين عنه دائما إنه متين العود!

منحتها عطلة شهر، واستقدمت ابنة أحد عمال المصنع لتحل محلها، وهى برت موزيل الصغيرة، ذات السبعة عشر ربيعا. إنها فتاة قصيرة ذات جدائل شقراء تلفها حول رأسها، وهى تعرج بعض الشىء. ولما كانت قادمة من كونكارنو، طلبت منها السيدة فلورييه أن ترتدى غطاء رأس موشى بالدنتيل، "فهذا أكثر لياقة". ومنذ أيامها الأولى، أخذت عيناها الزرقاوان الواسعتان، تشعان بالمحبة العنيفة عند رؤية لوسيان. أدرك وفهم لوسيان أنها تعبده. وتحدث إليها بلطف وسألها مرات عديدة: "هل أنت سعيدة فى بيتنا؟".

فى الممرات كان يلامسها ليرى أثر الملامسة فيها، لكنها كانت تحنو إليه، فوجد فى تلك المحبة تعزية خالصة. كان يفكر أكثر الأحيان بنوع من التأثر بالصورة التى كونتها برت عنه:

"فى الواقع أننى لا أشبه قط أولئك العمال الذين تخالطهم برت". وأدخل ونكلمان إلى المكتب بحجة تافهة، فوجدها جذابة، وقال له:

"إنك لمحظوظ، لو كنت فى مكانك لأقدمت، لكن لوسيان كان يتردد: إذ إن رائحة العرق تفوح منها، كما أن قميصها الأسود أصبح رثًا تحت ذراعيها. فى أصيل يوم ممطر من شهر سبتمبر، قصدت السيده فلورييه باريس بالسيارة، وبقى لوسيان وحده فى الغرفة. استلقى على سريره وراح يتثاءب. وبدا له أنه غمامة متقلبة الأطوار وعابرة ، تبقى على حالها وتتغير فى الوقت نفسه، كما تذوب دائمًا فى الأهواء والشواطئ. إننى أسأل نفسى لماذا أنا موجود؟" إنه هنا، يهضم طعامه، ويتثاءب، ويستمع إلى المطر الذى يقرع الزجاج، والغمامة البيضاء تتهادى فى رأسه: وبعدها؟ إن حياته كانت فضيحة ولا تكاد المسئوليات التى سيتحملها فيما بعد تكفى لتبريرها. وقال فى نفسه: "على أنى، لم أطالب أحدًا بخلقى". واعتراه نوع من الشفقة على نفسه. وتذكر قلقه حين كان طفلاً، وسيره الطويل أثناء النوم، فبدا له قلقه على صورة جديدة: فى الواقع أنه ما برح ينزعج من حياته، من تلك الهدية الضخمة غير المجدية، التى حملها بين ذراعيه دون أن يعرف أين يضعها وماذا هو فاعل بها.

"لقد أمضيت وقتى فى الأسف على ولادتى". لكنه كان شديد الإحباط حتى إنه لم يستطع أن يذهب بأفكاره إلى أبعد من ذلك. فنهض، ثم أشعل سيجارة ونزل إلى المطبخ ليطلب من برت أن تحضر له قليلا من الشاى.

ولم تره برت وهو يدخل. فلمس كتفها فانتفضت بعنف وسألها: "هل أخفتك؟" ونظرت إليه بوجه ملؤه الرهبة وهى تلقى بكلتا يديها على الطاولة، وارتفع صدرها قليلاً. وما هى إلا هنيهة حتى ابتسمت ثم قالت: "فوجئت بوجودك، إذ لم أكن أدرى أن هناك أحدًا". فبادلها لوسيان الابتسامة بتسامح وقال لها:

"أرجو أن تعدى لى فنجانا من الشاى". فأجابت الصغيرة وهى تسرع نحو الموقد: "سأعده فى الحال يا سيد لوسيان". بدا لها أن وجود لوسيان شديد الوطأة عليها. مكث لوسيان عند عتبة الباب مترددًا وسألها بلهجة أبوية: "هل أنت سعيدة فى بيتنا؟" كانت برت تدير له ظهرها، تملأ الطنجرة من الصنبور. فخيم خرير الماء على إجابتها. وانتظر لوسيان لحظة، وما إن وضعت الطنجرة على النار حتى تابع كلامه: "هل سبق لك أن دخنت؟" فأجابت الفتاة بحذر: "مرات كثيرة". وفتح علبته ماركة كرافن، وناولها إياها. لم يكن شديد السرور إذ بدا له أنه يعرض نفسه للخطر، فما كان ينبغى عليه أن يقدم لها سيجارة. فقالت بدهشة:

- هل تريد... أن أدخن؟

- ولم لا؟

- ستعنفنى السيدة.

واعترى لوسيان شعور التآمر المقيت. فراح يضحك وقال:

"لن نخبرها بذلك". فاحمر وجه برت، وتناولت سيجارة بطرف أصابعها ووضعتها فى فمها. "هل ينبغى أن أشعلها لها؟ هذا خطأ". فقال لها: "ألا تشعلينها؟" كانت تزعجه، إذ بقيت فى مكانها، جامدة الذراعين، محمرة الوجه طائعة، تزم شفتيها حول السيجارة، وكأنها تضع فى فمها ميزان الحرارة. وأخيرًا تناولت عود ثقاب من علبة حديدية بيضاء، وحكت العود، وأخذت عدة أنفاس وهى تغمز بعينيها، وقال: "هذا لذيذ". ثم أخرجت السيجارة من فمها، وضغطت عليها بأصابعها الخمسة. وفكر لوسيان "هل ولدت ضحية؟" ثم خرجت عن تحفظها قليلاً، حين سألها إذا كانت تحب موطنها بريتانيا، فشرحت له أنواع رداء الرأس الموجودة فيها، حتى إنها أنشدت بصوت عذب خاطئ الإيقاع، أغنية لروسبوردن. ومازحها لوسيان بلطف، لكنها لم تفهم المازحة وراحت تنظر إليه بوجه ملؤه الخوف، كانت فى تلك اللحظات تشبه الأرنب الأليف. وجلس على طاولة وأحس براحة فائقة، وقال لها: "استريحى إذًا". "أوه كلا يا سيد لوسيان.

ليس أمام السيد لوسيان". فأمسكها من تحت إبطيها وشدها نحو ركبتيه وسألها: و"هكذا؟" وسمحت له بذلك بوجه ملؤه الانشراح واللوم، وتمتمت بلهجة غريبة "على ركبتيك!". ففكر لوسيان بقلق: "لقد ذهبت بعيدا، ولم يكن ينبغي عليّ أن أبعد إلى هذا الحد" وسكت : بينما ظلت هي جالسة على ركبتيه، شديدة الدفء، هادئة تماما، لكن لوسيان أحس بقلبه يخفق وفكر: "إنها شيء لي، بإمكاني أن أفعل بها ما أريد" وتركها، ثم أخذ إبريق الشاي وصعد إلى غرفته: ولم تقم برت بأية حركة لإمساكه، وقبل أن يحتسي الشاي، غسل لوسيان يديه بصابون أمه المعطر، إذ إن رائحة إبطيها كانت تفوح منهما.

"هل سأضاجعها؟" شغلت هذه المسألة الصغيرة بال لوسيان في الأيام التي تلت. كانت برت تقف طيلة الوقت في طريقه وتنظر إليه بعينين كئيبتين وذليلتين، وانتصرت الأخلاق، أدرك لوسيان بأنه قد يجعلها حاملا لأنه ليس ذا خبرة كافية (ومن المستحيل أن يشتري "الأكياس الواقية" من فيرول، لأنه معروف فيها) وأنه سيسبب مشاكل للسيدة فلوربيه. وفكر في نفسه بأن مهابته في المصنع ستقل كثيرا إذا أخذت ابنة أحد العمال تتفاخر بأنها ضاجعته، "ليس لي الحق أن ألامسها". وتجنب الانفراد ببرت طيلة الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، وقال له ونكلمن: "وأخيرا ماذا تنتظر؟" فأجاب لوسيان إجابة جافة: "لن أقدم على هذه الخطوة فأنا لا أرغب في غرام الخادمات ولما سمعه ونكلمن يتحدث عن غرام الخادمات، صفر صفيرا خفيفا وسكت.

كان لوسيان شديد الرضى عن نفسه: لقد تصرف كإنسان كريم، وهذا ما كفر له عن كثير من الأخطاء، ثم يقول ببعض الأسف: "كانت جديرة بأن تقطف"، لكنه يعود ويفكر:

" لكأنني نلتها: إذ هي قدمت نفسها ولم أرض" واعتبر أنه ليس بعد بكرا، تلك المسرات الخفيفة شغلته عدة أيام ثم تحولت بدورها إلى غمام. وفي بداية شهر أكتوبر، أحس بنفس الضيق الذي كان فيه في العام الدراسي المنصرم.

ولم يكن برلياك قد عاد ولا أحد يعرف شيئا عن أخباره، ولاحظ لوسيان وجود بعض الوجوه التي لا يعرفها: فجاره الذي كان يجلس إلى يمينه واسمه لي

موردان درس سنة فى فرع الرياضيات فى بواتييه، كان أطول من لوسيان، و مع شاربه الأسود، كانت له هيئة رجل كبير، قابل لوسيان رفاقه بغير سرور، لأنهم بدوا بعينه تافهين كثيرى الضجيج: كانوا رهبانا. وهو لا يزال يشترك تظاهراتهم الجماعية ولكن بغير حماس، وكلما سمحت له صفته "كرجل موزون". واجتذبه لى موردان لأنه أكثر نضجا من الآخرين، لكنه لم يبد عليه أنه قد اكتسب ـ مثل لوسيان ـ هذا النضج من تجاربه الكثيرة الشاقة: فقد ولد بالغا. وغالبا ما كان لوسيان يتمتع بمنظر هذا الرأس الضخم المفكر، الذى لا عنق له، وإنما غرس بين الكتفين، كان يبدو مستحيلا إدخال أى شىء فيه لا عن طريق الأذنين ولا عن طريق العينين الصينيتين المحمرتين. وفكر لوسيان باحترام: "إنه شخص له آراؤه الراسخة" كما كان يتساءل، وليس بغير حسد، عما يمكن أن يكون ذاك اليقين الذى يجعل لى موردان، يعى نفسه إلى هذا الحد". وهذا ما ينبغى أن أكونه: صخرة" ودهش كثيرا إذ كيف للى موردان أن يفقه المنطق الرياضى، وطمأنه الأستاذ هوسون بعد أن رد لهم الواجبات الأولى: حل لوسيان سابعا، أما لى موردان فقد حصل على خمس درجات وحل فى الدرجة الثامنة والسبعين .

كل شىء كان يسير بانتظام، ولم يتعجب لى موردان، إذ يبدو أنه توقع نتيجة أسوأ، ولم يكن خداه الأصفران الناعمان، وفمه الصغير، لتعبر عن المشاعر، إنه كتمثال بوذا، لم يره أحد وهو غاضب سوى مرة واحدة، فى اليوم الذى دفعه لوفى فى غرفة الثياب، أطلق فى البداية بعض الهمهمات الحادة وهو يرفرف بحاجبيه، ثم قال فى النهاية "فى بولندا ! فى بولندا! يا يوبان القذر، ولا تلطخنا بقذراتك هنا" وخيم على لوفى بقامته الضخمة وما لبث أن صفعه صفعتين، فاعتذر لوفى القصير، ووقف الأمر عند هذا الحد.

خرج لوسيان يوم الخميس بصحبة جيجار، وقد دعاه إلى الرقص عند صديقات شقيقته، لكن جيجار اعترف فى النهاية بأن هذه البلاهات تقلقه.

وأسر للوسيان قائلا: "لى صديقة موظفة عند بليسنييه الكائن فى شارع رويال ولها صديقة ليس عندها صاحب: فعليك أن تأتى معنا مساء السبت" وتنازع لوسيان مع أسرته حتى سمحوا له بالخروج أيام السبت، على أن يتركوا له المفتاح

تحت مشاية المدخل ولحق بجيجار فى الساعة التاسعة فى إحدى الحانات فى شارع سانت ـ هونورى، وقال جيجار: "سترى أن فانى جذابة ومن ميزاتها أنها تحسن الاعتناء بهندامها."

ـ وصديقتى أنا؟

ـ أنا لا أعرفها، لكننى أعرف أنها عاملة خياطة قدمت إلى باريس مؤخرا من أنجوليم.

وأضاف: "لا تخطئ: أنا بيير دورا وأنت بما أنك أشقر، فقد قلت بأن لك أصولاً إنجليزية، فهذا أفضل، واسمك لوسيان بونيار.

فسأل لوسيان بقلق:

ـ ولكن لماذا؟

فأجاب جيجار:

ـ يا صاح ـ إنه مبدأ، بإمكانك أن تفعل أى شىء مع هؤلاء النسوة، ولكن ليس بإمكانك أن تعطيهن اسمك الحقيقى.

فقال لوسيان:

ـ حسنا ، حسنا ، وماذا عن مهنتى فى الحياة ؟

بإمكانك أن تقول إنك طالب، فهذا أفضل، فعشرة الطلاب تروق لهن، ثم إنك تضطر لدفع ثمن باهظ، أما بالنسبة للتكاليف فسنقتسمها بالطبع، ولكن دعنى أدفع هذا المساء لأننى معتاد على ذلك، وسأبلغك يوم الإثنين بالمبلغ الذى ينبغى أن تدفعه لى". وفكر لوسيان فى الحال بأن جيجار يريد أن يجنى مكسبا من وراء ذلك، وفكر أيضا فى نفسه بضحك: "كم أصبحت حذرا!" فى تلك اللحظة بالذات دخلت فانى: كانت فتاة طويلة سمراء اللون نحيلة الجسم، ذات فخذين مديدين ووجه شديد التبرج، فوجدها لوسيان مهيبة وقال جيجار: "إنه السيد بونيار الذى حدثتك عنه".

فقالت فانى بغير اهتمام: "تشرفنا وهذه مود، صديقتى". وأبصر لوسيان امرأة قصيرة القامة وتضع على رأسها قبعة من الزهور، وغير متبرجة، كما بدا لونها أغبر إلى جانب فانى الرائعة. أصيب لوسيان بخيبة أمل مريرة، لكنه وجدها جميلة الثغر. ثم إنه لن يشعر معها بانزعاج واتفق جيجار معهما على الأجرة وسط الضجة التى سادت عند دخولهما، واصطحب الفتاتين نحو الباب، قبل أن يفسح لهما المجال كى تتناولا شرابا ما، لم يكن السيد فلورييه يعطى لوسيان أكثر من مائة وخمسة وعشرين فرنكا فى الأسبوع من ضمنها أجرة المواصلات، كانت الأمسية جميلة، فقد ذهبوا ليرقصوا فى الحى اللاتينى، فى قاعة ساخنة وردية ذات زوايا مظلمة، وحيث كأس الكوكتيل ثمنه مائة فلس. كان فيها الكثير من الطلبة مع نسوة من طراز فانى ولكن دونها رونقا. كانت فانى رائعة: نظرت إلى رجل سمين أطلق لحيته ووضع فى فمه غليونا وصاحت بأعلى صوتها: "إننى أكره الرجال الذين يضعون الغليون فى حلبة الرقص". فاحمر وجه الرجل ووضع غليونه وهو يشتعل، فى جيبه. كما أنها عاملت جيجار ورفيقه لوسيان باحتقار مرددة على مسامعهما: "أنتما صبيان قذران". وأحس لوسيان بأنه مرتاح جدا، وقد سرد لفانى كثيرا من الدعابات المسلية وكان يبتسم وهو يقولها، وأخيرا لم تعد الابتسامة تفارق وجهه وعرف كيف يتدبر أمره بنوع من اللياقة. لكن فانى حدثته قليلا: فقد كانت تمسك بذقن جيجار بيدها وتضغط عليها لتبرز فمه إلى الخارج، وما تتدفق شفتاه وتنتفخان مثل الفاكهة المنتفخة بالعصير حتى تروح تلمسهما برفق قائلة: "يا طفلى" أحس لوسيان بانزعاج شديد ووجد جيجار مضحكا: إذ تلطخت شفتاه بأحمر الشفاه وعلى وجهه آثار أصابع، لكن وضع الرفاق الآخرين كان أكثر إهمالا: الجميع يتعانقون، كما تأتى من وقت لآخر السيدة المسئولة عن غرفة الثياب وفى يدها سلة صغيرة وترمى بكرات متعددة الألوان وشرائط حلزونية وتصيح: "هيا يا أبنائى استمتعوا! اضحكوا!" ويبدأ الجميع بالضحك وأخيرا تذكر لوسيان بأن مود موجودة فقال باسما: "انظرى إلى هذين العاشقين" وهو يعنى جيجار وفانى، وأضاف: "أما نحن فشيخان وقوران..." ولم ينه عبارته، بل ضحك بصورة غريبة حتى ضحكت مود بدورها، وانتزعت

قبعته، ورأى لوسيان أنها كانت أفضل من سائر النساء اللاتى كن فى الحلبة. عندئذ دعاها للرقص وحدثها عن الألاعيب التى قام بها مع الأساتذة، عندما كان فى البكالوريا إنها تحسن الرقص كما أن عينيها سوداوان رصينتان، وعليها سيماء النباهة، حدثها لوسيان عن برت وقال لها إنه يشعر بالندم متألما وأضاف: "لكن هذا كان أفضل لها" ووجدت مود قصة برت شاعرية وحزينة معًا، وسألت كم تكسب برت من عملها عند أهل لوسيان". وأضافت: "أليس من الغريب حقا أن تمارس الفتاة العمل فى خدمة البيوت. "لم يعد جيجار وفانى يهتمان بهما، فهو يداعبها وهى تداعبه، وكان وجه جيجار مبللا من العرق، وراح لوسيان يردد من وقت آخر: "انظرى إلى العاشقين، انظرى إليهما"، وفكر فى عبارته: "إنهما يبعثان فى الرغبة لأعمل مثلهما" ولكنه لم يضعها فى مكانها واكتفى بالابتسام، ثم تظاهر بأنه رفيق قديم لمود، قد مل من الحب وسماها "بالأخ العزيز" وربت لها على كتفها.

واستدارت فانى فجأة ونظرت إليها فى دهشة، وقالت:

"إذا، أيتها الطبقة الصغيرة، ماذا تفعلان؟ تعانقا، فستموتان من شدة الرغبة". وأخذ لوسيان مود بين ذراعيه، وأحس ببعض الضيق لأن فانى تتطلع إليهما: أراد أن تكون القبلة طويلة ناجحة، لكنه تساءل: وما العمل كى نستطيع التنفس؟. وأخيرا، وجد أن العناق ليس بمثل الصعوبة التى كان يعتقدها، إذ يكفى أن يقبل المرء من الزاوية حتى يزيح أنفه. وسمع جيجار وهو يعد:

"واحد... اثنان ... ثلاثة... أربعة .." وترك هو مود عند رقم اثنين وخمسين" وقال غيغار لا بأس بهذا كبداية، لكننى سأحسن الحال" ونظر لوسيان إلى عقارب ساعته وراح يعد بدوره: "ترك جيجار فم فانى بعد مائة وتسع وخمسين ثانية. أبدى لوسيان غضبه إذ وجد أن هذه مسابقة سخيفة، وفكر فى نفسه: "لقد تركت مود بملء إرادتى، فليس هذا صعبا، إذ إنه ما إن يستطيع المرء التنفس حتى يصبح بإمكانه أن يستمر إلى ما لا نهاية"، وطالب بجولة ثانية وكسبها، وما إن انتهى كل شىء، حتى تطلعت مود إلى لوسيان وقالت له برصانة: "إنك تحسن التقبيل" فاحمر وجه لوسيان من السرور وأضاف وهو ينحنى احتراما: "أنا فى

خدمتك" لكنه مع ذلك كان يؤثر تقبيل فانى. وافترقوا فى الساعة الثانية عشرة والنصف، موعد المترو الأخير، كان لوسيان منتشيا: "لقد كسب القضية " وأخذ يقفز ويرقص فى شارع رينوار، لكن زوايا فمه باتت تؤلمه لأنه ابتسم كثيرا.

اعتاد على مقابلة مود يوم الخميس فى الساعة السادسة وفى السبت مساء، كانت تسمح له بتقبيلها بدون أن تستسلم له، فشكا لوسيان الأمر لجيجار فطمأنه قائلا: "لا تقلق بالك، فانى متأكدة من أنها ستضاجعك، فهى لا تزال صغيرة ولم تعرف سوى عشيقين حتى الآن، توصيك فانى بأن تكون شديد الرقة معها".

فقال لوسيان: "شديد الرقة"؟ هل تدرك ذلك؟"وضحك الاثنان، واختتم جيجار بقوله "شيء لزوم الشيء يا عزيزى". كان لوسيان شديد الرقة. كان يقبل مود كثيرا ويقول لها إنه يحبها، ولكن مع الوقت أصبح هذا رتيبا؟ ثم إنه لم يكن فخورا بالخروج معها: كما أن بوده أن يبدى لها بعض الملاحظات بشأن زينتها لكن لديها الكثير من المزاعم الخاطئة فضلا عن إنها سريعة الغضب، وفى فترة ما بين القبلتين، كانا يظلان صامتين، يمسك أحدهما بيد الآخر مثبتًا نظره فيه، "الله يعلم بما هى تفكر، بتلك النظرات الجادة"، أما لوسيان، فكان يفكر فى الشيء نفسه: فى ذلك الوجود الحزين والمبهم، حياته هو، فيقول فى نفسه: "أود أن أصبح مثل لى موردان، فهذا شخص عرف كيف يجد طريقه!" فى تلك اللحظات، كان يرى نفسه وكأنه إنسان آخر: يجلس بجوار امرأة تحبه، يدها فى يده، وشفتاها لا تزالان مبللتين من قبلاته، ترفض السعادة التى يعرضها عليها: وحده. عندها أخذ يضغط بقوة على أصابع مود الصغيرة وبدت الدموع فى عينيه: إنه يريد أن يسعدها.

فى يوم من أيام شهر ديسمبر اقترب لى موردان من لوسيان، وكان يحمل ورقة وسأله: "هل تريد أن توقع عليها"

- ما هذه؟

- إنها عريضة احتجاج ضد عريضة أخرى تحمل مائتى توقيع، تعارض التجنيد الإجبارى، ونحن يلزمنا جمع ألف توقيع". واعترت لوسيان النشوة وسأل: "وهل سيتم نشرها؟"

ـ بالطبع فى جريدة "أكسيون" ومن المحتمل أيضا فى "الايكو دى بارى" وأراد لوسيان أن يوقعها فى الحال، لكنه لم يجد أن توقيعها بسرعة يدل على الجدية، فأخذ الورقة وقرأها بانتباه كلى، فأضاف لى موردان: أنت لا تهتم بالسياسة، أعتقد، وهذا شأنك، لكنك فرنسى، ولك الحق بأن تقول كلمتك". ولما سمع عبارة "لك الحق بأن تقول كلمتك" عمت الفرحة فى لوسيان نفسه ووقع العريضة وفى اليوم التالى اشترى جريدة "الأكسيون فرانسيز"، لكن العريضة لم تكن موجودة فيها، ولم يتم نشرها إلا يوم الخميس، حيث عثر عليها لوسيان فى الصفحة الثانية بعنوان: "شبيبة فرنسا تسدد ضربة قاصمة إلى وجه الحركة اليهودية الدولية" واسمه كان موجودا واضحا ومحددا فى مكان غير بعيد عن اسم لى موردان، وغير بعيد عن أسماء فلاش وفليبو التى كانت تحيط به. إنه اسم ملائم، وفكر فى نفسه "لوسيان فلورييه، اسم فلاح، اسم فرنسى حقا" وقرأ بصوت عال قائمة الأسماء التى تبدأ بحرف الفاء، ولما جاء دور اسمه، لفظه متظاهرا بأنه لا يعرفه، ثم وضع الجريدة فى جيبه وعاد إلى بيته مسرورا على أشد ما يكون السرور.

كان هو الذى توجه من تلقاء نفسه بعد أيام لمقابلة لى موردان وسأله: "هل تعمل فى السياسة؟ فقال لى موردان: أنا عضو رابطة. هل تقرأ جريدة الأكسيون أحيانا؟" فقال لوسيان بصراحة "ليس كثيرا، فهى لا تهمنى كثيرا: لكننى أحس بأننى أتبدل"، كان لى موردان ينظر إليه بغير اهتمام وأخبره لوسيان إجمالا عما سماه برجير "بالقلق" فسأله لى موردان: "من أين أنت؟

ـ من فيرول، وأبى يملك مصنعا فيها.

ـ كم بقيت من الوقت هناك؟

ـ حتى الصف الثانى الثانوى.

فقال لى موردان:

ـ أدرك ذلك تماما، هذا أمر بسيط، أنت إذن قد انتزعت من بيتك. هل قرأت باريس؟

- قرأت كوليت بودوش

فقال لى موردان وقد نفذ صبره:

- ليس هذا سآتى لك بعد الظهر بكتاب "المهجرين" إنها قصتك. ستجد فيها "الداء والدواء"، كان الكتاب مجلدا بغلاف جلدى أخضر، على الصفحة الأولى اسم: "أندريه لى موردان"، ودهش لوسيان: لم يخطر بباله قط أن يكون للى موردان اسم شخصى.

وبدأ قراءته ببالغ الحذر: فكثيرا ما شرح الناس له الأمور، وكثيرا ما أعاروه الكتب قائلين له: "اقرأ هذا، فهو يشبهك تمام الشبه"، وفكر لوسيان، بضحكة كئيبة، إنه ليس الرجل الذى يمكن خداعه ببعض العبارات. عقدة أوديب، والقلق: يا لها من صبيانيات وكم أن هذا بعيد تماما! لكنه تأثر منذ الصفحة الأولى: فليس الكتاب فى علم النفس - والشباب الذين تحدث عنهم باريس ليسوا من الأشخاص المجردين أو الخارجين على مجتمعهم مثل رامبو وفرلين، وليسوا مرضى كنساء فيينا اللواتى لا عمل لهن سوى التردد على عيادة فرويد، وراح باريس يضع هؤلاء الشباب فى إطار وسطهم وعائلتهم، لقد أحسنوا تربيتهم فى المقاطعات وسط تقاليد عريقة، ووجد لوسيان أن ستوريل يشبهه، وقال فى نفسه:

"هذا صحيح فعلا، فأنا انتزعت من بيئتى" وفكر بصحة آل فلورييه المعنوية، الصحة التى لا يؤتى بمثلها إلا فى الريف، وفكر أيضا بقوتهم الجسدية (كان جده يلوى قطعة النقود المعدنية بين أصابعه)، وتذكر بتأثر طلوع الفجر فى فيرول: كان ينهض، وينزل مسرعا كيلا يوقظ أبويه، يستقل دراجته، ويخلب له منظر الإيل دى فرانس، ليحيطه بحنانه. وفكر فى نفسه بقوة:

"لقد كرهت باريس على الدوام" وقرأ "حديقة بيرينيس"، وكان من وقت لآخر يقطع قراءته ويفكر، بعينين شاردتين ها هم من جديد يقدمون إليه شخصية ومصيرا، وسيلة للتخلص من ثرثرات ضميره التى لا تنتهى، طريقة ليحدد نفسه بها ويعرف قيمتها. ولكم يؤثره ذاك اللاوعى المفعم برائحة الحقول، والذى عرفه

عند باريس لكم يؤثر ذلك على حيوانات فرويد الشهوانية، وحتى يدرك ذلك، لم يكن ينبغى على لوسيان إلا أن يتحول عن تأمل عقيم، وخطر لنفسه: ينبغى له أن يدرس أرض فيرول من الخارج والداخل، وأن يفسر معنى الهضاب المتموجة التى تبلغ "سرنيت"، وأن يتجه نحو الجغرافيا البشرية والتاريخ، أو أن عليه بالأحرى أن يعود إلى فيرول ليعيش فيها: سيجدها تحت قدميه خصبة وديعة، تمتد على طول الريف الذى يحمل اسمها، الريف الذى يمتزج بالأعشاب والغابات والسواقى، ومن هناك ستأتيه القوة اللازمة كى يصبح قائدا ورب عمل. وخرج لوسيان شديد التحمس من خيالاته الطويلة، إذ بات يفكر من وقت إلى آخر أن لديه إحساسًا، بأنه قد وجد سبيله، والآن عندما يقف واجما إلى جانب مود، كانت الكلمات ترن فى أذنه "العودة إلى التقاليد"، "الأرض والأموات" كلمات عميقة ليس لها قرار، وفكر فى نفسه "كم هذا مشوق" غير أنه، لم يتجرأ على تصديق ذلك: فكثيرا ما خاب ظنه، وأعرب للى موردان عن مخاوفه، فقال لى موردان: وسيكون الأمر جميلا يا عزيزى، فليس بالإمكان أن يؤمن الإنسان بسهولة بما يريده، بل إن عليه إجراء الممارسة ". وفكر لحظة ثم أضاف: عليك أن تأتى معنا" وقبل لوسيان بطيب خاطر، ولكنه أوضح بأنه يريد حريته وقال: "سأذهب، غير أنى لن ألتزم بذلك، سأرى وأفكر" سر لوسيان بصحبة صغار البائعين، الذين استقبلوه بالترحاب والبساطة معا، ولم يمض وقت طويل حتى شعر بالارتياح بينهم. وتعرف بسرعة على "عصبة" لى موردان، وهم عشرون طالبا يعتمرون قبعات المخمل، كانوا يداومون على الجلوس فى الطابق الأرضى فى مطعم "بولدر" حيث يلعبون البريدج والبلياردو، وكان لوسيان يذهب هناك للقائهم، ويدرك بأنهم تبنوه، لأنهم كانوا يستقبلونه دائما هاتفين: "ها هو أجمل شخص!" أو "أنه فلورييه ذخر الوطن" لكن بشاشتهم هى التى كانت تجذب لوسيان إليهم فلا ادعاء ولا استبداد، وقليل من المحادثات السياسية.

كانوا يضحكون وينشدون الأغانى ويهتفون للشبيبة الطلابية، حتى لى موردان نفسه الذى لم ينكر عليه أحد جديته كان يبتسم فى بعض الأحيان، أما لوسيان، فكان يسكت فى أكثر الأحيان منصتا إلى هؤلاء الشباب الرافلين بالصحة، الزاخرين بالعضلات. وفكر فى نفسه: "إنهم يشكلون قوة". لقد تعرف فى وسطهم

على معنى الشباب الحقيقى: فهذا المعنى لا يكمن فى الإغراء المريض الذى يقدره برجير. الشبيبة، إنها أمل فرنسا ومستقبلها. ولم يكن لأصدقاء لى موردان مظاهر الاضطراب الساحر للمراهقة: إنهم راشدون نبتت لحاهم، يبعثون فى نفس الناظر إليهم نوعا من الارتياح العائلى: لقد انتهوا من متاهات السن وشكوكه، كانت ممازحاتهم الخفيفة القوية تثير الخجل فى نفس لوسيان: مما قد يدفعه إلى اعتبارهم غير واعين لتلك الحال، ولما جاء ريمى ليعلن أن السيدة دوبوس، زوجة القائد الراديكالى، قد قطعت الشاحنة ساقيها، انتظر لوسيان أن يعمد الرفاق إلى تكريم خصم قد ألم به مكروه. لكنهم انفجروا بالضحك وراحوا يضربون على أفخاذ بعضهم البعض قائلين: "الجثة العتيقة! والتقدير لسائق الشاحنة!". أحس لوسيان بأنه مكره قليلا، غير أنه أدرك أن ذلك الضحك لم يكن سوى الرفض: لقد استشفوا الخطر، ولم يرضوا بنوع من الشفقة. وراح لوسيان يضحك بدوره. وتدريجيا بدأ وجههم الحقيقى يظهر له. فى الواقع، كان تأكيدا لحقهم: كان اقتناعهم عميقا، دينيا وكان يعطى له الحق فى المثول بشكل تافه، وإرسال دعابة أى شىء لم يكن ضروريا. ما بين الفكاهة الجليدية لشارل موراس ونكات ديسبرو، على سبيل المثال (كان يضع فى جيبه قطعة من معطف إنجليزى قديم يصفه بالقلفة) كان هناك اختلاف فى الدرجة.

فى شهر يناير، أعلنت الجامعة عن جلسة رسمية يتم خلالها منح درجة "الدكتوراه الفخرية" إلى اثنين من العلماء السويديين المتخصصين فى المعادن. "سوف ترى مضربًا جميلاً" قال لى موردان للوسيان وهو يمنحه بطاقة دعوة. كان المدرج الكبير مشغولا بالكامل. عندما رأى لوسيان رئيس الجمهورية ورئيس الجامعة يدخلان القاعة مع عزف نشيد المارسييز الوطنى، أخذت ضربات قلبه تتصارع فقد شعر بالخوف على أصدقائه. ثم رأى بعض الشباب منتصبين فى المدرجات وأخذوا يصيحون. تعرف لوسيان بسهولة على ريمى فقد كان محمرا كالطماطم محتدا، يتناقش مع رجلين يشدانه من جاكتته صارخين: "فرنسا للفرنسيين". أكثر ما أعجبه هو ذاك الرجل المسن الذى يهتف كصبى صغير فى بوتقة صغيرة، وفكر فى نفسه قائلا: "كم هذا صحى" فقد أعجبه أن يتذوق هذا

المزيج العجيب من صلابة الرأى والتمرد الذى يهب الشباب هذا الطابع الناضج ويعطى لكبار السن هذا النمط الشيطانى. وحاول لوسيان هو أيضا أن يأتى بدعابة، فأحرز بعض النجاح عندما قال عن هريوت:

"إذا قضى فى سريره هذا الرجل، فليس هناك من إله"

وأحس بأن نوعا من الغضب الشديد يتولد فيه. عندها ضغط على فكيه، وأحس للحظة بأنه مقتنع اقتناع ريمى ودى بيرو الضيق. وفكر فى نفسه: "إن لى موردان محق. إذ ينبغى إجراء الممارسة، فكل القضية هنا".

وتعلم أيضا أن يرفض المناقشة: فجيجار الذى كان جمهوريا، أرهقه بالاعتراضات. وكان لوسيان يصغى إليه عن طيب خاطر، ولم تمض لحظة حتى أغلق على نفسه. واستمر جيجار بالكلام، لكن لوسيان لم يعد حتى ينظر إليه، بل راح يرتب ثنيات سرواله وينفخ الدخان من فمه على شكل دوائر وهو يتفحص وجوه النساء.

غير أنه كان يسمع، رغم كل شىء ملاحظات جيجار التى تصل إلى مسامعه وتتحول من ثم إلى كلمات خفيفة لا معنى لها.

وأخيرا سكت جيجار متأثرا كل التأثر. وحدث لوسيان أبويه عن أصدقائه الجدد وسأله السيد فلورييه إذا كان ينوى أن يصبح بائعا صغيرا. وتردد لوسيان ثم قال برصانة: "إن هذا يجتذبنى. حقا إنه يجتذبنى، فقالت أمه:

"لوسيان، أرجوك لا تقدم على هذا العمل، إن حياتهم مضطربة، وقد يصيبك مكروه بسببهم، ما بالك إن أوسعوك ضربًا أو قادوك إلى السجن؟. ثم إنك لا زلت صغيرا ولم يأت الوقت لتعمل فى السياسة". ولم يجبها لوسيان سوى بابتسامة جادة، فتدخل السيد فلورييه قائلا بعذوبة: "دعيه يا عزيزتى، دعيه يقدم على هذا العالم، إذ ينبغى أن يمر بهذه المرحلة".

وبدا للوسيان منذ ذلك الحين أن أهله باتوا يعاملونه بنوع من الاعتبار. غير أنه لم يكن قد اتخذ قرارا البتة. فقد علمته هذه الأسابيع الأخيرة الكثير من الأمور.

وتمثل فضول أبيه، ومخاوف أمه، واحترام جيجار، وإلحاح لى موردان، ونفاذ صبر ريمى وقال وهو يهز رأسه: "ليس ذلك عملا بسيطا". وتحدث مطولا مع لى موردان، وتفهم لى موردان جميع الأسباب التى قدمها، ونصحه بألا يتعجل. كان لوسيان لا يزال تساوره الهموم:

وبدا له أنه ليس سوى شىء هلامى شفاف يرتجف على مقعد فى إحدى المقاهى، ورأى أن تحركات البائعين الصغار تبدو له عبثا. غير أنه أحس فى لحظات أخرى بأنه قاس وثقيل كالحجر، فسر لذلك بعض السرور.

وأخذت أحواله تتحسن مع أولئك الأصحاب. فأنشد لهم "عرس ربيكا" التى علمه إياها هبرار فى العطلة الماضية.

وأشاد الجميع به وقالوا إنه كان مسليا. فتحمس لوسيان وأبدى بعض الملاحظات اللاذعة ضد اليهود وتحدث عن برلياك البخيل: "كنت أقول فى نفسى لماذا هو مقتر إلى هذا الحد، ليس بالإمكان أن يكون المرء مقترا إلى هذا الحد ثم فهمت ذات يوم إنه ينتمى للقبيلة". وراح الجميع يضحكون فتحمس لوسيان حماسا كبيرا: أحس بأنه شديد النقمة على اليهود كما أن ذكرى برلياك كانت كريهة جدا بالنسبة إليه.

ونظر إليه موردان مليا، وقال له: "أنت عفيف".

وبعدها كان لوسيان يُسأل مرارًا "فلورييه، أخبرنا عن قصة اليهود" ويبدأ لوسيان بسرد القصص التى حفظها عن والده، مستهلا كلامه بتقليد لهجة مضحكة غريبة، انفجر الجميع على أثرها فى الضحك.

ذات يوم قال ريمى وباتنوتر إنهما التقيا مع يهودى جزائرى على ضفاف السين وجعلاه يخاف خوفا شديدا، وهما يتقدمان إليه، وكأنهما يريدان إلقاءه فى الماء وختم ريمى حديثه بقوله:

"واأسفاه، آه لو كان فلورييه معنا".

فقاطعه ديبرو "إن غيابه أفضل، لأنه لو كان موجودا لألقى به فعلا فى الماء. ليس لدى لوسيان من شبيه له حتى يتعرف على اليهودى بمجرد رؤيته. وعندما يخرج مع جيجار، كان يدفعه برفق: "لا تستدر إلى الوراء فى الحال: هذا القصير الضخم الذى وراءنا هو واحد منهم".

فيقول جيجار: "إنك لشديد الذكاء فى مثل هذه الأمور".

وفانى بدورها لا تستطيع أن تشتم رائحة اليهود.

صعد الأربعة معا يوم الخميس إلى غرفة مود، وغنى لوسيان أنشودة "عرس ربيكا" ولم تعد فانى تتمالك نفسها فقالت له:

"توقف، توقف، سأبول فى سروالى".

وما إن انتهى حتى رمقته بنظرة ملؤها السرور والعذوبة.

فى مطعم بولدر، انتهوا إلى أن يكذبوا على لوسيان. فهناك دائما من يقول بلا مبالاة:

"فلوربيه الذى يحب اليهود كثيرا..." أو "ليون بلوم صديق فلوربيه الكبير"... بينما ينتظر الآخرون فاغرين أفواههم رد فعل لديه. ويحمر وجه لوسيان، ويضرب على الطاولة صائحا:

"يا للاسم اللعين...!"

فيضحك الجميع ويقولون:

"ها قد مشى! ها قد مشى! كلا لم يمش: بل ركض! "

كان يصحبهم أكثر الأحيان إلى الاجتماعات السياسية ويستمع إلى الأستاذ كلود وإلى ماكسيم ريل دل سارت.

ولا شك بأن هذه الالتزامات كانت تعيق لوسيان عن دروسه، ولم يعد يأمل بالنجاح فى تلك السنة فى اختبارات المدرسة المركزية، لذا كان السيد فلوربيه يقول لزوجته:

"لا بأس، عليه أن يتعلم كيف يكون رجلا" وعندما يخرجون من الاجتماعات يعمد لوسيان ورفاقه إلى ارتكاب الأعمال الصبيانية لشدة تحمسهم. ذات يوم وكانوا حوالى عشرة أشخاص يسيرون فى شارع سان أندريه دى زار أبصروا شخصا يقرأ جريدة الأومانيتيه (أى الإنسانية).

فحصروه عند الحائط وأمره ريمى بقوله:

"ارم هذه الجريدة". وأراد الرجل أن يقاوم، فجاء ديبرو من ورائه وكتف له يديه، بينما انتزع منه لى موردان الجريدة. كان موقفا مسليا: راح الرجل القصير يخبط فى الهواء صائحا:

"اتركونى! اتركونى!" بلهجة مضحكة، بينما كان لى موردان بكل هدوء يمزق الجريدة. ولكن حين أراد ديبرو أن يفلت الرجل، تأزمت الأمور: كاد الرجل يمسك لى موردان، لو لم يضربه ريمى على أذنه ضربة قوية، فارتطم الرجل بالجدار ونظر إليهم صائحا:

"يا لكم من فرنسيين قذرين!" فقال له مارشسو:

"كرر ما قلته". وفهم لوسيان أن القضية سيزداد تدهورها: إذ إن مارشسو لم يكن يستطيع الممازحة حين تتعلق القضية بفرنسا، وقال الرجل الغريب: "يا لكم من فرنسيين قذرين!" وتلقى صفعة قوية ارتمى على إثرها إلى الأمام، فصاح وقد خفض رأسه قائلا: "يا للبرجوازيين القذرين، إننى أكرهكم، أريد أن تموتوا جميعا، جميعا!" وأضاف الكثير من الشتائم الأخرى التى لم يكن لوسيان ليتصورها. عندها ضاقوا به ذرعا واشتركوا جميعا فى إصلاحه. وما هى إلا لحظة حتى تركوه فتهالك الرجل وأسند ظهره للجدار، وتجمعوا حوله بعد أن تعبوا من الضرب ينتظرون وقوعه على الأرض. ولوى الرجل فمه وبصق:

"يا للفرنسيين القذرين!" وسأله ديبرو وهو يلهث:

"هل تريد أن تعاود الكرة. ولم يبد على الرجل أنه سمع: بل كان ينظر إليهم بعينه اليسرى، التى لم تصب وراح يكرر: "يا للفرنسيين القذرين! يا للفرنسيين القذرين!"

ومرت فترة تردد، وفهم لوسيان بأن رفاقه لن يتابعوا الجولة. فانقض بدوره على الرجل بكل قواه. وسمع شيئا يقرقع، فنظر إليه الرجل مبغوتا " يا للقذرين..." وبدأت عينه اليمنى المغمضة تنفتح بعض الشيء. ووقع على ركبتيه ولم يضف أي شيء. فقال ريمى: "فلنذهب".

وراحوا يركضون ولم يتوقفوا إلا عند ميدان سان ميشال:

ما من أحد يلحق بهم. وحسنوا وضع ياقاتهم ومشطوا شعرهم بأيديهم على عجل.

ومضت السهرة بدون أن يأتى الشباب على ذكر مغامرتهم، وتأنسوا فيما بينهم: ها أنهم يتركون ذلك العمل الوحشى الذى يخفى مشاعرهم وراءه. وراحوا يتحدثون بكل تأدب، وفكر لوسيان بأنهم بدوا للمرة الأولى كما ينبغى أن يكونوا عليه وسط أهلهم. لكنه كان هو نفسه منزعجا، إذ إنه لم يألف القتال فى الشارع مع أبناء الأزقة، وفكر بمود وفانى بحنان.

لم يذق طعم النوم. وفكر فى نفسه: "ليس بإمكانى أن ألحق بهم كهاو، علىّ أن أعلن انتمائى الآن! " وشعر بأنه رصين جدا لدرجة التدين حين زف النبأ للى موردان.

فقال له: "لقد صممت، وأنا معكم". وربت لى موردان على كتفه، واحتفلت الجماعة بالحدث وشربوا عدة زجاجات.

وعادوا إلى لهجتهم العنيفة ولم يتناولوا حادث البارحة.

ولما هموا بالافتراق قال مارشسو للوسيان:

"ضرباتك قوية!" فأجاب لوسيان: "لقد كان يهوديا!"

وفى اليوم الذى تلا الغد، أتى لوسيان لمقابلة مود وهو يحمل قضيبا غليظا من الخيرزان اشتراه من شارع سان ميشال.

وأدركت مود المغزى فى الحال، ونظرت إلى القضيب قائلة:

"إذا فقد تم الأمر". وأجابها باسما:

"لقد تم". ورأت مود أن هذا يرفع من شأنها شخصيا، وإن كانت أقرب إلى اليسار، فإنها واسعة الأفق. وقالت له:

"إننى أجد جوانب حسنة لدى جميع الأحزاب" .

وفى المساء، حكت له رقبته عدة مرات وهى تناديه بالبائع الصغير. بعد ذلك بوقت صغير، وفى مساء يوم السبت، شعرت مود بالتعب، وقالت له: "أرى أنه ينبغى أن أعود إلى البيت، ولكن بإمكانك أن تصعد معى، لو كنت عاقلا: ستمسكنى بيدى وستكون لطيفا جدا مع عزيزتك مود التى تشعر بالألم وستقص عليها الحكايات". ولم يتحمس لوسيان كثيرا للفكرة: إذ إن غرفة مود كانت تضايقه بفقرها، فهى كغرفة الخادمات. لكنه من الجريمة أن يجعل الفرصة تفوته.

وما إن دخلت مود، حتى ارتمت على السرير قائلة:

"أوف، كم أشعر بالارتياح". ثم سكتت ونظرت إلى لوسيان بإمعان بعد أن زمت شفتيها. وأتى ليستلقى إلى جانبها، ووضعت يديها على عينيها وباعدت بين أصابعها قائلة بصوت مثل صوت كصوت الطفل: "كوكو، ها أنا أراك، أنا أراك يا لوسيان" .

وأحس بأنه ثقيل رخو، ووضعت أصابعها فى فمه فراح يلعقها، وقال لها برقة:

"إن صغيرتى مود مريضة، كم هى بائسة صغيرتى مود".

وداعب كل جسدها، وكانت قد أغمضت عينيها وهى تبتسم ابتسامة غريبة. وما هى إلا لحظة حتى رفع ثوب مود وضاجعها. وفكر لوسيان: "أنا قدير".

وقالت مود بعد أن انتهيا: "آه، لو كنت أتوقع ذلك!"

وألقت إلى لوسيان نظرة عتاب عذب: "يا لك من خبيث ظننت أنك ستظل عاقلا!" وقال لوسيان بأنه فوجئ أيضا مثلها وقال: "حدث الأمر تلقائيا".

ففكرت قليلا وقالت له برصانة: "أنا لا آسف على شيء، في السابق كان الأمر أكثر طهارة، ولكن أقل كمالا".

وفكر لوسيان في المترو: "إن لي عشيقة". كان فارغ الذهن، تعبا، يشتم رائحة الأفسنتين والسمك الطازج.

وجلس في مكانه جامدا ليتجنب ملامسة قميصه المبلل بالعرق.

وتهيأ له أن جسمه غارق في اللبن المختثر. وكرر لنفسه بقوة: "إن لي عشيقة". لكنه شعر بالكبت، فإن الذي جعله يرغب في مود حتى عشية أمس، كان وجهها الضيق الجاد، وشكلها الرقيق، وهيئتها الوقورة، وشهرتها كفتاة رصينة، واحتقارها لجنس الرجال، وكل ما يجعل منها شخصا غريبا، إنسانا "آخر" بالفعل. بأفكارها الخاصة وحشمتها، وجوربيها الحريريين وفستانها الناعم وشعرها المتموج. وذاب الطلاء حين ضمها إليه، ولم يبق سوى اللحم، لقد اقتربت شفتاه من وجه ليس له عينان، وجه عار كالبطن، لقد حاز على زهرة ضخمة من اللحم المبلل. وتذكر الحيوان الأعمى الذي كان يتحرك في السرير ما بين الملامسات والتثاؤب الناعم وفكر: "إنه كلانا معا". لم يكونا سوى شخص واحد، لم يعد بوسعه أن يميز لحمه عن لحم مود. ما من أحد جعله يشعر بتلك الحميمية المقززة سوى ريري: حين كان ريري يبدي عضوه وراء السياج أو حين كان يبقى ملقى نائما على بطنه، يحرك رجليه ويديه، عاريا، بينما هو يجفف سرواله. وشعر لوسيان ببعض العزاء حين فكر بجيجار: سيقول له غدا: "لقد ضاجعت مود، إنها امرأة مثيرة يا صاح: والإثارة موجودة في دمها "لكنه كان متضايقا: يحس بأنه عار وسط المترو، عار تحت ستار رقيق من الملابس، جامد وعار بجوار الكاهن، مواجها لامرأتين ناضجتين، وكأنه هليونة كبيرة ملوثة.

وهنأه جيجار بحرارة. وكأنه قد سئم معاشرة فاني:

"إن عشرتها سيئة للغاية. وأمس قلبت وجهها طيلة السهرة". واتفق كلاهما على أنه ينبغي وجود نساء كهذه النساء، إذ ليس بالإمكان أن يبقى المرء طاهرا حتى الزواج ثم إن هذه النسوة لسن مغرضات ولا مريضات، سوى أنه من الخطأ التمسك بهن.

وتحدث جيجار عن الفتيات الحقيقيات بكثير من الرقة، وسأله لوسيان عن أخبار أخته. فقال جيجار: "صحتها جيدة يا صاح. وتقول بأنك سريع الهجران" وأضاف بنوع من الشرود: "هل تدرى! إننى مسرور لأن لى شقيقة، إذ إن هناك أشياء لا نستطيع أن نعيها بدون الشقيقات". وأعطاه لوسيان كل الحق. وبعدها، أخذا يتحدثان كثيرا عن الفتيات وأحسا بأنهما مغرمان بالشعر، وكان يحلو لجيجار أن يردد قول أحد أعمامه، وهو شديد النجاح مع النساء: "لعلى لم آت أية حسنة فى حياتى الملعونة، لكن هناك شيئا واحدا سيعطينى الله أجرا عليه، فأنا تقطع يدى ولا تمتد إلى أى فتاة ".

كانا يذهبان أحيانا لزيارة صديقات بييريت جيجار. وكان لوسيان يحب بييريت كثيرا، يحدثها بلهجة الأخ الأكبر وليس بغير مضايقة كما أنه شكر لها حسن صنيعها لأنها لم تقدم على قص شعرها.

وملأت عليه نشاطاته السياسية كل شىء، إذ راح يبيع "الأكسيون فرانسيز" أمام كنيسة نويى. ويظل طيلة ساعتين يروح ويجىء، منكمش الأسارير. فترفع الفتيات وهن خارجات من الكنيسة أنظارهن الجميلة إليه. عندها ينشرح لوسيان قليلا ويبتسم لهن. وقد أوضح لجماعته بأنه يحترم النساء وهو سعيد لأنه وجد مع أصدقاء الجماعة الإدراك نفسه الذى كان يأمله.

وجميع أصحابه كان لهم شقيقات.

وفى ١٧ أبريل أقام آل جيجار حفلا راقصا بمناسبة بلوغ بييريت الثامنة عشرة من عمرها، ودعى لوسيان إلى الحفلة بالطبع. كان على صلة وثيقة ببييريت، إذ إنها تسميه راقصها الخاص، وهو يظن بعض الظن بأنها تحبه.

ورقص لوسيان عدة مرات مع بييريت ثم راح ليلحق بجيجار فى قاعة التدخين. فقال جيجار:

"تحية لك، أظن بأنكم تعرفون بعضكم البعض، فلورييه سيمون، فانوس، لودو".
وبينما جيجار يقدم أصدقاءه، أبصر لوسيان شابا أشقر كث الحاجبين، يقترب منهم بتردد، فاجتاحه الغضب. وتساءل فى نفسه: ماذا يفعل هنا هذا الشخص؟ "

وجيجار يعرف حق المعرفة أننى لا أستطيع أن أتحمل اليهود! "وأشاح بوجهه وابتعد ليتجنب التعارف. وسأل بييريت بعد لحظة: "ما هذا اليهودى؟"

- "إنه ويل، طالب فى معهد العلوم التجارية العليا، تعرف عليه أخى فى قاعة المسايفة. فقال لوسيان: "إننى أكره اليهود". فضحكت بييريت ضحكة خفيفة وقالت:

- "إنه شاب طيب، تعال رافقنى إلى البوفيه "وتناول لوسيان كأسا من الشمبانيا وما كاد يلقيه من يده: حتى رأى نفسه بمواجهة جيجار وويل. ونظر إلى جيجار نظرة ملؤها الغضب وأدار ظهره بسرعة. لكن بييريت أمسكته بذراعه.

وباغته جيجار بصراحة قائلا ببساطة: "صديقى فلورييه، صديقى ويل. ها قد أجرينا التعارف". ومد ويل يده، وأحس لوسيان بضيق شديد. ولحسن الحظ، تذكر كلام ديبرو:

"لو كان فلورييه موجودا لألقى به فعلا فى الماء".

ووضع يديه فى جيبيه وأدار ظهره لجيجار وفكر فى نفسه وهو يطلب ثيابه: "لن أستطيع المجىء إلى هذا البيت مرة أخرى". وأحس بنوع من الكبرياء المرير.

"هذه هى عاقبة من يتمسك بآرائه، يفقد المرء مقدرته على العيش فى المجتمع"، وفى الشارع تلاشى ذاك الكبرياء واعتراه قلق شديد. لابد وأن يكون جيجار قد غضب!" وهز رأسه وحاول أن يقول لنفسه باقتناع راسخ: "لم يكن ينبغى أن يدعو يهوديا، ما دام قد دعانى".

لكن غضبه تبدد. وتذكر بنوع من الضيق وجه ويل المستهجن، ويده الممدودة، وشعر بميل للمصالحة:

"لابد وأن تفكر بييريت بأنى فظ غليظ. كان ينبغى أن أصافح تلك اليد. فذلك لا يلزمنى بشىء. إن كل ما كان يتوجب على هو أن أقوم بتحية ملؤها التحفظ وابتعد بعدها: هذا كل ما هنالك". وتساءل فى نفسه إذا كان يستطيع العودة إلى منزل آل جيجار. سيقترب من ويل ويقول له: "اعذرنى، فقد اعترانى بعض الضيق". وسيشد على يده ويحدثه نوعا من الحديث اللطيف".

ولكن لا. لقد فات الوقت. وتصرفه لا يمكن تلافيه. وفكر فى نفسه غاضبا: "ما كان يحوجنى لإبداء آرائي أمام الناس وهم لا يفهمونها!" وهز كتفيه بعصبية: إنها كارثة فى نفس اللحظة كان جيجار وبييريت يعلقان على تصرفه، وقال جيجار: "إنه مجنون تماما!" وضغط لوسيان على قبضة يده. وفكر بنوع من اليأس:

"أوه، كم أننى أكرههم! كم أكره اليهود!"

وأراد أن يجنى بعض القوة من ذلك الكره الكبير.

لكن الكراهية تلاشت أمام عينيه، فمهما فكر بأن ليون بلوم يتلقى المساعدة من ألمانيا ويكره الفرنسيين، لم يعد يشعر سوى بنوع من اللامبالاة. ومن حظ لوسيان أنه وجد مود فى بيتها.

وقال لها إنه يحبها وضمها عدة مرات إلى صدره بنوع من الثورة. وقال فى نفسه: "انتهى كل شيء، ولن أصبح رجلا مهما". فقالت له مود: "لا. لا. كف عن هذا يا عزيزى الكبير، هذا ممنوع". لكنها رضخت فى النهاية، أراد لوسيان أن يقبلها فى كل مكان. وشعر بأنه صبيانى النزعة منحرف الطباع.

واعترته رغبة فى البكاء.

وفى صبيحة اليوم التالى انعصر قلب لوسيان حين وقع نظره على جيجار. بدا جيجار متكتما وتظاهر بأنه لم يره. ولم يتمكن لوسيان لشدة غيظه من كتابة شروح الأستاذ وفكر فى نفسه:

"يا للقذر! يا للقذر!".

وفى ختام الدرس اقترب منه جيجار وكان ممتقع اللون وفكر لوسيان: "لو اعترض، سأضربه".

ومكثا لحظة جنبا إلى جنب، كلاهما ينظر إلى رأس حذائه.

وأخيرا قال جيجار بصوت متهدج: "اعذرنى يا صاح، فلم يكن ينبغى أن أقدم على هذا العمل".

وارتعد لوسيان ونظر إليه بحذر. لكن جيجار تابع بصعوبة:

"صادفته فى القاعة، هل تعلم. عندها أردت... وكنا نتمرن معا ودعانى إلى بيته، لكننى أدرى، كما تعلم، لم يكن علىّ أن، لست أدرى كيف جرى سوى أنى عندما كتبت البطاقات لم أفكر بالأمر لحظة واحدة..."

ولم يكن لوسيان يقول شيئا لأن الكلمات لا تخرج من فيه، لكنه شعر بميله للغفران. وأضاف جيجار مطأطئ الرأس:

"يا لها من حماقة..." فقال لوسيان وهو يربت على كتفه:

"يا لك من أحمق، أنا أعرف حق المعرفة بأنك لم تتعمد ذلك". وأضاف: "وأنا أخطأت بدورى. وتصرفت تصرف الفظ الغليظ. ولكن ماذا تريد، لم أستطع أن أتمالك نفسى فليس بإمكانى أن ألامسهم، وهذا شىء طبيعى، أحس بأن فى أيديهم القشر. ماذا قالت بييريت!" فقال جيجار برفق: "لقد ضحكت كالمجنونة".

"والرجل؟".

لقد فهم. وقلت كل ما بإمكانى أن أقوله، لكنه غادر الحفلة بعد ذلك بربع ساعة. وأضاف بنفس الارتباك والخجل:

"قال أهلى بأنك محق، وبأنه ليس بإمكانك أن تتصرف بخلاف ذلك تجاه اعتقادك الراسخ. وتذوق لوسيان كلمة "اعتقاد".

وأراد أن يضم جيجار بين ذراعيه، وقال له: "لا بأس، لا بأس. ما دمنا لا نزال أصدقاء".

ونزل إلى شارع سان ميشال بنوع من الانشراح العجيب:

وبدا له أنه ليس الشخص نفسه.

وقال فى نفسه "غريب هذا الأمر، فأنا أنا، ولا أعرف نفسى!" كان الطقس دافئا ولذيذا، والناس يجوبون الشوارع وعلى وجوههم ابتسامة الربيع الأولى.

وانضم لوسيان إلى هذا الجمهور المائع وكأنه زاوية من الفولاذ وفكر فى نفسه: ما عدت أنا نفسى، أنا "كنت لا أزال حتى مساء أمس كالحشرة الضخمة، التى تشبه صراصير فيرول.

والآن يشعر لوسيان بأنه دقيق دقة الكرونومتر.

ودخل مقهى لاسورس وطلب كأسا. لم يكن صحبه يقصدون لاسورس لأنها تعج بالغرباء. لكن الغرباء واليهود لم يكونوا ليضايقوا لوسيان فى هذه الأيام.

وأحس بأنه غريب على تلك المجموعة من الأجساد البشرية التى تضج كحقل "الشوفان" إذ تلعب به الريح. وتعرف على يهودى قصير، كانت العصبة قد ضربته فى الفصل الدراسى المنصرم، فى ممرات كلية الحقوق.

لم يظهر أثر الضرب على هذا الكائن العجيب البدين. لقد التوت أجزاؤه لكنه ما لبث أن عاد إلى حالته السابقة. وهو يعيش حاليا نوعا من الاستسلام الفاضح.

إنه سعيد فى هذه اللحظة. لقد تثاءب بلذة. كما دغدغ شعاع الشمس منخريه، فحك أنفه وابتسم. هل كانت تلك بسمة؟

أو نوعا من الارتجاج الذى نشأ فى الخارج، هناك فى مكان ما من زاوية القاعة، وجاء ليذوى فوق ثغره؟ كان جميع هؤلاء الغرباء سابحين فى مياه قاتمة ثقيلة، تهز بتموجاتها أجسامهم الرخوة، كما ترفع أذرعتهم، وتحرك أصابعهم، يا للأشخاص المساكين! إن لوسيان يشفق عليهم بعض الشفقة.

لم أتوا إلى فرنسا؟ أية تيارات بحرية جرفتهم وألقت بهم هنا؟

ومهما احتشموا فى لباسهم عند خياطى شارع سان ميشال فنهم ليسوا سوى حيوانات هلامية بحرية.

وفكر لوسيان بأنه ليس حيوانا هلاميا بحريا، وبأنه لا ينتمى لأية مجموعة من الحيوانات المحتقرة. وقال فى نفسه:

"إننى أغطس!" وفجأءة نسى لاسورس والغرباء، ولم يعد يرى سوى ظهر، ظهر عريض تكسوه العضلات، يبتعد بسرعة بقوة متزنة، ويضيع فى الغمام.

ورأى أيضا جيجار شاحب الوجه، يلاحق هذا الظهر بعينيه، ويقول لبييريت التى لم تظهر:

"حسنا، إنها الحماقة!..." واعترى لوسيان نوع من السرور الذى لا مبرر له: إن هذا الظهر القوى المنعزل إنما هو"ظهره"! والحادثة جرت أمس وبمجهوده العنيف استطاع أن يتطلع إلى ظهره بعينى جيجار، وشعر بوضاعته وأحس بأن الذعر قد دب فيه. وفكر فى نفسه:

"سيكون ذلك بمثابة درس لهم". وتبدلت المناظر: إنها غرفة بييريت الصغيرة، والحادثة تجرى فى المستقبل. بييريت وجيجار يشيران إلى اسم فى لائحة المدعوين. لم يكن لوسيان موجودا، لكن سطوته خيمت عليهما.

وقال جيجار: "آه! كلا. ليس هذا الشخص! حسنا! فمع لوسيان تصبح الأمور جميلة، لوسيان الذى لا يستطيع تحمل اليهود". وتأمل لوسيان نفسه مرة أخرى وفكر: "لوسيان، إنه أنا! شخص لا يستطيع تحمل اليهود". لقد تلفظ مرارا بتلك العبارة، لكن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة. كلا فى الظاهر ليس إلا، كما لو أننا نقول: "لوسيان لا يحب المحار" أو أن "لوسيان يحب الرقص".

ولكن ينبغى أن نتجنب الخطأ .

فمحبة الرقص، لعل بالإمكان العثور عليها لدى اليهودى الصغير، وهى لا تكون وقتها سوى ارتعاشة حيوان هلامى بحرى.

لم يكن ينبغى سوى التطلع إلى هذا اليهودى اللعين حتى ندرك بأن أذواقه لاصقة به كرائحته، كإنعكاسات جلده، وبأنها ستختفى معه كاهتزازات جفنيه الثقيلين، و كبسماته المفعمة بالشهوة. لكن اللاسامية لدى لوسيان تتخذ طابعا آخر: إنها طاهرة عديمة الشفقة، قد غرست بمنأى عنه كسكين الفولاذ مهددة صدورا أخرى. وفكر فى نفسه:

"هذا، هذا... لعين!" وتذكر بأن أمه كانت تقول له أحيانا فى صغره: "والدك يعمل فى مكتبه"

وبدت له هذه العبارة بمثابة سر من الأسرار المقدسة أفضت إليه فجأة بجمهرة من الالتزامات الدينية، كأن لا يلعب ببندقية الهواء المضغوط وأن لا يصيح "ترارابوم" فى الممرات، وهو يمشى على رءوس أصابعه، كما لو أنه داخل كنيسة.

وفكر فى نفسه راضيا كل الرضا: "لأن جاء دورى". كانوا يقولون بصوت خافت "لوسيان لا يحب اليهود" ويشعر الناس بأن قواهم تتلاشى أمام جمهرة السهام التى تخترقها ويقول فى نفسه بحنان: "إن جيجار وبيبريت طفلان" ارتكبا جرما كبيرا، ولكن ما إن كشر لوسيان عن أسنانه حتى شعرا بتوبيخ الضمير وراحا يتكلمان بصوت خافت يسيران على رءوس أصابعهما.

وأحس لوسيان للمرة الثانية بأنه مفعم باحترام نفسه. لكنه هذه المرة ليس بحاجة لعينى جيجار: فهو يبدو محترما بعينيه هو، بعينيه اللتين تخترقان غلافة المصنوع من اللحم، من الذوق، والاشمئزاز، والعادات، والأمزجة. وفكر فى نفسه: "لم أجد نفسى حيث بحثت عن نفسى".

وقام بإحصاء جميع ما هو عليه. "لكننى إذا لم أكن إلا ما أنا، فإننى لا أساوى أكثر من هذا اليهودى القصير".

ولو بحثنا فى سر هذا الغشاء ماذا بإمكاننا أن نجد، إن لم يكن كآبة اللحم، وأكذوبة المساواة، والفوضى؟

وقال لوسيان فى نفسه: "الحكمة الأولى، عدم البحث عن شىء فى الذات. فليس من خطأ يفوق بخطورته هذا الخطر.

وهو يعرف الآن أن لوسيان الحقيقى ينبغى أن يبحث عنه فى أعين الآخرين، فى طاعة بيبريت وجيجار، وفى الانتظار المفعم بالأمل لدى أولئك الناس الذين يكبرون وينضجون من أجله، وفى هؤلاء المتدربين الذين سيصبحون عماله هو،

وفى سكان الفيرول كبارا وصغارا، الذين سيصبح يوما ما رئيسا لبلديتهم. واعترى لوسيان بعض الرهبة. وشعر بأنه كبير على نفسه. فكثيرون من الناس ينتظرونه لحمل السلاح: وهو كان وسيظل دائما يجسد انتظار الآخرين.

وفكر فى نفسه "هذا هو، قائد" ورأى من جديد ظهرا مكسوا بالعضلات، ثم رأى بعد ذلك كنيسة كان فى داخلها يسير بلا ضجة تحت الأضواء المتسللة عبر النوافذ الزجاجية. "لكننى، أنا الكنيسة". وأمعن النظر إلى جاره، وهو رجل كوبى أسمر عذب كالسيجار. كان ينبغى إيجاد كلمات بأى شكل للتعبير عن هذا الاكتشاف العجيب.

ورفع يده بتؤدة وبعناية فائقة إلى جبينه، وخلا لنفسه قليلا مفكرا وجاءت الكلمات من تلقاء ذاتها وتمتم:

"لى حقوق، لى حقوق!"

شىء على صورة المثلثات والدوائر: إنه كامل إلى حد أنه ليس موجودا، فمهما رسمنا خطوطا مستديرة بواسطة البرجل فلن نتمكن من تنفيذ دائرة واحدة. أجيال من العمال ستطيع أوامر لوسيان كل الطاعة، ولن تستنفذ حقه بإعطاء الأوامر. فالحقوق من وراء الوجود كالأشياء الرياضية والعقائد الدينية. وهذا ما كان عليه لوسيان بالضبط: باقة ضخمة من المسئوليات والحقوق لقد آمن لوقت طويل بأنه وجد بالصدفة ومرد ذلك لأنه فكر بما فيه الكفاية. فقبل ولادته كان اسمه محفورا فى الشمس. فى فيرول، كانوا بانتظاره حتى من قبل زواج أبيه. وإذا ما أتى إلى العالم الآن فلكى يحتل هذا المكان. وفكر فى نفسه، "أنا موجود لأن لى الحق بالوجود "ولأول مرة، على ما يبدو، شهد رؤيا ساطعة مجيدة فى مصيره. سيتم قبوله فى المدرسة المركزية إن عاجلا أم آجلا (وليس لهذا أية أهمية على كل حال) عندها يتخلى عن مود (إنها تريد طيلة الوقت أن تضاجعه. وهذا مرهق فإن رائحة الشواء تنبعث من امتزاج جسديهما فى مستهل هذا الربيع الحار "ثم إن مود لجميع الناس: اليوم هى لى وغدا لغيرى وليس لهذا أى معنى).

سيقيم فى فيرول. فى مكان ما فى فرنسا فتاة من نوع بييرات، فتاة ريفية ذات عينين ورديتين، لا تزال تحافظ على عفتها من أجله: كانت تحاول أن تتخيل سيدها فى المستقبل، هذا الرجل الرهيب العذب. لكنها لم تتوصل إلى ذلك، إنها كانت عذراء.

وتعترف بحق لوسيان فى امتلاك جسدها وحده. سيقترن بها وستصبح زوجته وهى أكثر حقوقه عذوبة. وحين تخلع ثيابها فى المساء، بحركات لا أهمية لها، ستكون بمثابة محرقة بل وتضحية. سيأخذها بين ذراعيه بموافقة الجميع ويقول لها: " إنك لى! " وإن ما تبديه أمامه، من واجبها ألا تبديه أمام غيره، والعملية الجنسية ستكون بمثابة الإحصاء الشهوانى لثرواته، وأكثر حقوقه عذوبة، وأعز حق عليه: حق الاحترام حتى فى اللحم البشرى، وهو الطاعة حتى فى السرير. وفكر فى نفسه:

"سأتزوج فى وقت مبكر" وسننجب الكثير من الأطفال. كما فكر بعمل أبيه. إنه يستعجل إتمامه وتساءل فى نفسه إذا كان السيد فلورييه سيموت بعد وقت قصير.

دقت ساعة الجدار الثانية عشرة: نهض لوسيان فقد تحقق التغيير: فى هذه القهوة. قبلها بساعة كان قد دخل المعهد شاب جذاب متردد، فخرج منها رجلا. هو قائد من الفرنسيين. وخطا لوسيان بضع خطوات فى ضوء صباح فرنسى مجيد وفى زاوية شارع المدارس وجادة سان جرمان اقترب من مكان حانوت الورق وتراءى أمام المرآة: كان بوده أن يرى فى وجهه، وجه لى موردان القاتم. لكن المرآة لم تعكس له سوى وجه عنيد ومخيف جدا، فصمم فى نفسه: "سأترك شاربى لينمو".

المؤلف فى سطور:

جان بول سارتر

ولد فى باريس يوم ٢١ / ٦ / ١٩٠٥. أبوه جان باتيست سارتر كان ضابطًا في البحرية الفرنسية، وقد توفي وابنه رضيع. أما أمه آن ماري شفايتزر فقد ربته في كنف جده واحتفظت بحدبها عليه حتى بعد أن تزوجت من جديد. وكان عمها ألبير شفايتزر طبيبًا مشهورًا، وقد نال جائزة نوبل للطب سنة ١٩٥٢.

نشأ سارتر بين الكتب نشأة يعبر عنها كتابه "الكلمات" الذى رأيت أنه أفضل ما يمكن تقديمه لهذه المناسبة، بوصفه شطرًا من سيرة ذاتية ومدخلاً إلى مكونات وعي هذا الفيلسوف الذي لم يكف عن الأسئلة حتى غادر هذا العالم فى الخامس عشر من إبريل ١٩٨٠.

عاش سارتر تجربة الأسر، عندما احتل الألمان بلاده خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يحمل السلاح، فاستمر حبسه سنة (١٩٤٠-١٩٤١) وبعد عام، راح يتردد على المقاهى الثقافية ومعه عدد من المشاهير من أمثال ألبير كامو. وقد أسس مجلة "الأزمنة الحديثة" عام ١٩٤٤. وفى العام التالى ألقى محاضرة فى أمريكا بعنوان "الوجودية نزعة إنسانية" فأحدث ضجة كبرى كانت المدخل إلى شهرته العالمية.

المترجمة فى سطور:

نجلاء نادى إبراهيم

ـ حاصلة على ليسانس آداب وتربية ـ جامعة عين شمس.

ـ حاصلة على ليسانس آداب ـ جامعة عين شمس.

ـ تعمل بشركة "أستاذ أون لاين" للتعليم عن بعد .

ـ مؤلفة ومترجمة حرة بالإذاعة المصرية" البرنامج الثقافى:

برنامج روائع نوبل.

برنامج القصة القصيرة المترجمة والمؤلفة.

ـ عضو فى اتحاد الكتاب الفرنسى وصدر لها:

مسرحية "انتقام الفرعون الصغير"

المراجعة فى سطور:

د. فاطمة خليل محمد الدسوقى

- قسم اللغة الفرنسية/ كلية الآداب - جامعة حلوان.
- حصلت على درجة دكتوراه الدولة فى الأدب الفرنسى من كلية فقه اللغة - جامعة الكومبلوتنسى بمدريد/ إسبانيا عام ١٩٨٤.
- عضو هيئة تدريس فى جامعة حلوان منذ عام ١٩٨٦.
- اللغات الأجنبية التى تجيدها: الفرنسية والإسبانية والإنجليزية.
- ١٩٩١ منحة تدريبية لمدة ٣ شهور فى مدريد/ إسبانيا.
- ١٩٩٢ - ١٩٩٤ أستاذ مشارك اللغة الفرنسية والإسبانية فى معهد تدريب الزوجات الدبلوماسيات بوزارة الخارجية السعودية فى الرياض.
- ٢٠٠٢ - ٢٠٠٥ ملحق ثقافى بسفارة جمهورية مصر العربية فى باريس.
- أثناء وجودها فى كل من فرنسا وإسبانيا نظمت وشاركت فى العديد من الندوات الثقافية والفكرية فى مختلف المؤسسات والجامعات والهيئات الحكومية وغير الحكومية للتعريف بمصر مع إلقاء محاضرات للتعريف بالمرأة المصرية ودورها الفاعل فى المجتمع المصرى.
- أشرفت على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه وشاركت فى لجان مناقشتها والحكم عليها فى جامعات حلوان والأزهر والمنيا وغيرها.
- حصلت فى يناير ٢٠١٠ على الجائزة الأولى عن ترجمتها من العربية إلى الفرنسية لمسرحية "الحكيم لا يمشى فى الزفة" التى كتبها د. أحمد عتمان، وذلك فى أول مسابقة يقيمها "مركز اللغات الأجنبية والترجمة" بجامعة القاهرة.
- تتولى حاليا إدارة "مركز اللغات للأغراض المتخصصة" بكلية الآداب/ جامعة حلوان.

التصحيح اللغوى: محمد المصرى

الإشراف الفنى: حسن كامل